المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من مذكراتي، تحدثت فيه عن انتقالي من القرية- تسيل- إلى مدينة ذرعا للدراسة في المرحلة الإعدادية، وكانت مدرسة الإعدادية هي المدرسة الوحيدة لأهل محافظة حوران ومنطقة الزوية، وتحدثت أيضًا عن أساتذتي الذين استفدت من علمهم وفضلهم، وصحبت بعضهم فيما بعد الدراسة، وعن زملائي الطلاب الذين لم تنقطع صلتي بهم في رحلة العمر، رحم الله من مات منهم وأسكنه فسيح جناته، وحفظ الله الأحياء وأحسن ختامهم، وما زلنا نلتقي ونتذكر أيامًا هي من أحلى أيام العمر. أجل، ولا شيء في هذه الدنيا أثمن من المحبة في الله، والعمل من أجل أن يكون الدين كله لله وهذا هو الرباط الذي ربط بين قلوبنا.

وفي فصل من هذه المذكرات فصَّلت القول في معركة (دين الدولة الإسلام)، التي بدأت في نهاية عام ١٩٤٩م ولا يزال البعض يقول: هذا هو أفضل ما توصل إليه الإسلاميون، وبيَّنت بطلانه.

ومما يتصل بمذكراتي ولا ينفصل عنها "القضية الفلسطينية". لقد ولدت بعد

ثورة الشيخ عز الدين القسام بسنتين، وشهدت هزيمة العرب سنة ١٩٤٨م أمام عدد ضئيل من شذاذ الآفاق وحثالة الأمم.

وشهدت ظهور منظمات فلسطينية بعضها أدى دورًا فعَّالاً مثل فتح وحماس، وبعضها الآخر كان عبئًا على القضية الفلسطينية.

وشهدت هزيمة ١٩٦٧م وسيطرة إسرائيل على الجولان والضفة الغربية وسيناء.

وشهدت حرب إسرائيل على لبنان وإخراجها لمنظمة التحرير، كما شهدت (أوسلو)، وكيف صار العرب يطالبون بما كانت إسرائيل تعرضه عليهم عام ١٩٤٧م، وعادت إسرائيل إلى مراوغتها ثم رفضها أي تنازل.

وهذا وذاك قادني إلى عرض القضية الفلسطينية منذ مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧م، وتجنبت في عرضي الإطالة ما أمكن، واقتصرت على بسط وثائق ومعلومات طالما قرأتها وتمنيت أن يقرأها ويتدبرها كل مسلم.

وأخيرًا: فقد ترجمت لرجلين ارتبط اسماهما بقضية فلسطين أشد الارتباط. الأول هو السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله، الذي لم يأت فيما بعده، وحتى يومنا هذا، حاكم مسلم يتمسك بقضية فلسطين مثلما تمسك بها ومن منطلق عقائدي فضلاً عن بعد نظره وإحاطته بمكائد اليهود، ورفضه كل أنواع العروض والمغريات.

والثاني هو هرتزل، ويعتبر بحق من أعظم الصهاينة المعاصرين، وأتمنى من أهل العلم والبصيرة أن يتدبروا قدرة هذا الرجل على التخطيط وتذليل كل الصعوبات، دون يأس أو ملل.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد تعزُّ فيه عبادك الموحدين، وتذل فيه الطغاة المتجبرين، وسلام عى المرسلين والحمد لله رب العالمين.

محمد سرور زين العابدين

إستنامبول

يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٤٣٦هـ

الموافق ١٩ آذار ٢٠١٥م

المسألة الفلسطينية

نظرات في تاريخنا المعاصر

نكبة فلسطين

نظرات في تاريخ القضية الفلسطينية

تمهيـــد

شهدتُ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، ورأيتُ لجوء أهلنا الفلسطينين إلى قريتنا، وإلى القرى المجاورة، وكنت أنظر إليهم عندما يجتمعون في اليوم المحددالذيتوزِّع عليهم هيئة الإغاثة "الإعاشة" وأسأل نفسي: هل يعودون إلى ديارهم التي يحدثوننا عنها؟ وهل سيصيبنا ما أصابهم؟

ومنذ ذلك العام وإلى اليوم نسمع جعجعةً ولا نرى طحنًا، أحزاب نشأت تتاجر بقضية فلسطين، انقلابات عسكرية، فضائح نُشرت وفضائح يُعد لها لتُنشر، مؤتمرات عربية وإسلامية عقدت، وقرارات صارخة أعقبت هذه المؤتمرات، صفقات أسلحة ضخمة اشتريت، وأموال من وراء شرائها نُهبت، ثم صدأت الأسلحة في مخابئها أو استخدمها الحكام بشراسة ضد شعوبهم أو ضد إخوانهم العرب في دول مجاورة.

كنا بالأمس دولةً واحدة تهابنا الدنيا، وتحسب لنا ألف حساب، فأصبحنا أكثر من عشرين دولة متصارعة متناحرة وإن رفع الجميع شعار الوحدة العربية والقومية العربية، والحرية، والديمقراطية، ولكن واقعنا يشهد خلاف ما نقوله وندعيه.

لن أبدأ حديثي عن مأساتنا في فلسطين منذ عام ١٩٤٨م، ولن أقتصر فيما سأقوله عما رأيت وعما سمعت، وإن كانت هذه الأحداث التي عشتها طيلة خمسةً وستين عاما كوَّنت عندي الكثير من المعلومات وأكثر منها مشاعري... أحاسيسي نحو فلسطيننا.

ليست فلسطين عندي ثقافةً نكتب عنها ولا تاريخ نحشد له الوثائق. إنها الأرض التي باركها الله من فوق سبع سماوات. قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾[الإسراء: ١].

فلسطين الأرض التي فتحها عمرو بن العاص وإخوانه صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأعاد فتحها صلاح الدين الأيوبي، ولن يعيدها اليوم إلا من يقتفي أثر هؤلاءالرجال الذين أعز الله بهم دينه. لن يحرر فلسطين أو يساعد في تحريرها الأكاسرة الجدد الذين اتخذوا من الكذب والتضليل والخداع دينًا لهم.

ولن يحرر فلسطين أو يساعد في تحريرها الدول الكبرى التي ائتمنها قومي فخانتهم وتآمرت عليهم في "سايكس بيكو"، وفي "وعد بلفور"، والأمم المتحدة.

ولن تُحرَّر فلسطين بسلام مزعوم، فما أخذه اليهود بالقوة يستحيل أن نردَّه إلا بالقوة.

أجل، لن أبدأ حديثي عن فلسطين منذ عام ١٩٤٨م، لأن ما حدث في هذا العام هو إعلان رسمي عن حَبْك مؤامرة نسج خيوطها المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧م. كيف نجحت هذه المؤامرة؟ وكيف واجهها السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله بحزم سجَّله التاريخ بأحرف

من نور؟ ومن الذين دبَّروا مؤامرة خلعه عام ١٩٠٩م؟! وماذا كان وراء من أعلنوا الثورة على الأتراك عام ١٩١٦م؟! ثم كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه عام ١٩٤٨م؟!

المؤتمر الصهيوني الأول:

كان العرب متسامحين مع اليهود، وهذا ما يشهد عليه التاريخ في القديم والحديث، ولم يكن عندهم ما يشكون منه، ولقد عاشوا في أوروبا حياة تختلف كل الاختلاف عن حياتهم في الشرق، فقد فُرضت عليهم ألوان من التمييز والتفريق، ووقع عليهم كل أنواع البطش والاضطهاد والجور والعسف. وقد ملأت أخبار ذلك كله صفحات التاريخ الأوروبي من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر سواء في عهد الدولة الرومانية المقدسة أو في عهد الاقطاع أو في عهد الكنيسة. ولم يكن اليهود منفردين بهذا الإضطهاد، فلقد أصاب هذا الاستبداد طوائف الناس جميعًا، غير أن اليهود انفردوا بإبرازه والدعاية له.

تغيَّر الحال في أوروبا بعد القرن التاسع عشر، وتحسنت أحوال اليهود، لكنهم استمروا في شكواهم من أجل أهداف يسعون إلى تحقيقها. إن العالم في نظرهم فئتان: اليهود، وهم الأقلية الضئيلة في جانب، وبقية العالم في جانب آخر. إنهم يزعمون بأنهم شعب الله المختار. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[المائدة: ١٨].

إنهم بهذا الاعتقاد عزلوا أنفسهم قبل أن يعزلهم الناس، وأقاموا حول أنفسهم أسوارًا قبل أن يقيم الأوروبيون حول أحيائهم أسوارًا "غيتو". وكل من يفكر بهذه العقلية سينفر الناس منه سواء كان يهوديًّا أو غير يهودي.

وإذًا: فقد كانت عقلية شعب الله المختار تدفعهم إلى البحث عن وطن لليهود، وكان رهبانهم يعتقدون أن فلسطين هي ذلك الوطن، ولهم في هذا الشأن مساعٍ حقيقية لم تكلل بالنجاح إلى أن جاء داهيتهم "تيودور هرتزل" وفعل كل الأسباب اللازمة ثم دعا إلى مؤتمر عقد بمدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، وانتُخب (هرتزل) أول رئيس للمنظمة الصهيونية الوليدة، واشترك في المؤتمر عدد من اليهود الأوروبيين الذين اعتبروا أنفسهم ممثلين للشعب اليهودي، ومن أهم قرارات هذا المؤتمر: إحياء اللغة العبرية وآدابها وثقافتها وتنمية الوعي القومي اليهودي. وتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين دون الإفصاح عن حق اليهود في إنشاء وطن قومي فيها، ومحاولة الحصول على موافقات دولية على مشروعية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وفي حال تعثر المشروع، أعني الاتجاه إلى تهجير اليهود إلى مناطق أخرى مناسبة، تمَّ إنشاء شركات لتمويل شراء الأراضي في فلسطين[1].

(١) القاموس السياسي. أحمد عطية الله. مؤتمر بال. دار النهضة العربية بالقاهرة. والأعمال الكاملة لأحمد الشقيري. محاضرات عن قضية فلسطين منذ فجر التاريخ حتى الحرب العالمية الأولى.

تيودور هرتزل:

إذا كان من حق الأمة الإسلامية أن تفتخر برجال كان لهم دور مجيد في تاريخها من أمثال عمر بن عبد العزيز، وعماد الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، فمن حق اليهود أن يعتزُّوا بالزعيم الصهيوني تيودور هرتزل، فهو من أشهر رجالاتهم في هذا العصر.

وُلد هرتزل في مدينة بودابست عام ١٨٦٠م، ثم انتقل إلى مدينة فيينا واستقر بها واشتغل بالصحافة، لكن الصحافة ومثلها كتابة المسرحيات التي عرف بها، لم تشغله قيد أنملة عما يلاقيه اليهود في أوروبا من اضطهاد وازدراء. كان كل شيء في حياته يدفعه إلى التفكير بما يجب أن يكون عليه أمر قومه. ففي عام ١٨٩٦م أصدر كتابًا سمَّاه "دولة اليهود"، وهو في الأصل رسالة موجهة منه إلى إدمون روتشلد، وإلى أفراد أسرته، وهي من الأسر الغنية على مستوى العالم، ولها علاقات مالية وتجارية واسعة في سائر أنحاء المعمورة، وهو في هذه الرسالة يلفت نظر روتشلد إلى الحرمان والشقاء والعذاب الذي يلاقيه اليهود في العالم على أيدي العالم المسيحي، ويلتمس من روتشلد كيهودي أن يعمل من أجل إنقاذ اليهود المعذبين.

وتحدث في كتابه عن آراء كانت تبدو وكأنها خيال ممثِّل، ثم تحدث عن الدولة اليهودية كما يريدها، ثم انتقل إلى موضوع الهجرة اليهودية من مختلف أقطار العالم إلى فلسطين وعما يلزم لها من أسباب، وعن العمل والعمَّال الذين يريد لهم أن يعمروا هذه الأرض. ولم يُغفِل الحديث عن عَلَم هذه الدولة، وعن لغتها العبرية.

الجدير بالذكر أن عدد اليهود في فلسطين في العام الذي ألف فيه كتابه ١٨٩٦م لم يكن يتجاوز (٢٠٠٠٠) يهودي.هذا ولم يكن كتاب هرتزل هو الأول من نوعه، فلقد سبقه من اليهود من كتب عن أرض الميعاد، وعن اعتقادهم بأنهم سيعودون إليها. ولكنه كان الوحيد الذي حوَّل الخيال إلى واقع عندما دعا اليهود إلى مؤتمر بال كما رأينا فيما مضى، وحضر هذا المؤتمر ١٩٧ مندوبًا من أوروبا وأمريكا وبعضهم من فلسطين. وخرج من هذا المؤتمر ليكتب في مذكراته : "اليوم قد وضعت قواعد الدولة اليهودية".

حقًّا إنه رجل عنيد لا يتراجع، ولا يعرف الهزيمة. كان أول من عارضه المتدينون اليهود، أعلن الحاخامون- وهم كبار قساوسة اليهود- وبعناد شديد، عداواتهم لما دعا إليه هرتزل لأنه لا يصح في الدين اليهودي أن يكون هناك قومية يهودية، فالذين يعتنقون اليهودية أقوام مختلفة، كما لا يمكن القول بأن النصرانية قومية. وهذه واحدة، أما الثانية فإنه لا يجوز حسب العقيدة اليهودية استعجال إرادة الله للعودة إلى أرض الميعاد، لأن هذه الإرادة تتجلى في الوقت الذي يجب أن تتجلى فيه. ولذلك فإن حاخام فيينا والحاخام الأكبر في لندن كانا يقومان بدعوة صريحة تقول: إن ما يدعو إليه هرتزل يقرب من الكفر. وتصدَّى لهرتزل غير المتدينين بالنقد، لأنهم- كما هو عليه اليهود دائمًا- يريدون النتائج دون بذل ما تستحقه من جهد. وطالما اشتكى هرتزل وغيره من قادة الحركة الصهيونية[١] من

(١)الصهيونية حركة يهودية سياسية، اشتق اسمها من صهيون وهو جبل في جنوب القدس.

ترددهم، وتخاذلهم.

عجيب والله أمر هرتزل، فهو يخطط لجمع شذَّاذ الآفاق في أرض ليست ملكًا لليهود ليقيموا فيها دولتهم، واليهود يستنكرون دعوته ويتهمونه بشتى التهم لأنه يريد أن يجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، وهم أقوام وليسوا قومًا واحدًا. ومعارضتهم له لا تفت من عضده، ولا تضعف من عزيمته بل ينطلق بحفنة من الصهاينة وكله أمل، وبعد نجاح مؤتمرهم في بال صاروا يعقدون مؤتمراتهم كل سنة أو سنتين، وقسَّم هرتزل أعضاء المؤتمر إلى "ورش" ولكل ورشة دورها المطلوب، ففي عام ١٩٠١م أنشأوا بناءً على اقتراح تقدَّم به هرتزل إلى المؤتمر الخامس، وعلى أساس برنامج وضعه همرمان شابيرا "الصندوق القومي اليهودي أو (الكيرن

وتهدف الحركة الى إعادة مجد إسرائيل بإقامة دولة يهودية في فلسطين. فإذا تم لها الإستيلاء على القدس أقامت في موضع المسجد الأقصى هيكل سليمان، ويكون على رأس هذه الدولة التي تعمل على بسط سيادتها شرقًا وغربًا ملك اليهود الذي هو المسيح المنتظر، والذي ينتهي إليه حكم العالم. ومن ثم مزجت الحركة الصهيومية بين السياسة والدين، واتخذت الدين ركيزةً تقوم عليه الدعوة السياسية. ومرت الحركة الصهيونية بمراحل كان من بينها قيام دولة يهودية عنصرية في الجزء الأكبر من فلسطين، واعتراف عدد كبير من الدول بها، وقبولها عضوًا في هيئة الأمم المتحدة. بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى تبنت وطنًا قوميًّا لليهود في فلسطين، وعينت السير هربرت صموئيل- وهو يهودي- مندوبًا ساميًا. وأمريكا بعد الحرب العالمية الثانية اعتبرت نفسها مسؤولةً عن أمن إسرائيل وكانت ولا تزال تقدم لها جميع أنواع الدعم. وتعتبر أي مساس بها مساس بالولايات المتحدة الأمريكية. القاموس السياسي "صهيونية"، مصدر سابق.

كايمت)". والغرض منه جمع الأموال لشراء الأرض في فلسطين، واعتبارها بعد ذلك ملكاً لهم وتمكين العمال اليهود المُعدمين من الاستقرار عليها. وبدأ نشاط المنظمة منذ عام ١٩٠٥م، وقد نجحت في الاستيلاء على مساحات واسعة من الأرض بلغت (٢٣٦ ألف دونم) حتى عام ١٩٤٨م.

والصندوق القومي اليهودي غير "رابطة التعمير اليهودية في فلسطين" التي أسَّسها عام ١٨٩١م البارون موريتز دي هيرش الذي جمع ثروةً ضخمةً من إنشاء السكك الحديدية التركية برأسمال أولي قدره (٢مليون جنيه)، وجعل غرضها مساعدة اليهود في أي مكان لاسيما في روسيا للهجرة والاستقرار في أي مكان آخر في العالم لاسيما في أمريكا الجنوبية، وقد تمكنت هذه المؤسسة من امتلاك نحو مليون دونم من الأرض الزراعية في الأرجنتين وحدها[1].

دور آل روتشيلد:

كان الزعيم الصهيوني هرتزل يعلم منذ أول خطوة خطاها في هذا الطريق أن مشروعه يحتاج إلى عقول مبدعة في مختلف المجالات التي يحتاجها العالم، ولا يضيره بعد ذلك لو خالفه حاخامات يفتقدون القدرة على الإقناع، وقد يكون ضررهم على مشروعه أكبر من نفعهم، ومن هذه العقول المبدعة آل روتشيلد، وهي عائلة يهودية تعد من أضخم العائلات الغنية في العالم، ويرتبط اسم أسرة روتشيلد بتاريخ التسلل الصهيوني إلى فلسطين، فقد اشترك آل روتشيلد في المؤتمر الصهيوني الأول

(١) القاموس السياسي. الصندوق القومي اليهودي، مصدر سابق.

عام ١٨٩٧م والمؤتمرات التالية، وساهموا في تمويل الجمعيات الصهيونية لاسيما التي تولَّت شراء الأراضي، وإقامة المستعمرات والمشروعات الاقتصادية والعمرانية مثل مشروع روتنبرج عام ١٩٢٦م لتوليد الكهرباء. كما ساهم آل روتشيلد في ملكية عدد غير قليل من الصحف الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التي وقفت موقف التأييد من المطالب الصهيونية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأسرة كان لها شأن كبير عند الإنجليز في لندن وفي مصر، ففي لندن مُنح (ناتان ماير روتشيلد) رتبة اللوردية (١٩٥١-١٨٨٥)، فأصبح أول يهودي عضوًا في مجلس اللوردات، وهو الذي أقرض الحكومة البريطانية أربعة ملايين جنيه في عام ١٨٧٥م لشراء سندات قناة السويس التي كانت في حوزة الحكومة المصرية في أواخر عهد الخديوي إسماعيل[١].

(١) القاموس السياسي، روتشيلد، مصدر سابق.

الرجل المريض

يعني هذا المصطلح الدولة العثمانية في أواخر مراحلها، وهم يعنون بأن هذا المريض لا يُرجى شفاؤه، ولهذا فهم ينتظرون موته لاقتسام تركته، بل إن منهم من يعمل على تسريع موته، ولا يدَّخرون وسعًا في هذا الشأن ومن هؤلاء:

١- **أوروبا الصليبية:**

لخَّص شكيب أرسلان في كتاب "حاضر العالم الإسلامي" كتاب دجوفارا "مئة مشروع لتقسيم تركيا". أجل! مئة مشروع تقدم به أوروبيون من أجناس مختلفة ومناصب متباينة. كان منهم أمراء وملوك وعسكريون وقساوسة:

- فمنهم البابا بيوس الخامس صاحب مشروع الصليبية الثالث والعشرين، وتاريخه سنة ١٥٧٠م، وبجهده الدائب واستنفاره لدول أوروبا استطاع وقف المد الإسلامي، ونقل المسيو دجوفارا صورة كتاب من البابا المذكور إلى طهماسب شاه العجم[1] من جملة ما جاء فيه: "لن تجد أبدًا فرصةً أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات".

- ومنها مشروع الأب (كوموليو)، وهو التاسع والعشرون وتاريخه ١٥٩٤م، وهو مكدوني الأصل.

- ومنها مشروع (لبنيتز) سنة ١٦٧٢م وهو الرابع والأربعون، وصاحب

(١) طهماسب شاه هو أحد شاهات إيران الصفويين الأقوياء، كان خلفًا لأبيه إسماعيل الأول، ولد في ٢٢ فبراير- شباط- عام ١٥١٤م وتوفي في ١٤ أيار- مايو- عام ١٥٧٦م.

المشروع هو الفيلسوف الألماني الشهير.وقد أعدَّ برنامجًا لمحو تركيا، واستمرَّ يحرره أربع سنوات، وقدَّمه باللغة اللاتينية إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكان يرى قبل كل عمل فتح مصر، ويقول:

"أما إذا انتُزعت مصر من يد الأتراك فقد آل أمرهم إلى البوار"، ثم أضاف: "وإذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق، وقيادة المسيحيين العامة، وإن لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافيًا".

- ثم المشروع الرابع والستون، وهو مشروع نابليون بونابرت وتاريخه سنة ١٨٠٨م. قال نابليون في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة:

"تذاكرت مرارًا مع الروس في أمر قسمة السلطنة العثمانية، وكان ذلك ممكنًا لولا القسطنطينية التي كانت دائمًا سببًا لمنع الاتفاق، فقد كان الروس يريدونها، وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها فإن القسطنطينية وحدها مملكة، ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا". وقال مرة أخرى: "القسطنطينية مفتاح العالم".

ثم جاء المشروع السادس والسبعون وهو المنسوب إلى الإمبراطور الروسي نقولا الأول، وتاريخه سنة ١٨٥٣م. وخلاصته أن نظارة الخارجية الإنجليزية كانت قد نشرت وثائق في إحدى جلسات البرلمان سنة ١٨٥٤م يظهر منها أن القيصر الروسي نقولا اقترح على انجلترا اقتسام سلطنة آل عثمان، لكن كتموا هذا

الاقـتراح ولم يفشـوه إلا في جـواب عـلى كتابـة ظهـرت في (جورنـال دوصـات بطرسبورغ). وموجزها أن القيصر استدعى السفير الإنجليزي نسلرود، وقال له:

"أنـت لا تجهـل المقاصـد والمرامـي التـي لا تـزال في روسـيا مـن عهـد كاترينـا. وخلاصة الأمر أن تركيا على مقربة منـا، وأن فيهـا عـدة ملايـين مـن المسيحيين مـن وظيفتي السهر على مصـالحهم، وبيـدي معاهـدات تعطيني هـذا الحق. ونحـن أمـة تلقينا ديننا عن الشرق، وعلينا واجبات لا يمكن التغاضي عنهـا. وحالـة تركيـا هـي كما قلت لك من قبل، وبرغم ما نريده من بقائها يجوز أن تمـوت بـالرغم منـا وتبقـى عبئًا علينا، وليس في استطاعتنا نشـر الموتى، أفلا يكـون الأفضـل بحقنـا تفاديًـا مـن حرب أوروبية أن نتفق على أمرهـا حتـى لا نؤخـذ عـلى غـرة؟ وأنـا أقـول لـك بكـل صراحة: إننا إن استطعنا أنا وإنجلترا أن نتفـق في هـذا الموضـوع لم يهمنـا الآخـرون، وأنا لا أكتمك أنه إن كان في نية إنجلترا الاستيلاء على الأستانة فلن أتحمل ذلك. لا أقول: إن لكم هذه النية، ولكني أقول: إن صحَّت هذه النية فلن أكون راضيًا. وأنـا نفسي أتعهد أيضًا بأن لا أحتلها مالكًا وإنـما بصـورة مؤقتـة عـلى سـبيل الاسـتيداع فقـد أرضى. وأمـا إذا بقيـت الأمـور بـدون قـرار بشـأنها فقـد يجـوز أن أحتلهـا قـولاً واحدًا".

- ثم المشـروع التسعون، وهو خـبر جرائـد تاريخـه ١٨٩٦م. نشـرت جريـدة الـدالينيور الإنجليزيـة والبرليزتـا غـبلاط الألمانيـة خـبرًا معنـاه أن روسـيا متحفـزة لاحـتلال أرمينيـا وحمـل الـدول عـلى تقسـيم تركيـا. وذلـك عـلى أن تأخـذ روسـيا

القسطنطينية والولايات التركية الشرقية إلى منفذ إسكندرونة، وأن تأخذ فرنسا سورية وفلسطين، وتأخذ إنجلترا مصر وسواحل الخليج الفارسي والكويت، وتستولي النمسا والمجر على بوسنة ومكدونيا، وإيطاليا على طرابلس، واليونان على كريد والجزر.

قال شكيب أرسلان:

"بقي علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوفارا الروماني مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة من رجل أجنبي عنَّا، بل رجل سياسي مسيحي بلقاني كانت الأمة التي ينتمي إليها من جملة الأمم التي تحررت من حكم تركيا".

قال المسيو دجو فارا ما يلي:

"مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية. وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مئة، إلا أن الحماسة الدينية التي كانت تلتهب في القديم فترت بمرور الأعصر، فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التي كانت تجمعها على غير المسيحيين. وصارت المصالح الاقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرِّق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلِّف بينهم من قبل" [1].

(١) حاضر العالم الإسلامي، تأليف : لوثرب ستودارد تقديم وتعليق شكيب أرسلان. المجلد

تعليق:

- إذا أردنا اليوم أن نفهم كيف يفكر كل بابا من باباوات النصارى في القديم والحديث.

- وإذا أردنا أن نفهم العقلية التي يفكِّر بها الروس في القديم والحديث، أيام القياصرة ثم أيام الشيوعيين، ثم فيما بعد ذلك، ولماذا كان حقدهم على العثمانيين وعلى عموم المسلمين أشد من حقد الدول الغربية كلها؟!

- وإذا أردنا أن نعرف لماذا تلجأ كل من فرنسا وبريطانيا، فيما يصدر عنهم من تصريحات ومواقف تمس بلادنا، إلى المراوغة والخداع والتضليل، فإذا تحوَّلت هذه التصريحات إلى قرار صاغوه بعبارات موهمة ولكنه في حقيقته مثل السم الزعاف أو أشد!

- وإذا أردنا أن نفهم هذا وذاك مما يجري في الشرق، فلنقرأ جيدًا من كتاب حاضر العالم الإسلامي، كتاب مئة مشروع لتقسيم تركيا، للكاتب دجوفارا.

وقبل قراءتنا لكتاب حاضر العالم الإسلامي وبعده لنتدبر قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

الثاني، الجزء الثالث ص ٢٠٨.

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، فزعموا أنه ثالث ثلاثة، وغيَّروا وبدَّلوا في دينهم كما يشاءون، فكيف لا يكذبون على خلق الله وعبيده؟! فإن قيل: إن بعضهم تخلى عن دينه، وصار عبدًا لمصالحه. قلنا: هذه والله أدهى وأمرُّ.

الامتيازات الأجنبية:

اسم أُطلق على الاتفاقات الخاصة التي نال بموجبها الأجانب المقيمون في تركيا حقوقًا تخرج رعاياها من سلطان التشريعات الأهلية كالقضاء والضرائب، وكانت في البداية تعتبر وجهًا من وجوه التسامح الديني والتعايش الطائفي. بدأت هذه الامتيازات سنة ١٥٣٥م بين الباب العالي وفرنسا، وبادرت الدول الأجنبية الأخرى إلى عقد معاهدات مع الباب العالي حتى بلغ عددها (١٥ دولة). ومن أهم هذه الامتيازات:

- حرية الإقامة في جميع أرجاء السلطنة، وذلك شريطة التسجيل القنصلي في قنصلية الدولة التي ينتمي إليها الأجنبي.

- حرية المسكن، فلا يجوز انتهاك حرمة المسكن إلا بإجازة قنصلية الدولة التي ينتمي إليها الأجنبي.

- حرية التنقل في جميع أرجاء السلطنة، وذلك بموجب وثيقة مرور.

- حرية التجارة، وهي متصلة اتصالاً وثيقًا بحرية الإقامة والتنقل لممارسة الأعمال التجارية.

- حرية المعتقدات الدينية وما يتبع ذلك من ممارسة الشعائر الدينية.

- الحصانة القضائية والتشريعية، فلا يجوز مقاضاة الأجنبي أمام المحاكم الوطنية، بل أمام قنصلية بلاده ووفقًا لقانون بلاده أيضًا. وفي ذلك تفصيل

ليس هذا موضع الحديث عنه.

ولم تكن هذه الامتيازات في مستوى واحد، ففرنسا صار لها الحق في رعاية شؤون الكاثوليك والموارنة. وصار لبريطانيا الحق في رعاية الدروز، والبروتستنت النصارى، وصار لروسيا حق رعاية شؤون الأرثوذوكس. ففتحت هذه الأقليات الجامعات والمدارس ودور التمريض، وكانت هذه الدول الكبرى تتدخل لمصلحة من تعتبرهم من رعاياها عند الحاجة، وصار لهم من الحقوق ما لا يحلم به المسلم في دولة مسلمة.

يقول فخري البارودي في مذكراته:

"في أواخر أيام الدولة العثمانية وفي دور الانحطاط كلما غلبت دولة من الدول الأوروبية الدولة العثمانية يصبح للدولة الغالبة امتيازات في بعض النواحي تجبر الحكومة العثمانية على مراعاتها، ومن يطالع التاريخ يعرف مقدار ما تحمَّله العثمانيون من تعدي الأجانب على رعاياها، وكلما نالت دولة امتيازًا طالبت بقية الدول بمثله، حتى جاء يوم في دمشق أصبحت فيه عصا الأجنبي سيفًا خصوصًا رعايا العجم، لأن الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب التي قامت بينها وبين الفرس أخيرًا، وبعد أن غُلبت على أمرها رضيت بكل الشروط التي وضعها الفرس أخيرًا على الأتراك، ومن هذه الشروط حماية الملتجئ إلى دار السفير أو القنصل مهما كانت جريمته. وقد رأيتُ بأم عيني كيف كان قنصل العجم يحمي المجرمين، وقد كانت دار القنصلية في محلتنا "شابكلية قنوات"، وكنت في سن

السابعة تقريبًا وكنتُ ألعب مع ولديْ علي خان وميرزا خان. وكثيرًا ما يدخل أناس إلى الدار راكضين ورجال البوليس وراءهم. وعندما يدخل الملتجئ إلى دار القنصل وشعار دولة العجم معلق على بابها يقف رجال الشرطة خارج الباب ويعودون أدراجهم خائبين. وأضاف البارودي: وفي أول القرن الحادي عشر هجري إلى أواخر القرن الثاني عشر كانت شوكة قناصل العجم قائمةً وكثيرون من الدمشقيين كانوا يسعون للحصول على الجنسية الإيرانية، وكم جانٍ من كبار الجُناة خلص من المشنقة بالالتجاء إلى دور القناصل. وكان يأتي بعد القنصلية الإيرانية القنصلية الروسية ثم الإنجليزية والألمانية والفرنسية، وهكذا إلى آخر قناصل الدول التي لها علاقات وسفراء في البلاد العثمانية" [1].

تعرَّضت الامتيازات الأجنبية لانتقادات كثيرة: لأنها افتئات على السيادة الوطنية، وتضع السلطنة العثمانية تحت وصاية الدول الأجنبية، وتعترف السلطنة للأجانب بحقوق أكثر من الحقوق الممنوحة عادة للمواطنين العثمانيين، ولهذا فقد ضعف شأنها بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م ثم أُلغيت في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣م.

(١) المصادر التي اعتمدت عليها : مذكرات فخري البارودي. المنارة ص ٢٣٩. القاموس السياسي، أحمد عطية الله "امتيازات أجنبية ". الامتيازات الأجنبية بحث كتبه الباحث زكريا السباهي. التبشير والاستعمار لفروخ والخالد.

الهدَّامون من الداخل

الاتحاد والترقي:

كيف تشكَّلت هذه الجمعية؟ ومن كان وراءها؟!

لم يعد من الصعب الإجابة على هذين السؤالين، فقد أصبح ثابتًا الآن أن الماسونية كانت الإصبع المحرِّكة من وراء الستار، ويعترف بذلك الدكتور أ. رامزو في كتابه "تركيا الفتاة". كان تنظيم الجمعية على طراز جمعية الكاربوناري الإيطالية التي تشكَّلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر، ففي العطلة الصيفية للسنة السابقة لتشكيل الجمعية، توقَّف تيمو في (برنديزي) لما كان في طريقه إلى بلاده ألبانيا، وزار خلال إقامته في برنديزي ونابولي محفلاً ماسونيًّا برفقة أحد أصدقائه، وتعلَّم شيئًا كافيًا عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي، وقد تأثَّر بتنظيماتها فيما بعد لما قرَّر أن ينشئ في تركيا جمعيةً سريةً تشبهها... وعندما بدأوا بالاجتماعات الدورية وانتخاب الهيئة الإدارية اتبعوا الطريقة الماسونية في عقد الاجتماعات وإجراء مراسيم معينة عند قبول أي عضو جديد.

وفي تلك الفترة كان أحمد رضا الذي أصبح فيما بعد من أشهر رجال الاتحاد والترقي قد هرب إلى فرنسا وصار ممثلاً للاتحاد والترقي في باريس، وأصبحت العاصمة الفرنسية مركزًا من أهم المراكز في أوروبا التي تنشط ضد السلطان عبد الحميد، فأصدروا صحفًا، وكان أكثرهم يتلقَّى مساعداتٍ من الدول الأجنبية. يقول الدكتور رامز عن دور المحافل الماسونية في دعم هؤلاء المتمردين:

و"ويؤكد لنا دارس آخر للحالة أنه في حوالي سنة ١٩٠٠م قرَّر (المشرق الأعظم) الفرنسي إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها. ثم إن محللاً آخر يلاحظ: يمكن القول بكل تأكيد: إن الثورة التركية كلها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية، ويشير الكاتب في الصفحة نفسها إلى أن النشرة الماسونية الفرنسية (لاكاسيا) Lacacia تبدو مقتنعةً بأهمية الماسونية لحركة تركيا الفتاة، ويقول:

"اتخذت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركيا الفتاة طابعًا شبه رسمي بعد الثورة مباشرة، حينما قابل مراسل صحيفة باريسية شابًّا من تركيا الفتاة اسمه رفيق بك، ويبدو أن إجابة رفيق بك توضِّح أن المحافل الماسونية كانت مفيدةً جدًّا للحركة، وقد اتخذ هذا كدليل على ثورة عالمية، فقد قال:

"حقا إننا وجدنا سندًا معنويًّا من الماسونية، وبخاصة الماسونية الإيطالية، فالمحفلان الإيطاليان Labor et Lux Macdoria Risorta قدما لنا خدمةً حقيقيةً ووفرا لنا الملاجئ، فكنا نجتمع لننظِّم أنفسنا كما أننا اخترنا معظم رفقائنا من هذين المحفلين اللذين ساعدا لجنتنا كغربال، نظرًا لما كانا يبديانه من دقة في الاستفسار عن الأفراد، فكان العمل السري الذي يجري في سلانيك قلما يثير الشكوك في القسطنطينية. كما أن عملاء الشرطة حاولوا عبثًا دخوله.يُضاف إلى ذلك أن هذه المحافل التمست من (المشرق الأعظم) في إيطاليا أن تتدخل السفارة

الإيطالية عند الحاجة، وقد وعد (المشرق الأعظم) بدوره بضمان ذلك" [١].

وإذًا: فقد كانت مدينة سلانيك وما حولها أكبر وأقوى تجمع لتنظيم الاتحاد والترقي ولذلك سببان:

الأول: سلانيك مركز الدونمة وهم جماعة من اليهود تظاهروا بالإسلام، ولكنهم بقوا على دينهم يمارسون شعائره وطقوسه، وكان يقود الاتحاد والترقي في هذه المنطقة اليهودي الماسوني (عمانوئيل قره صو) وهو الذي ربط المحفل الماسوني في سيلانيك بالمحافل الماسونية في إيطاليا وفرنسا وبقية دول أوروبا الغربية.

الثاني: سلانيك كانت مركزًا أيضا للجيش الثالث "وكان هذا الجيش يتمتع بنوع من الحرية العسكرية، ذلك لأن تدخل الدول العظمى في أحداث الروملي[٢] ساعد على اكتساب هذا الجيش نوعًا من الحرية لم تتمتع بها الجيوش الأخرى" [٣].

ويقول فخري البارودي وهو يصف وضع دمشق بعد نجاح الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد:

"وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعاياتهم اللوج (أي المحفل) الماسوني الذي

---

(١) "السلطان عبدالحميد الثاني. حياته وأحداث عهده ". أورخان محمد علي (عن كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م د. أرنست رامزور].

(٢) الروملي : كلمة تركية تعني بلاد الروم، ويقصد بها ما يعرف بتراقيا ومقدونيا، وتمتد هذه البلاد جنوبًا حتى بحر مرمرة وبحر إيجة.

(٣) Ulu Hakan , N.F. Kisakurek , s 427

كان مغلقًا قبل الدستور. ثم يقول:

وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه، وجمَّع الأعضاء شملَهم وأسَّسوا محفلاً جديدًا أسموْه محفل (نور دمشق) وربطوه بالمحفل الاسكتلندي" [1].

(١) مذكرات فخري البارودي ١/ ٦٣ [انظر كتاب السلطان عبد الحميد حياته وآثاره. أورخان محمد علي مصدر سابق ٢٣٨].

الحركات العربية :

تأسَّست الجمعيات والأحزاب العربية المناوئة للسلطنة العثمانية منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يقول جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب أن جمعية بيروت السرية تألفت سنة ١٨٧٥م. ثم توالت هذه الجمعيات والأحزاب فكان من أشهرها: رابطة الوطن العربي، والعربية الفتاة، والجمعية القحطانية، وجمعية العهد، والإخاء العربي العثماني، والجمعية السورية.

ومن هذه الجمعيات من ينشر الإصلاح والمساواة بين العرب والأتراك، وقد تصل الأمور عند هؤلاء إلى المطالبة باللامركزية دون أن تكون لهم اتصالات بجهات أجنبية مشبوهة. ومن أشهر هؤلاء: حقي العظم، ورشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، ورفيق العظم، وكامل القصاب، وخالد الحكيم، وياسين الهاشمي، وعبدالحميد الزهراوي، ورشدي الغزي، وسعيد الباني وغيرهم...وغيرهم.

ومن هذه الجمعيات من كان يطالب بالاستقلال ويرتبط بفرنسا وإنجلترا، وبمنظمات ماسونية مشبوهة ومن أشهر هؤلاء: فارس نمر، وخليل مطران، وجورج عبدالمسيح، ونجيب عازوري، وجورج بحري، والأمير خليل أبو اللمع، وحبيب بولاد، وأمين البستاني، ونجيب البستاني، وفيليب سمان، وجورج روماني، وكميل إده، وجان عيد، ورفائيل غرة، وشكري غانم، وإسكندر سرسق، ويوسف صموئيل، ودياب سليم بولس وغيرهم... وغيرهم.

وكان لمعظم هؤلاء صلات مع السفارة الفرنسية أو السفارة البريطانية، وقد مرَّ

معنا فيما مضى عند حديثنا عن الامتيازات الأجنبية أن فرنسا كانت ترعى شؤون الكاثوليك والموارنة، وكانت بريطانيا ترعى شؤون البروتستنت والدروز، وروسيا ترعى شؤون الأرثوذكس، وكانت هذه الدول[١] تتدخل عند الباب العالي لحماية مواطنين عثمانيين والدفاع عنهم بالحق وبالباطل ولولا ضعف السلطنة العثمانية لما قبلت أن يكون مواطنوها موزعي الولاء بينها وبين الدول الأوروبية. ولكن الذي يسعى إليه هؤلاء أكبر من أن تضمنه لهم الامتيازات الأجنبية. إنهم يخدمون مخططات صهيونية صليبية تستهدف تمزيق الإمبراطورية العثمانية وتحويلها إلى دويلات صغيرة متصارعة ولهذا فقد استوطنوا مصر، ومصر لها قصة نوجزها فيما يلي:

مرَّ معنا تلخيص شكيب أرسلان لكتاب (دجوفارا) مئة مشروع لتقسيم تركيا، ومنها مشروع الفيلسوف الألماني الشهير (ليبتز) الذي قدَّمه إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا سنة ١٦٧٢م، وقال في بيان أهمية مشروعة: "وإذا تمكنتَ من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق، وقيادة المسيحيين العامة، وإن لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً".

قلت : لم تكن فرنسا جاهزةً لتنفيذ هذا المشروع عندما قُدِّم لها لأسباب ليس هذا موضع الحديث عنها، لكنها لم تهمله أبدًا، ولم يكتب ملك فرنسا على المشروع

(١) وكذلك كانت الدول الأوروبية ترعى شؤون الطائفة النصيرية وغيرها من الأقليات، وبعض الأسر السنية التي ارتبطت بفرنسا أو بريطانيا.

للحفظ ثم تذهب الخطة كلها أدراج الرياح، كما يفعل كبار المسؤولين في بلادنا. والفيلسوف الذي جلس أربعة سنين يخطط لمشروعه لم يكن يتسلى أو يحرث في البحار، ففي عام ١٧٩٨م احتل نابليون بونابرت مصر والإسكندرية، وثبت من خلال البيان الذي أصدره، والاختراعات الحديثة التي كان يصطحبها معه أنه مدرك للوضع العام في مصر. صحيح أنه أُجبر وقواته على مغادرة مصر بعد تدخل الإنجليز لكن مصر بعد هذا الاحتلال اتجهت نحو فرنسا أكثر من اتجاهها نحو اسطنبول وأُشبعت بالأفكار وبالثقافة الفرنسية.

وإذاً: فالخطة التي وُضعت سنة ١٦٧٢م تم تطبيقها بعد (١٢٦) سنة، وكانت مصر أيام المماليك تتمتع باستقلال ذاتي، فأصبحت بعد حكم محمد علي باشا سنة ١٨٠٥م مرتعًا للمؤتمرات التي تُدبَّر ضد السلطنة العثمانية، فليس من المصادفة أن تكون وسائل الإعلام كلها بأيدي النصارى الشاميين: فالمقطم لفارس نمر، والأهرام للأخوين نقولا، والهلال لجرجي زيدان، وكان ليعقوب صروف دوره فى المقطم، ومجلة سركيس لخليل سركيس، وكانت هذه الصحف تنشر حربًا لا هوادة فيها ضد السلطان عبد الحميد، فهو- كما ترى- السلطان الأحمر، وهو الرجل المستبدُّ الذي أفسد السلطنة كلها بسياسته القهرية، ولم يكن السلطان عبد الحميد كما زعموا، لكنهم أداة في دور خطير يلعبه التحالف الصليبي الصهيوني في مصر، ويشكل البريطانيون والفرنسيون حَصانةً لهذه الصحف المسمومة.

ومما يُؤسف له أن هذه الصحف استقطبت شخصياتٍ كبيرةً ومؤثِّرةً في الرأي

العام العربي من أمثال: عبد الرحمن الكواكبي، ورفيق العظم، ومحب الدين الخطيب، ومحمد كرد علي، والدكتور عبدالرحمن الشهبندر، وتلامذة الشيخ محمد عبده، ومعظم الكتَّاب المشهورين من مصر ومن البلاد العربية عامة، ولهذا فتأثير هذه الصحف تجاوز حدود مصر ليعمَّ البلاد العربية كلها.

السلطان عبدالحميد والمسألة الفلسطينية

ولد السلطان عبد الحميد الثاني في ١٦ شعبان ١٢٥٨هـ الموافق ٢١ سبتمبر ١٨٤٢م. واعتلى عرش السلطنة العثمانية في آخر أغسطس ١٨٧٦م بعد خلع أخيه الأكبر مراد الخامس (١ شعبان ١٢٩٣ هـ)، الموافق ٣١ أغسطس ١٨٧٦م، واستمر في حكم الدولة العثمانية مدة بلغت ثلاثةً وثلاثين عامًا، ثم خُلع عن العرش في السابع والعشرين من نيسان عام ١٩٠٩م، وأمضى بقية حياته في سلانيك، ثم في قصر بكلربكي في استنبول، إلى أن توفي في العاشر من فبراير (شباط) عام ١٩١٨م.

كُتب الكثير عن السلطان عبد الحميد، والناس مختلفون في أمره فمنهم من يبالغ في مدحه وتعداد مآثره، ومنهم من يبالغ في التشنيع عليه والانتقاص منه. وهكذا شأن الرجال الكبار على مدار التاريخ، ولكن هؤلاء وأولئك متفقون على أنه من أذكى أذكياء الدنيا، ويفهم ما يجري حوله. أحد الذين عرفوا السلطان عبد الحميد معرفةً دقيقةً كتب كلمةً يصف سياسته وطريقته في الحكم، فكان مما قاله : "إن السلطان عبد الحميد لو وزن أربعة من نوابغ هذا العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسة.

فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب. إنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية. وهو معد لكل هوة تطرأ مخرجًا وسلمًا. وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي المسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق

أوروبا على أمر خطير في الممالك العثمانية. كان يريها عيانًا محسوسًا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه" (١).

لا أنكر أن نفسي تدفعني إلى التوسع في دراسة عهد السلطان عبد الحميد، وتفنيد ما لحق به من ظلم، ولكن مثل هذا الأمر يخالف نهجي في هذه المذكرات، ولهذا سيكون حديثي قاصرًا على مواجهة السلطان عبد الحميد للمخططات الصهيونية.

هرتزل والسلطان عبدالحميد :

رجلان في وزن من الدهاء متقارب، ولكن الأول طموح، وينطلق في طموحه من خلال خطط مدروسة، وتنفيذ مطمئن. وحوله عقول متخصصة في مختلف المجالات التي تحتاجها كل أمة من أجل نهوضها. وفضلاً عن هذا وذاك فهو يعرف أحوال السلطنة العثمانية، وهي لا تَسُر صديقًا بل تَسُر وتشجع أمثاله، ويعرف من جهة أخرى كيف سيصل إلى أصحاب القرار في أوروبا، ويعرف كيف سيقتنص الفرص، قال هرتزل في مذكراته:

"يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دون ما حاجة إلى استخدام

---

(١) هذا القول لجمال الدين الأفغاني. خاطرات جمال الدين الأفغاني: صفحة ٦٤ و ٦٥ (عن كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد ص ٧٤١).

العنف. سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع خطر تشغيلهم في بلدنا. إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود، علاوةً على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها للعقارات على اليهود وحدهم" [١].

أما الثاني (السلطان عبدالحميد) فطبيب ماهر، ولكنه جاء ليسعف مريضه في وقت متأخر جدًّا، وإذا جاز لنا استخدام مصطلحات الأطباء لقلنا: جاء ليسعف مريضه في وقت كان المريض (ميتاً دماغيًّا)، وفضلاً عن ذلك فلقد كان الطبيب يتحرَّك وحده وليس حوله فريق من الأطباء يستشيرهم، ولا فريق من الممرضين يساعدونه وينفِّذون تعليماته. يؤكد السلطان عبد الحميد أنه كان واقفًا ضد اليهود وأطماعهم في فلسطين وحده:

"ولم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي، فطاقاتنا لم تكن تكفي. الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو أن أفيد من التنافس بين هذه القوى" [٢].

جُلُّ الوثائق التي نُشرت تؤكد أنه واجه هذه المخططات وحده. فلم يكن رئيس وزرائه يفكر مثلما يفكر السلطان، وقل مثل ذلك في وزرائه وقادة جيشه.

---

(١) كيف يفكر زعماء الصهيونية. أمين هويدي.

(٢) من مذكرات السلطان عبدالحميد. دار القلم. دمشق.

قلنا فيما مضى من هذا البحث أن منظمات صهيونية قدَّمت عروضًا مغريةً للسلطان عبد الحميد الثاني مقابل موضع قدم لهم في فلسطين، ومن هذه العروض:

التزامهم بوفاء جميع الديون المستحقَّة على الدولة العثمانية، وتقديم قروض مغرية من غير فائدة، وبناء أسطول لحماية الإمبراطورية العثمانية، وكانت السلطنة العثمانية بحاجة ملحة إلى مثل هذه المساعدات... ثم جاء هرتزل فكانت عروضه أكثر سخاءً ممن سبقه، ولم يترك مركبًا إلا ركبه من أجل تحقيق هذا الهدف. لقد زار استنبول خمس مرات، وفصَّل القول في المساعي التي بذلها منذ عام ١٨٩٦م وحتى ١٩٠٢م في يومياته التي كان يكتبها. لقد حاول أن يستغل زيارة قيصر ألمانيا (وليم الثاني) إلى القدس ليوسطه عند السلطان عبد الحميد، لكن القيصر الذي يعرف السلطان معرفةً جيدةً خيَّب ظن هرتزل.

وفي ١٥/ ٥/ ١٩٠٢م قابل هرتزل والحاخام (موسى ليفي) السلطان عبد الحميد وعرضا عليه من المغريات الشيء الكثير لكن السلطان لم يستجب إلى طلبهما ولم يردهما لأنه يبحث عن معلومات أكثر. ثم اقترح عليه صديقه (نيولنسكي) أن يلوِّح بإغراء آخر للسلطان وهو مساعدته في المسألة الأرمينية التي كان الرأي العام الأوروبي ثائرًا على السلطان بسببها. لذا ترى هرتزل يسجل في (٧/ ٥/ ١٨٩٦) من يومياته:

"ولكن هناك طريقة أخرى يمكن أن نؤثر على السلطان بها، وهي مساندته في قضية الأرمن". أما رفيقه (نيولنسكي) الذي كان صديقًا للسلطان فقد رتب لقاءً

مع السلطان نقل فيه مقترحات هرتزل، فكان جواب السلطان كما سجَّل هرتزل في يومياته ما يأتي على لسان صديقه: "قال السلطان لي: إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه أن لا يسير أبدًا في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدةً من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذُّوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين، وقُتل رجالنا الواحد بعد الآخر في (بلفنة) [١] لأن أحدًا منهم لم يرض بالاستسلام، وفضَّلوا أن يموتوا في ساحة القتال. الإمبراطورية التركية ليست لي، وإنما للشعب التركي. لا أستطيع أبدًا أن أعطي جزءً منها. ليحتفظ اليهود ببلادهم، فإذا قُسِّمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل إنما لن تُقسَّم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحها لأي غرض كان" [٢].

وبعد هذا الرفض المتواصل من السلطان عبد الحميد سجَّل هرتزل انطباعه بما يلي:

---

(١) بلفنة مدينة هامة بين مضائق جبال البلقان وبلغاريا الغربية وفيها وقعت معركة عسكرية بين العثمانيين والروس في شهر آب عام ١٨٧٧م.

(٢) يوميات هرتزل ص ٣٥، وأستبعد أن يكون السلطان قد استعمل تعبير الإمبراطورية التركية فحيثما ورد هذا التعبير فهو يعني الإمبراطورية العثمانية. (انظر كتاب: السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده. أورخان محمد علي).

"إن عبد الحميد الثاني اسم جماعي من أحط الخبائث تمكَّنت من حرمان بلاد من أمنها وسعادتها، ولم أكن أتصور أنه من المقبول وجود مثل هذه العصابة من اللصوص". ثم وصف هرتزل الرشوة المنتشرة بين جميع النافذين في القصر ما عدا السلطان فقال: ولعل عار الارتشاء سيبدأ على بوابة القصر، ولا ينتهي إلا على بعد قدم واحد فقط من العرش ليس أسوأ ما في الأمر، فكل موظف لص! وهذا هو على الأقل ما سمعته من كل النواحي، وما رأيته يثبت أن ما سمعته ليس بهتاناً ".

غير أنه يؤكد من ناحية أخرى إعجابه بالسلطان حينما يقول : "لقد تأثَّرتُ بأقوال السلطان التي تتسم بالحقيقة والفخر، وبالرغم من أنها تضع في الوقت الحاضر نهايةً لكل آمالي" (١).

ومما ينبغي التأكيد عليه أن هرتزل رغم الأبواب التي أغلقها السلطان عبد الحميد بوجهه لم تفتر همته ولا أصابه شيء من اليأس والقنوط، ففي تقرير سري رفعه إلى لجنة الأعمال الصهيونية، وقد نُشر هذا التقرير بعد عشرين عامًا في صحيفة فلسطين الصادرة في القدس في ٢٤/ ٨/ ١٩٢١م، وأقتطف هذه العبارات بحرفيتها من تقرير هرتزل:

"أقرر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية إما عن طريق الزج بها في حروب تنهزم فيها

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ١٨٤ و ١٨٥ (عن كتاب السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجمود. ص ٩٠) .

أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقين معًا في آن واحدة " [١].

والشيء الذي يلفت النظر حقًّا هو أن السلطان عبد الحميد شعر بالخطر قبل الجميع. شعر به حتى قبل ظهور هذا الخطر على السطح وتبلوره في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٦م، بل قبل قيام هرتزل بكتابة كتابه المعروف (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٥م لأنه كان يرصد جميع التيارات الفكرية والسياسية في أوروبا بدقة، والدليل على ذلك تلمسه في "الفرمانات" الثلاثة المتعاقبة التي أصدرها سنة ١٨٩١م ومنع بموجبها هجرة اليهود إلى فلسطين وقيَّد وحدَّد زياراتهم إلى القدس، أي إنه حسَّ بالخطر الصهيوني قبل ظهور هرتزل على مسرح الأحداث، وفهم المرامي البعيدة لرغبة اليهود في الهجرة إلى فلسطين. لنستعرض هذه الفرمانات التي توجد نسخة مكتوبة بخط يد السلطان نفسه والتي كتبها في ٢١، ٢٨، ٢٩ من ذي القعدة لسنة ١٣٠٨ هجري/ ١٨٩١ م.

الفرمان الأول :

"نعيد إليكم المذكرة:

إن قبول الذين طُردوا من كل مكان، في الممالك العثمانية سيؤدي في المستقبل إلى تشكيل حكومة موسوية، لذا فإن إجراء هذه المعاملات غير جائز، وبخاصة إن

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود. ص ٩٣ (عن كتاب جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك) ص ٤٦ و٤٧ بتصرف يسير.

الممالك الشاهانية ليست من قبيل الأراضي الخالية والمتروكة، ولما كان من المفروض إرسال هؤلاء إلى أمريكا، لذا فلا يقبل هؤلاء ولا أمثالهم، بل يجب وضعهم في السفن فورًا لإرسالهم إلى أمريكا، وأن يتخذ مجلس الوزراء قرارًا قطعيًّا بخصوص تفاصيل هذا الأمر وعرضه علينا، إذ ما الداعي لقبول من طردهم الأوروبيون المتمدنون ولم يقبلوهم في ديارهم. وفضلاً عن ذلك فإن هناك دسائسَ كثيرةً، لذا فإن هذا الأمر غير جائز على الإطلاق. وبناءً على ذلك، وحتى لا يبقى هناك أي مجال بعد الآن لأية معروضات أخرى في هذا الخصوص، تعاد هذه المذكرة للصدارة العظمى لاتخاذ قرار عام في هذا الموضوع".

الفرمان الثاني :

بعد سبعة أيام من الفرمان الأول أصدر السلطان هذا الفرمان:

"إلى اللجنة العسكرية للمعية السنية:

إن قبول هؤلاء الموسويين وإسكانهم أو إعطائهم حق المواطنة شيء ضار جدًّا، فقد يتولَّد عن هذا في المستقبل مسألة حكومة موسوية. لذا يجب عدم قبولهم، وأن يؤخذ هذا في الحسبان عند عرض المسألة، وأن يُعرض هذا القرار بسرعة هذا اليوم، وأن تُعطى المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة".

الفرمان الثالث:

بعد يوم واحد من الفرمان الثاني أصدر السلطان هذا الفرمان:

"لا يحق لأية دولة أن تعترض على عدم قبولنا الموسويين الذين طردتهم دول متمدنة ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى، وهؤلاء الذين يحتجون ويعترضون علينا كان الأحرى بهم الاحتجاج على الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم. وبناءً عليه فإن هؤلاء الموسويين لو أسكنوا في أي مكان من أجزاء الإمبراطورية فإنهم سيتسللون إلى فلسطين شيئًا فشيئًا مهما اتُخذت من تدابير وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية، ولن يعمل هؤلاء في الزراعة والفلاحة، بل سيحاولون الإضرار بالأهالي كما فعلوا في البلدان التي طُردوا منها. وما دام هؤلاء كانوا بصدد الهجرة إلى أمريكا، إذن فإن من المناسب أن يهاجروا إلى هناك، ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصَّل في هذا الموضوع في اللجنة العسكرية" [1].

وهذا الفرمان- أي الأمر السلطاني- يشير إلى الوعي الكامل للسلطان للهدف الحقيقي من هجرة اليهود، وفي تلك السنوات المبكرة التي لم تكن الدعوة الصهيونية قد بدأت فعالياتها ونشاطها، فنراه يقرر أن غاية اليهود هي تشكيل حكومة موسوية "يهودية" في فلسطين بتشجيع وحماية الدول الأوروبية وهو ما حدث فعلا فيما بعد- كما هو معلوم- وإنهم لو أُسكنوا في أي جزء من

(١) Mart Faciasi. Cevad Rifat Atilhan, s. 43-45. ٣١

الإمبراطورية العثمانية فسيتسللون إلى فلسطين، وإنهم لن يعملوا في الزراعة بل يقومون بالإضرار بالسكان المحليين، أي سيقومون بأعمال الإقراض بالربا ومص دماء المحتاجين.

وزيادة في الحيطة نراه يسنُّ القوانين ويصدر التعليمات التي تضمن عدم بقاء اليهود في القدس بعد إكمال زيارتهم لها، ويتخذ التدابير اللازمة في هذا الخصوص، وندرج أدناه التعليمات التي أصدرها السلطان حول زيارة اليهود لمدينة القدس سنة ١٩٠٠م تأكيدًا للتعليمات التي سبق وأن أصدرها سنة ١٨٩١م.

المادة الأولى :

لا بد للموسويين- سواء أكانوا من رعايا الدولة العلية أو الممالك الأجنبية- الذين يذهبون إلى فلسطين لأجل الزيارة أن يحملوا معهم تذكرة مرور- أو جواز سفر- تتضمن صفة وغاية السياحة وتابعية حاملها.

المادة الثانية :

على جميع هؤلاء الزوار الموسويين الذين يصلون إلى ولاية بيروت أو إلى أي ميناء من موانئ القدس الشريف إيداع تذاكر مرورهم أو جوازات سفرهم لدى موظف الجوازات، والحصول- مقابل قرش واحد- على تذكرة زيارة أو إقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر في فلسطين، ولتيسير تمييز هذه التذاكر عن غيرها يجب أن تكون بلون وشكل مميز، ويجب إبراز هذه التذكرة لموظفي الدولة وللشرطة عند الطلب في أثناء السياحة أو الإقامة، ويخرج بقوة الشرطة أو بوساطة قنصل الحكومة

المنتسبة إليها كل من يتجاوز هذه الأشهر الثلاثة.

المادة الثالثة :

يجب تنظيم قائمة بمندرجات وتواريخ تذاكر الإقامة المؤقتة للزوار الموسويين المذكورة في المادة السابقة، وتنظَّم هذه القوائم في نهاية كل شهر ليتسنى إخراج الذين يتجاوزون هذه المادة، وكذلك معاقبة الموظفين الذين يتهاونون في هذا الخصوص.

المادة الرابعة:

إذا ظهرت في الجداول المنظمة لأمور السياحة والإقامة أية مخالفة لدى الزوار الذين يكملون المدة المسموحة لإقامتهم أو سياحتهم ويتركون أرض فلسطين أو يأتون ميناء بيروت لركوب البواخر أو ينهون مدة إقامتهم، أو الذين يزوَّدون بوثائق المرور ووثائق الإقامة فيجب اتخاذ إجراءات حازمة ضد المخالفين وضد الموظفين المسؤولين عن تطبيق هذه التعليمات" [١].

ورغم هذا الحرص الكبير للسلطان على منع اليهود من التسلل إلى فلسطين إلا أن الفساد الإداري المتفشي في الدولة والذي حاول السلطان أن يقضي عليه لكنه لم يفلح إلا في التقليل منه، لأنه كان إرثَ مئات من سني التدهور والانحطاط، ولم

---

(١) Yahudiler Dunyayi Nasil Istila Ediyorlar> Cevat Rifat Atilhan, Celik Cilt Matbaasi, Istanbul- ١٩٦٢, s. 46-48.

يكن بوسع أي حاكم مهما أوتي من قوة القضاء عليه تمامًا... هذا الفساد الإداري ساعد اليهود على اختراق هذه القوانين في بعض الأحيان والتسلل إلى فلسطين بفضل الرشاوى التي كانوا يقدِّمونها للموظفين.

كما أن الدول الأوروبية قامت بدور كبير في هذا المجال، فكانت تقوم بتزوير الوثائق وتموِّه على السلطات العثمانية هوية اليهود من رعاياها الراغبين في زيارة فلسطين ومن ثم الإقامة فيها، إضافة إلى استعمال كل أنواع الضغوط السياسية على الدولة العثمانية لقبول هؤلاء المهاجرين، وكانت إنجلترا وفرنسا وأمريكا في مقدمة الدول المساندة لهجرة اليهود إلى فلسطين.

ومع ذلك فإن عدد اليهود الذين استطاعوا التسلل إلى فلسطين طوال سنوات حكم السلطان عبد الحميد لم يتجاوز الخمسين ألفًا، علمًا بأن نصف هذا العدد اضطر بعد مدة من إقامته في فلسطين إلى العودة إلى بلاده نتيجةً للمضايقات العديدة التي كانوا يلقوْنها من الإدارة العثمانية التي كانت تلاحق هؤلاء المتسللين، لأن المشكلة بالنسبة للمهاجرين اليهود لم تكن تنتهي بالوصول إلى فلسطين، بل إن البقاء والاستقرار والتهرب من ملاحقة الإدارة العثمانية كانت مشكلةً كبيرةً بالنسبة إليهم مما حدا بنصف هؤلاء المهاجرين إلى تركها والعودة إلى بلادهم- كما قلنا آنفا- أي إن عدد المهاجرين اليهود في عهد السلطان الذين استقروا في مناطق مختلفة من فلسطين بلغ خمسًا وعشرين ألفًا فقط طوال أكثر من ثلاثين سنة، وهو عدد ضئيل لم يكن يؤثِّر على الوضع السكاني تأثيرًا يُذكر.

وقفة جديرة بالتأمل

كنت على و شك إنهاء الجزء الأول من مذكراتي، ووعدت أ صحابي أنني أحتاج إلى شهر واحد على أبعد تقدير، والتعلق بمشيئة الله لا أغفل عنه في وعودي والحمد لله. كنت أوا صل الليل مع النهار في الوقت المتاح، ولكن هذا كله لا يجدي شيئًا إذا أراد الله شيئًا آخر. فقد شعرت ببعض الآلام فظننته إرهاقًا، وعندما ازدادت أخذت بعض الأدوية البسيطة ولكنها لم تُجدِ، وفي (٢٦/ ٥/ ٢٠١٣م) نقلني أهلي إلى المستشفى، وفيه أصابني إلتهاب حاد في الصدر، ومررت بحالة حرجة ومن كان يراني خلالها يظن أنني لن أنهض من سرير المرض، ولكن رحمة الله بي، ثم دعاء الصالحين لي، ولا أقلل من دور الأطباء جزى الله الجميع كل خير. فعدت إلى منزلي وبدأت أتعافى، ثم عدت بفضل الله إلى استئناف كتابة مذكراتي.

وقبل الانتقال إلى فقرة أخرى أذكِّر قرائي بحديث ر سول الله ﷺ: "لايشكر الله من لا يشكر الناس". ومعناه- كما يقول علماء الحديث- أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه. وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: "من أتى إليه معروف فليكافئ به، فإن لم يستطع فليذكره فمن ذكره شكره". ومن هذا المنطلق فإني أشكر أمير قطر حمد بن خليفة آل ثاني فقد أحاطني برعايته طيلة إقامتي في قطر فجزاه الله خيرًا، وأسأل الله أن يحفظ قطر وأهلها.

وفي ٢٥ يونيو ٢٠١٣م تنازل عن الحكم- طائعًا مختارًا- لابنه تميم لأن البلد

يحتاج إلى دماء جديدة، أسأل الله للشيخ تميم التوفيق، وجزاهم الله خيرًا على ما قدموه لأمثالي، والشكر موصول للشيخ حمد بن ثامر الذي كان ولا يزال يتفقدني بين حين وآخر.

وليست هذه المرة الأولى التي يصيبني فيها مرض مميت ويمن الله علي بالشفاء بل هذه هي المرة الثالثة. فالمرة الأولى كانت عام ١٩٩١م عندما أصابني فشل كلوي وأصبحت وكأني موظف في مستشفى (همرشمت) في لندن من كثرة ترددي عليه وإقامتي فيه (كمريض منوم). وبعد سنتين من المعاناة تبرَّع لي ابني بشير بكليته، وكان في العشرين من عمره أو دون ذلك بقليل، وعدت إلى نشاطي وكأني لم أُمس بسوء من قبل. فالحمد والشكر لله، وأسأله تعالى أن يحفظ بشيرًا في دينه ودنياه، وأن يكون أبناؤه مثالاً يُحتذى في برِّهم بأبيهم.

والمرة الثانية كانت في عام (٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٨م) سقطتُ في المنزل ثم نهضت بصعوبة، ثم سقطت مرةً ثانية، وسال من فمي سائل بني اللون وكان أكثر من لتريْن، فنقلوني إلى المستشفى، وبعد فحوصات دقيقة تبين أنه (سرطان في المعدة) ولكنه في مراحله الأولى. كان الديوان الأميري- جزى الله القائمين عليه خيرًا- متابعًا لما يجري، فسألوا إدارة المستشفى عن رأيهم، فكان جواب الإدارة: إن استئصال المعدة مع وجود كلية مزروعة ستكون عمليةً دقيقةً ولا تخلو من خطورة، واقترحوا إرسالي إلى المستشفى الفلاني في لندن فهو متفوق في مثل هذه الحالات.

وعلى الفور أجرى الديوان الأميري الترتيبات اللازمة وحددوا موعد سفري

مع مرافقي- بشير- صبيحة اليوم الثاني. فنظرت في الأمر مليًّا، فصدري يضيق من أي سفر لأوروبا بعد مفارقتي لها، والعائلة مجتمعة حولي وقد جاء بعض أولادي من بلدان نائية، وفي مستشفى حمد نأخذ بالأسباب، فإذا جاءت المنية والله لن يقف دونها أطباء الدنيا، وتمثَّلت قول الشاعر:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتُ كل تميمة لا تنفعُ

وقلت لبشير أرسل كتاب اعتذار للمسؤولين، وقل لهم قررنا إجراء العملية في الدوحة، وعندما علم أصدقائي الأطباء بالقرار الذي اتخذته، قالوا لي عليك بالدكتور (خيرت) فهو أستاذ الجرَّاحين في مثل هذه الأمراض، وهذا الذي كان. قام هذا الطبيب الحاذق باستئصال ٨٥٪ من معدتي، وهو مصري الجنسية ويعمل في مستشفى حمد بالدوحة. فكم وكم في البلاد العربية من الطاقات التي لا تُعطى حقها!! والذي أريد التأكيد عليه أن الطبيب الماهر لا ينقذ مريضه من الموت. ولا المرض الخطير يميت من ابتُلي به إذا كتب الله له الحياة، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ٦١].

اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عود على بدء

قلت: استعلى السلطان عبد الحميد على المغريات التي كان اليهود يعرضونها عليه، وأغلق في وجههم جميع الأبواب لأنه رجل عقيدة، ويعلم مكائدهم عبر جميع مراحل التاريخ، وما اكتفى رحمه الله بالبيانات التي أصدرها داخل السلطنة بل راح يتابع أنشطتهم المحمومة، ولهذا "فقد أمر سفراء الدولة العثمانية في كل من واشنطن وبرلين وفيينا ولندن وباريس، فقام هؤلاء السفراء بتعقُّب الحركة الصهيونية، وإرسال تقاريرهم أولاً بأول إلى السلطان، كما قاموا- بناءً على هذا الأمر- بمقابلة زعماء اليهود في البلدان التي يعملون بها، وقاموا أيضًا بموجب نفس الأمر بإرسال مُخْبرين عثمانيين إلى الاجتماعات الصهيونية في أوروبا، وإرسال قصاصات الصحف والمجلات الأوروبية المتعلقة بنشاط اليهود في أوروبا" (١).

إن اتصالات اليهود بالسلطان عبد الحميد، وعروضهم المغرية التي يسيل لها لعاب كبار الرجال زادته اقتناعًا بأنهم يخططون من أجل أن تقوم لهم دولة في فلسطين، فأغلق في وجههم جميع المنافذ التي من الممكن أن يتسللوا من خلالها. وبعد عشر سنين من محاولاتهم التي باءت بالفشل قرر اليهود العمل على خلع السلطان عبد الحميد، وأن تكون لهم صلات مميزة بمن سيأتي بعده. يقول هرتزل في مذكراته:

---

(١) انظر مذكرات تحسين باشا رئيس أمناء القصر السلطاني في عهد عبد الحميد [تقديم د. محمد حرب لمذكرات السلطان عبد الحميد ص: ٥٤].

"إنني أفقد الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين، ولن يستطيع اليهود دخول الأرض الموعودة طالما أن السلطان عبد الحميد قائم في الحكم مستمر فيه".

قول هرتزل هذا كان إعلانًا عن قرار اتخذه اليهود لاسيما وهم يعرفون جيدًا ما يجري داخل دولة الرجل المريض ويعرفون مواطن الضعف فيها، ومن يكون البديل بعد السلطان عبد الحميد، ويعرفون كيف يحرِّكون قادة أوروبا وأمريكا، وكيف يتلاعبون بالرأي العام هنا وهناك، وبينهم وبين هذه الدول مصالح مشتركة، وبيدهم- أي اليهود- أوراق ثلاث:

الأولى: الإعلام:

كان اليهود في عهد السلطان عبد الحميد يملكون أهم الصحف في كل من أوروبا وأمريكا، وكانوا قادرين على توجيه هذه الصحف كما يريدون، وعندما تطورت وسائل الإعلام وصارت مرئيةً وغير مرئية طوَّروا إمكاناتهم من جهتين، ملكية هذه الوسائل، أعني ملكية أهمها، والقدرة على إدارتها وبشكل أخص من الناحية الإعلامية.

ومما يجدر ذكره أن الدولة اليهودية في فلسطيننا تُكثر من ابتعاث الطلبة الذين يتخصَّصون في الإعلام، وفي العلوم الاجتماعية وكذلك فالمؤسسات اليهودية في العالم تهتم أشد الاهتمام بالعلوم الإنسانية في الوقت الذي يُكثر العرب في ابتعاث من يدرسون الطب والهندسة ويفرح الطالب لأنه ضَمِنَ لنفسه حياةً كريمةً كطبيب أو مهندس، ويتساءل بشيء من السخرية: ماذا أفعل لو حصلت على دكتوراة في

التاريخ أو في علم الاجتماع؟! أما اليهود فالسؤال الملح عندهم: ماذا يريدون لأمتهم، وكيف يضعون الرجل المناسب بعد تخرجه في المكان المناسب؟

الثانية: الورقة المالية:

اعتمد اليهود منذ مؤتمر بال بسويسرا على الاقتصاد، وجنَّدوا في أنشطتهم الصهيونية كبار الأُسر، مثل آل روتشيلد الذين كان لشركاتهم صروح اقتصادية في مختلف بلدان العالم، فهم بهذه الأموال يشترون ذمم كثير من القادة ويُسخِّرونهم لخدمة مشروعهم، وكانوا يملكون عددًا كبيرًا من البنوك في كل من أوروبا وأمريكا، وفي عرض من عروضهم للسلطان عبد الحميد وعدوه بتقديم ٢٠ مليون ليرة، وهذا في ذلك العهد كبير جدًّا تعجز عنه دولة من الدول الكبيرة.

الثالثة: الماسونية:

وهذه هي الورقة التي يتلاعب بها اليهود كما يشاؤون. فالمحافل الماسونية منتشرة في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وفي معظم المدن التركية والعربية وهي التي تبنَّت حركة تركيا الفتاة التي صار اسمها فيما بعد الاتحاد والترقي، وكما رأينا فيما مضى من هذا البحث، فقد كان مركز الثقل للاتحاد والترقي في مدينة سالونيك- موطن يهود الدونمة- ونشأ هذا المحفل على غرار المحفل الماسوني الإيطالي، والذين هربوا من تركيا والتجأوا إلى فرنسا ارتبطوا بالمحفل الماسوني الفرنسي. ومما يذكره بعض المؤرخين أن جميع قادة الاتحاد والترقي ماسونيون، وبعضهم الآخر استثنى اثنين لم ينتسبا للمحفل الماسوني

أحدهما أنور باشا.

كان واضحًا عند الذين عاصروا هذه الفتنة من كبار الدعاة والمفكرين صلة الماسونية باليهودية. يقول الكاتب التركي المعروف نجيب فاضل بشيء من السخرية : "أكان الضباط الاتحاديون في الجيش الثالث تحت إمرة الدولة يا ترى! أم تحت إمرة وخدمة اليهود!".

وكتب رشيد رضا في عدد ربيع الأول سنة ١٣٢٩هـ في مجلة المنار: "إن لهذه الجمعية الأثر العظيم في الانقلابات السياسية التي حصلت في أوروبا ومنها الثورة الفرنسية الكبرى من قبل والانقلاب العثماني والبرتغالي الأخيرين من بعد، علاقة عملها بالدين والسياسة معروفة من مقصدها الذي أُنشئت لأجله [أي إزالة سلطة رؤساء الدين والدنيا] ". وكان هولت زنكر رئيس محاكم فيينا قد عبَّر عن هذا الرأي بسخرية قائلا: "إن من بين الماسونيين المئة في فيينا مئة واثنين من اليهود!!".

وقال محمد كرد علي في مذكراته: بأنه قد عرضت عليه الماسونية الدخول فيها في مصر والشام، إلا أنه كان يقول: "إن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على الكاثوليك! فما شأن المسلمين في الدخول فيها ؟! وإنه من طبعه لايدخل في مجهول، وإنه لا يريد أن يكون عاملاً لإنقاذ ومساعدة اللصوص والمختلسين الذين يستندون إلى عضويتهم في هذه الجمعية، وإنه قد لاحظ بأن أكثرية المنتمين إليها وشايعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة.

وأضاف: بأن الماسونية ألعوبة صهيونية صرفة إضافة إلى أنها يهودية يسعى

اليهود بواسطتها أن ينتزعوا فلسطين العربية من أيدي العرب ويستولوا عليها" [١].

حرَّك اليهود أوراقهم بكل ما عُرف عنهم من خبث ودهاء، فصحفهم في أوروبا وأمريكا راحت تهيِّج الرأي العام ضد السلطان عبد الحميد، فهو مستبد غاشم، يكمم الأفواه، ويكبت الحريات، وصارت تلقبه بالسلطان الأحمر، وبلغ بها الشطط مبلغًا مؤسفًا عندما زعمت أن السلطان عبد الحميد يرمي طلاب الكلية الطبية وطلاب الكلية العسكرية في مياه بحر مرمرة.

كانت الأكاذيب تُصنع في باريس ولندن وغيرهما من عواصم أوروبا فترددها الصحف المارونية في القاهرة، ولن أنقل في هذا الموضوع أكاذيب الماسوني جورجي زيدان لأنه كان يردد فيما يكتبه أباطيل الصحف الصهيونية ثم يجد من يصدِّقه من دهماء الناس الذين لا يفرِّقون ما بين الناقة والجمل، وينقلون عنه كمؤرخ، لن أنقل ما قاله هذا الأفَّاك عن السلطان عبد الحميد، وإنما سأنقل ما كتبه يوسف [٢] الحكيم الذي تولى القضاء أيام الدولة العثمانية سنة ١٩٠٤م وكان موضع احترام الدولة، فارتقى في مراتب القضاء على التوالي في القدس ويافا وطرابلس الفيحاء، وفي سنة ١٩١٣م تسلَّم رئاسة القلم التركي لحكومة جبل لبنان. لننظر ما يقوله هذا

---

(١) انظر السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود، لمؤلفه محمد مصطفى الهلالي. دمشق، دار الفكر. ص: ٣٠٧.

(٢) انظر كتابه "سورية والعهد العثماني". دار النهار للنشر.

الصليبي الذي يتظاهر بالعدل في قوله والحيادية في مواقفه:

"أما سيئات هذا العهد فكثيرة، أهمها الإرهاب الحائل دون حرية إبداء الرأي إذ كان لا يتفق وخطة العهد وحكوماته، ثم تكرر اضطهادات الأرمن وغيرهم من العناصر العثمانية، والقضاء على كثيرين من أحرار الترك المطالبين بإصلاح شؤون الدولة تبعًا للتطور العالمي، إلى غير ذلك من الأمور التي أُلصقت بصاحب العهد نعت [السلطان الأحمر] وأفسدت إدارة الحكم وتركت معظم الولايات في معزل عن التقدم الاجتماعي والاقتصادي الذي أحرزته الشعوب الأوروبية.

ومن أكبر الأدلة على استبداد السلطان عبد الحميد استبدادًا خاليًا من فكرة العدالة وراحة الضمير، اعتماده تقارير الجواسيس في القضاء على حياة من اتهموه بالنقمة على السلطان والحكم القائم. ومما يتنادره الناس عن الاغتيالات السياسية وإلقاء ضحاياها في البوسفور، أن قرينة سفير النمسا، حين كانت مع زوجها في مأدبة السلطان عبد الحميد، لم تشأ تناول السمك المقدَّم بين المأكولات ولما سألها السلطان عن سبب امتناعها عن تناول شيء منه إظهارًا لاهتمامه بضيوفه، أجابت بأسلوب قد يكون بريئًا أو مصطنعًا: أخشى أن يكون السمك قد أصاب وهو في البحر شيئًا من جسم إنسان. فبُهت الحاضرون لهذا الجواب متظاهرين بعدم وصوله واضحًا إلى مسامعهم ومفاهيمهم، على أن أحرار الترك الذين كانوا في العاصمة أو في خارج المملكة المعروفين باسم الشبان الأتراك قد بلغهم الحديث، فتناقلوه مُثنين

على نبل السيدة المشار إليها" [١].

ورغم الامكانات الكبيرة التي يملكها اليهود، فما كانوا يستطيعون إحداث تغيير جذري في السلطنة لولا أن مصالحهم تقاطعت مع مصالح الدول الغربية، وكان لهذه الدول هدفان:

الأول: أن يتخلَّصوا من مسألة اليهود، واضطهاد اليهود، ويزرعوا هذا السرطان في العالم الإسلامي، وفي الأرض المباركة بالذات.

كان للدول الغربية أطماع في وراثة الرجل المريض: ففرنسا احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠م، واحتلت تونس سنة ١٨٨١م وكانت تطمع في احتلال سورية ولبنان، ولها فيهما مصالح اقتصادية وثقافية وسياسية.

وإنجلترا التي تعلن صداقتها للعرب احتلت الهند، وكان الهنود مقاتلين في قواتها تستخدمهم في حروبها هنا وهناك فيكون لها الغنم وعلى الجنود الهنود الغرم، واستخدمت المصريين في استعمارها للسودان، وإلى الآن ينظر كثير من السودانيين للمصريين نظرةً مفعمةً بذكريات الماضي وآلامه، واحتلت بعض أقطار شبه الجزيرة العربية، كما احتلت عدن وشاطئ مضيق باب المندب وترعة السويس (بعد احتلالها لمصر) باعتبارهما ممريْن في طريقها إلى الهند- مستعمرتها الكبرى- ثم احتلت قبرص. يقول السلطان عبد الحميد: "لقد كانت إنجلترا محايدةً إلى ما قبل احتلالها

---

(١) سورية والعهد العثماني، يوسف الحكيم، مصدر سابق، وسنبين بطلان ما كتبه في الموضع المناسب من هذا البحث.

بلاد الهند. وفي اليوم الذي وجدت أن سياستها تلك ستحول دون آمالها ومقاصدها تركت سياسة الصداقة هذه وبدأت العداء المعلن، وتسببت في آخر حرب وقعت مع روسيا. وفي النهاية جاءت بأسطولها إلى إستنبول، وجاءت بروسيا إلى أيا ستفانوس، ثم وُفِّقتْ في تجميع مؤتمر برلين للاستيلاءعلى قبرص، وفي تلك الأثناء لم تترك دولةً لم تفدها من تلك الاتفاقية إمعاناً في إلحاق الضرر بالدولة العثمانية. وزينت حركاتها هذه بالصداقة، وبمعاهدة قبرص، حصلت على حق حماية الأناضول، وسعت من أجل فصل قطعة كبيرة من الدولة العثمانية باسم أرمينيا، وهي لا تزال حتى الآن تواصل أعمالها" [1].

قلت: هذه هي إنجلترا كما وصفها السلطان عبد الحميد في عصره، وهي كذلك قبله وبعده، وهي أحد أهم أطراف سايكس بيكو، وهي التي أهانت الشريف حسين بن علي عندما تقدَّم به العمر في قبرص، ومن يعتقد أنها اليوم غيَّرت أو بدَّلت من أسلوبها وطريقتها في التعامل مع قضايانا فقد أبعد النجعة وقال قولاً زوراً.

وروسيا القيصرية تهدِّد حدود الأناضول، مترقِّبةً الفرص لفتح مضيقي البوسفور والدردنيل أمام أسطولها توصُّلاً إلى البحر الأبيض المتوسط، الذي كان وما زال ميدان التسابق الدولي في عالمي التجارة والسياسة معًا.

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه. دراسة من خلال الوثائق. ص ٢٨١. وليطلع من شاء على الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف عمر فاروق يلماز في هامش كتابه.

والنمسا التي كانت تطمع في احتلال مكدونيا توصُّلاً إلى ميناء سلانيك [١].

رابعاً: الأقليات :

قنابل موقوتة يفجِّرها العدو متى أراد، هكذا كان اليهود أيام الرسول ﷺ، وهذا هو شأنهم (الأقليات) في جميع مراحل التاريخ يتناسون حسن معاملة المسلمين لهم، ويقفون في خندق الغزاة المحتلين. أحسب أن المتسرِّعين من أبناء جلدتنا سيقولون: لا يجوز التعميم والبعض من هؤلاء لهم مواقف وطنية مشـهورة. وحتى لا أطيل النقاش مع الذين نصَّبوا أنفسهم محامين عن الأقليات أقول: نعم لا يجوز التعميم، ولكن أصحاب قرار الطوائف يقفون في خندق الغزاة المحتلين، والعبرة في أصحاب القرار، وليس في الشواذ.

وعندما نتحدث عن الأقليات أيام السـلطان عبد الحميد نجد أنفسـنا وكأننا نتحدث عن غزوة الأحزاب في عهد رسـول الله ﷺ، أو كأننا نتحدث عن الأقليات اليوم في سـورية، والسـؤال التقليدي الذي توجهه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا للمعارضة:

ولكن ماذا ستفعلون بالأقليات؟!

ماذا سنفعل بالأقليات؟ هل هو سؤال بريء؟ وهل هؤلاء يريدون أن لا يُظلم أحد في بلدنا؟ لا والله إنها المراوغة بأوسع معانيها. إن الأقليات لم تشهد عدلاً إلا في

---

(١) سورية والعهد العثماني، يوسف الحكيم، مصدر سابق بتصرف يسير.

ظلال حكم الأكثرية، وإن الدول الغربية هي التي صنعت الأكثرية والأقلية في بلادنا تحت شعار فرِّق تسُد، ومدَّت يد التعاون للأقليات أو لبعضها، فالولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية، والكيان الصهيوني في فلسطيننا كانوا راضين عن حكم الطائفة النصيرية السورية طيلة نصف قرن... أجل كانت راضيةً عن طغيانها واستبدادها، بل هي التي انتدبتها من أجل إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان بعد مذبحة ارتكبها التحالف النصيري- الشيعي راح ضحيتها عشرات الآلاف في كل من سورية ولبنان. ولقد فصَّلت القول في هذه المسألة في كتبي: "الشيعة في لبنان"، و "مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان"، و " اغتيال الحريري وتداعياته على أهل السنة في لبنان"، وقبل أكثر من ثلاثين عامًا، وضعتُ كتابي "رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، الدويلات الطائفية"، وتوسَّعت فيه في الحديث عن نصارى لبنان وعن الموارنة بشكل خاص، وعن طوائف أخرى.

والجدير بالذكر أن فرنسا رسَّخت حكم الأقليات خلال استعمارها لكل من سورية ولبنان، وهي التي صنعت جيش الشرق (الجيش السوري) وجعلته قاصرًا على الأقليات وقلة قليلة من أهل السنة لاشأن لها في تركيبة وقرار الجيش، وهذا الجيش هو الذي يحكم سورية حتى يومنا هذا، وهذا يعني أن حكم سورية بيد الأقلية رغم الاستقلال والجعجعة بالديمقراطية.

وأحسب مرةً أخرى أن الذين نصَّبوا أنفسهم محامين عن الأقليات سوف يسألونني: إذن ما الذي ستفعله أنت وأمثالك عندما يصبح الحكم بيد أهل السنة؟!

فأجيبهم : نحن نتعبَّد الله بنصوص واضحة بيِّنة من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنة النبوية، وهذه النصوص تأمرنا بالعدل والإنصاف، وتنهانا عن الظلم والطغيان.

هذه النصوص تسمح لليهودي (وهم من أشدِّ أهل الكتاب كيدًا للإسلام والمسلمين)، أن يرفع مظلمته للقضاء ضد خليفة المسلمين، ويقف الخليفة واليهودي أمام القضاء، ويحكم القضاء لليهودي إن كان معه دليل.

وغيرنا تتحكَّم به أهواؤه وتعليمات طائفته، وليس في هذا عدل ولا إنصاف، وهذا الذي نعانيه في هذا العصر: استبداد، وطغيان، وقتل، وسلب، وانتهاك أعراض، وهذا الذي تريده لنا الولايات المتحدة الأمريكية، ودول أوروبا الغربية والشرقية، وكل مِلل ودول الكفر. أرأيت أيها السائل ما الذي يجب أن نفعله مع الأقليات عندما يكون الحكم بأيدينا؟!

ثمة أمر فرَّط فيه المسلمون في العصور المتأخرة عندما آل أمرهم إلى حكام لا يقيمون للدين وزنًا. لقد فتحوا أبواب الانتساب إلى الجيش والأمن إلى غير المسلمين فتولوا مراكز قيادية ليسوا أهلاً لها، وغير مؤتمنين عليها، وعندما تمكنوا تعاونوا مع أعداء أمتنا، وغدروا بمن وثق بهم. فيجب تصحيح هذا الخطأ في مستقبل مسيرتنا الإصلاحية، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب [1].

---

(١) كتبت هذه الصفحات من مذكراتي في وقت كانت الأقلية النصيرية قد انفردت بحكم سورية [رمضان ١٤٣٤هـ الموافق شهر آب ٢٠١٣م] فهدَّمت المساجد، واستباحت أعراض

أعود إلى الحديث عن الأقليات في السلطنة العثمانية أيام السلطان عبد الحميد، وأهمها:

النصـــارى (الذين يشـــملون مختلف طوائفهم، وأخطرهم: الأرمن) اليهود، النصيريون، الدروز، الإسماعليون. ومن النصارى: الموارنة. ومن الأقليات أيضًا: الأكراد الذين كانوا يسـكنون الجبال، وبدأ تمردهم سـنة ١٨٨٠م بعد محاولة توحيد ثلاثين عشـيرةً كرديةً متنافرة. وكذلك البلغار، والبلقان بشـكل عام. وإذا كنت لا أستطيع دراسة مشكلة كل من هذه الأقليات مع السلطنة، فسوف أكتفي بعرض موجز لمشكلة الأرمن:

يقول جمال باشـا في مذكراته : "ولقد عاش الأرمن والأتراك في الأناضـول، والروملي، والأستانة، بل في طول الدولة التركية وعرضها متجاورين، وساد بينهم الوفاق، حتى إن تاريخ ذلك العهد خلا بتاتًا من ذكر شيء اسـمه المسـألة الأرمنية، وكانت الصـداقة بين الأرمن في الشـؤون العائلية لا حد لها، فمن ذلك أن التركي كان إذا غادر قريته في آسيا الصغرى لشؤون خاصة، أو مصلحة شخصية عهد إلى جيرانه الأرمن برعاية أسرته ومباشرة شـؤونه والعناية بحقوقه، فقاموا بذلك خير قيام، وكذلك كان الأرمن يبدون من جهتهم هذه الثقة نفسـها حول جيرانهم

الحرائر، ودمَّرت مدناً وأحياء وقرى، وعندما شـعرت بالهزيمة اسـتعانت بإيران وشـيعة العالم ثم روسيا، ولا تزال المعركة محتدمة.

الأتراك" [١].

هذا وقد أطلقت الدولة العثمانية لقب "الأمة المُخلِصة" على الأرمن. وقد تقلَّد كثير من الأرمن مناصبَ رفيعةً في الدولة العثمانية، فكان منهم الوزراء، بل تقلَّدوا وزارات سيادية كوزارة الخارجية، ووزارة المالية، وكان منهم نوَّاب الوزراء، وأعيان ونواب. أما الموظفون من الأرمن الذين تسلَّموا مناصب مهمة أخرى كالمدراء العامِّين ومعاوني الولاةوالمتصرِّفين فلا يستطيع الباحث تعداد أسمائهم من كثرتهم ولكنه يستطيع القول: إن الأرمن كانوا من أكثر الأقليات تمتعًا بالامتيازات [٢].

تغيَّرت الأو ضاع، و ساءت العلاقات بين الأرمن والأتراك، بعد قدوم جمعيات أرمنية مسلحة من أرمن قفقا سيا الرو سية، ودفعت أرمن السلطنة للمطالبة بدولة مستقلة، وهذا المطلب غير ممكن لأنهم لا يملكون الأكثرية في المناطق التي يطالبون إقامة دولة فيها. يقول سيدني واتمان مراسل جريدة نيويورك هارولد في كتابه "ذكريات تركية" المطبوع سنة ١٩١٤م ما يأتي : "سألت القنصل الإنجليزي في أرضروم "كريفز": هل كان من الممكن أن يحدث هذا الصراع الدموي هنا لو لم تأت هذه الجمعيات الأرمنية التي أثارت الأرمن ودفعتهم للعصيان؟" فأجاب:

"طبعًا لا... إذ لا أظن أن أرمنيًا واحدًا كان سيُقتل". وفي الكتاب نفسه يقول ما يأتي: قال لي أحد اليهود في طرابزون: لو أن إحدى هذه الحركات حدثت في

(١) السلطان عبد الحميد الثاني. حياته وأحداث عهده. لمؤلفه أورخان محمد علي ص ٦٥.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني. أورخان محمد علي. مصدر سابق.

روسـيا لما بقي هناك أرمني واحد على قيد الحياة. إن الأرمن يُؤخذون للجندية في روسـيا، ويُرسـلون للخدمة في مناطق نائية عن بلدانهم، ورسـائلهم مراقبة، بينما يعيشـون في رفاه في تركيا، ويقتنون الثروات، ولا يُؤخذون للجندية، ومدارسـهم حرة يدرِّسـون فيها تاريخهم القومي، ويُلقَّنون فيها العداوة والخصـومة"، ثم أردف قائلاً : "وخلاصـة الكلام كيف يمكن جمع قومية يبلغ تعدادها مليونًا واحدًا فقط ينتشرون على مساحة كبيرة تقارب نصف مساحة أوروبا في أمة واحدة؟!" [1].

ويقول السفير الفرنسي".M. T. Cambun" المعروف بصداقته للأرمن في تقرير قدَّمه في عام ١٨٩٤م لوزير الخارجية الفرنسي ما يأتي: أُثيرت المسألة الأرمنية في أوروبا لأول مرة حوالي سـنة ١٨٨٥م، وقد اتحد الأرمن المنتشـرون في فرنسـا وإنجلترا والنمسا وأمريكا حول غاية وحركة واحدة، فأسسوا الجمعيات الوطنية، وأصـدروا الصـحف باللغة الفرنسـية والإنجليزية، ومهروا في بيان مسـاوئ الإدارة التركية في هذه الجرائد.

ويجدر الاعتراف هنا بأن فرنسـا لم تُبدِ اهتمامًا يُذكر بهؤلاء الرجال... ولكنهم لقوا ترحيبًا في لندن، إذ إن حكومة "غلادسـون " جمعت المعارضـين وسـعت في تنظيمهم وأبدت لهم كل مسـاعدة ممكنة... ثم يتسـاءل أي حل يمكن اتخاذه لهذا الوضـع المتشـابك؟ فالأرمن مُبعْثرون في جميع أنحاء تركيا، أما أرمنسـتان الأصـلية

(١) السلطان عبد الحميد الثاني. أورخان محمد علي. ص ١٦٨، مصدر سابق.

فهي موزَّعة بين تركيا وروسيا وإيران" [١].

ويقول هرتزل في مذكراته : "جاءني رابوبورت الصحفي الروسي ليأخذ مني حديثًا، وفيما كنا نتحدث تبين لي أنه على علاقة مع اللجان الأرمنية، وخاصة مع نازاربك، ولقد أوضح لي رابوبورت أن الحكومة الإنجليزية تسند الثوار الأرمن بالمال". ويقول في موضع آخر من مذكراته : "طلبت من جولد سميث أن يقدِّمني لآرثر كوهين مستشار الملكة لأنه صديق لدوق أرجيل الذي هو عضو هام في اللجنة الأرمنية" [٢].

ويقول الزعيم المصري المعروف مصطفى كامل في كتابه (المسألة الشرقية):

"وأما العناصر كالأرمن [تستعملها بعض الدول كإنجلترا] فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية، وقد ثبت ذلك جليًّا في المسألة الأرمنية، وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبِّرون المكائد ضد الحكومة العثمانية، فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية" [٣].

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني. أورخان محمد علي، مصدر سابق مع الاختصار.

(٢) يوميات هرتزل. ص ٤٠.

(٣) الاتجاهات الوطنية الحديثة للدكتور محمد محمد حسين ص ٦ [عند السلطان عبد الحميد الثاني. أورخان].

وقفات :

١ – ماذا ستفعلون بالأقليات؟! وهل تقبلون أن يكون رئيس الدولة يهوديًّا أو نصرانيًّا؟! وهل تريدون أخذ الجزية من اليهود والنصارى؟!

ثم يتطوع من لا نصيب له من العلم الشرعي فيؤلف الكتب التي يؤكد فيها بأن أهل الكتاب مواطنون لا رعايا، وليس هناك أي فرق بين النصراني والمسلم فالكل سواء في الدولة الإسلامية!! كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم، ولكن هل يملكون الجرأة ليسألوا اليهود والنصارى: أنتم لا تؤمنون بالإسلام كدين أنزله الله، ولا تؤمنون بمحمد ﷺ كرسول بعثه الله، فكيف تطالبون أو يطالب بعضنا بحوار إسلامي مسيحي، وماذا نقول لهذا الذي لا يعترف بنا ابتداءً؟!

ألا تخجلون من تاريخكم الدموي في بلادنا؟ ألا تخجلون من ظلمكم وطغيانكم؟ هل تذكرون قول القائد الصليبي"غود فراي" عندما كتب لقادته الصليبيين يقول: "إن خيولنا تخوض بدماء المسلمين إلى الركب".

وهل أنتم مؤتمنون على الأقليات في بلادنا؟! فإن قلتم: نعم! قلنا لكم: كذبتم، فالأقليات عندكم ورقة تستخدمونها لشق صف أمتنا، وإذا خالفوا سياستكم بطشتم بهم، ولولا الإطالة لذكرت عشرات الأمثلة على ذلك.

والسؤال الأخير: لماذا تتباكوْن على الأقليات الذين يُعاملون أحسن معاملة في بلادنا، ولا تذرفون دمعةً واحدةً على المذابح التي تتعرض لها الأكثرية؟! بل إن الروس كانوا وقحين كعادتهم، أو لمن شاء أن يقول: كانوا واضحين عندما قالوا:

لانريد أن يكون الحكم بيد أهل السنة في سورية [وأهل السنة هم الأكثرية].

لقد كان الأديب النصراني الدمشقي (أديب إسحاق) دقيقًا وبارعًا عندما تحدَّث عن سياستكم في بلادنا بل وفي بلاد العالم كله، فقال:

قتل امرئ في غابــة جريمـةٌ لا تُغتفــر

وقتل شعــب آمــنٍ مسـألةٌ فيها نظــر

والحــق للقــوة لا يُعطاه إلا من ظفــر

ذي حالة الدنيا فكن من شرِّها على حذر

٢- يستغرب معظم عامة أهل السنة عندما يُقال لهم: إن إيران الشيعة كانت من أمكر المتآمرين على السلطنة العثمانية، ويظنون من فرط سذاجتهم أن مشكلتنا مع إيران الشيعة جديدة كل الجدة، ولولا أحداث سورية ووقوفها بقوة إلى جانب النظام السوري الذي يُجمِع كبار علمائهم طوال مراحل التاريخ على كفر الطائفة النصيرية لما صدَّقوا أي اتهام لإيران الشيعة. لندلِّل على صحة قولنا بعرض شيء يسير من وثائق أرشيف رئاسة الوزراء العثماني حول هذا الموضوع.

ومما يجوز ذكره أن هذه الوثائق تضمَّنت آراء وأقوال السلطان عبد الحميد وكبار مساعديه:

- "كانت للدولة العثمانية علاقات مع إيران في عهد السلطان عبد الحميد خان، مثل ما كان لها علاقات مع كل العالم الإسلامي. وكانت الدولة العثمانية

ترسل سفراءها إلى إيران، وجاء شاه إيران إلى استنبول وقدم عهد الإخلاص للسلطان. إلا أنه لم يكن من المتاح إقامة علاقة أخوة تامة مع إيران، فقد أدت مساندة إيران للعصابات الأرمنية، وإمدادها لهم بالسلاح، إلى توترات في تلك العلاقات.

- كانت إيران ولا تزال تسعى- كما كانت في الماضي- لعقد اتفاقيات مع الدول الغربية ضد الدولة العثمانية. فبينما كانت الدولة العثمانية تسعى لاتخاذ التدابير لمواجهة المشكلات التي أوجدها الأرمن في الأناضول، كان الأرمن يدخلون ويخرجون- على طول الحدود- من إيران.

- وفي عام ١٨٩٦م، تسرَّب سرًّا عدة عصابات من إيران أثناء التمردات التي اندلعت في [وان]، ودخل الأرمن الذين تدرَّبوا داخل الجيش الروسي سرًّا إلى الدولة العثمانية. وقد ثبت من التحقيقات التي أُجريت عقب التمردات التي وقعت بين عامي ١٩٠٤م و ١٩٠٨م أن إيران قد عاونت العصابات الأرمنية بالسلاح، وفي أثناء تلك التمردات، تسلل عدد من المتمردين إلى (وان) من روسيا وإيران مشاركين في التمرد.

وفي موضوع آخر تقول الوثائق:

- لم تكن الدول التي اتحدت بنية تمزيق الدولة العثمانية، هي إنجلترا، وفرنسا، وروسيا فحسب، بل كان إلى جوارها- بشكل سري- أمريكا، والبرازيل، وعدة دول صغيرة، وخاصة إيران التي تدَّعي (أخوة الإسلام) فعلى الرغم من أن إيران لم تكن أحد الأطراف المتنازعة، إلا أنها أُدخلت فيها، ويكفي لفهم أن إيران قد دخلت

في أنشـــطة تخل بوحدة الدولة العثمانية واســـتقلالها، أنه قد أعطيت في مؤتمر برلين قصبة [قطور] وما حولها.

-كانت إيران دولةً تقوم- منذالقدم- بهذا النوع من الحركات للوصـــول إلى غاياتها. فقد عقد الشـــاه إســـماعيل من قبل اتفاقيات مع الدول الأوروبية، ثم حذا حذوه من جاء بعده، و ساروا على نهجه. وكانوا يسعون لإ ضعاف الدولة العثمانية، فقد وقَّع الشـــاه إســـماعيل في ١٥١٨م معاهدة الاتفاق مع المجر و(البنادقة)، وكتب خطابًا إلى الملك الرابع إمبراطور ألمانيا، وذكر له فيه أن الدو لة العثمانية (عدو مشترك) واقترح الاتحاد حول ذلك.

- ويمضـــــي السـلطان عبد الحميد في حديثه عن العلاقات العثمانية الإيرانية، فيذكِّر بالحرب التي خاضها السلطان سليم خان ضد الشاه إسماعيل الصفوي، ثم يستطرد فيشير إلى دورهم الهدَّام في نشر التشيع في العراق، ودور الدولة العثمانية في مواجهة هذه الفتنة، ثم يصـــل إلى دعمهم للعصـــابات الأرمنية، والذين يرتكبون الجنايات من هؤلاء الأرمن فإنهم يهربون إلى إيران ويجدون فيها الحماية" [1].

قلت: لقد كان الشاه إسماعيل الصفوي صريحًا غاية الصـــراحة، وا ضحًا كل الوضـوح عندما كتب إلى الملك الرابع إمبراطور ألمانيا يقول له: "إن الدولة العثمانية عدو مشترك ".

إننا- أهل الســنة- العدو الأول لهم وإن زعموا خلاف ذلك، فالعبرة في العمل

(١) انظر الســلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه. دراســة من خلال الوثائق. للمؤلف عمر فاروق يلماز. وقد قام المؤلف بتصوير الوثائق باللغة التركية.

وليس في القول، هكذا كانوا في عهد السـلطان عبد الحميد الثاني. وهكذا هم اليوم، وهم كذلك في جميع مراحل التاريخ.

كيف واجه السلطان عبد الحميد المؤامرة؟

قالوا: لو وزن السلطان عبد الحميد مع أربعة من نوابغ العصـــر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وســياســةً وقالوا أيضــاً: إنه أعظم ســلطان [١] جلس على أريكة ملك آل عثمان.

لم يعد الســلطان عبد الحميد كذلك في الســنين الأخيرة من حكمه، فهل كانت المؤامرة الكونية التي تجمع فيها كل لســنٍ وأمة أكبر من اســتطاعة رجل مهما كانت مواهبه؟!

أم أن المجتمع التركي قد نخره الفساد، وأصبح هؤلاء الفاسدون المفسدون على بعد أمتار من المكان الذي يجلس فيه السلطان؟!

أم أن السلطان لم يطوِّر وسائله بما فيه الكفاية؟!

لنحاول فيما يلي مناقشة هذه التساؤلات:

- كان الســلطان عبد الحميد مهتماً بصــنفيْن من أبناء الســلطنة ويعتمد عليهم اعتمادًا كبيرًا.

الصـنف الأول : الطرق الصـوفية على مختلف فِرَقها، فكان يقرِّبهم إليه، ويغدق عليهم الأموال الطائلة ويفتح لهم الزوايا، ويعقد لهم المؤتمرات. و هذا بحد ذاته مشــكلة، لكن المشــكلة الأكبر هو أبو الهدى الصــيادي الذي يتربَّع على رأس هذه

(١) ذكرنا شيئًا من هذا فيما مضى.

المؤسسة الصوفية على طول امتداد السلطنة، وكان مُمَكَّناًعند السلطان.

جاء في مذكرات ابنة السلطان عبد الحميد: يقول رشيد بيك في مذكراته : "من الأشياء التي شهدتُها حادثةً وقعت صباح خميس، إذ جاءنا خطاب بالشفرة من سفارتنا في بوخارست ففتحناها، وإذا بكاتبه يقول: جاءنا فلان من رومانيا وأخبرنا سرًّا أنه إذا حدث وذهب خلاله السلطان يوم الجمعة القادم إلى جامع تكية الشاذلية لأداء مراسم تحية الجمعة المعتادة فسوف يتعرض لمؤامرة، إذ سمعتُ أنهم وضعوا متفجرات في المجاري المجاورة للجامع".

أُجريت التحريات اللازمة. وفُتِّشت المجاري ليلة الجمعة، وتبيَّن كذب ما جاء في التقرير، فمن هذا المفتري الذي كتب هذا التقرير، وماذا يريد؟ يجيب رشيد بك عن هذا السؤال: "والمعروف عن شيخ الشاذلية ظافر أفندي أنه كان رجلاً لا يؤذي أحدًا، ولا يتدخل في شؤون الدولة، وكان مؤمنًا ورعًا. وكان أبو الهدى الصيادي يقيم عند مرمى (سرنجه بك) في مقابل تكية الشاذلية، ويغبط الشيخ ظافرًا علنًا على عطف السلطان عليه. ويبدو أنه أرسل هذا الإخبار الكاذب إلى بوخارست حتى يَحرِم الشيخ ظافرًا نيل الشرف الذي حُرِم هو من نيله. وأدرك المطلعون على خفاياه أنه أجبر السفارة على تقديم الأخبار من هناك، وأنه شاء تخويف الشيخ ظافر بهذا الطريق الملتوي، آملاً أن يسقط من نظر السلطان، وأعتقد أن السلطان أيضًا كان يدرك ذلك، ولكن مهما كانت طبيعة فهمه لهذا فإن أبا الهدى الصيادي قد حقق بغيته".

ويقول أ. د. أكمل الدين إحسان أوغلو الذي أشرف على إعداد مذكرات عائشة بنت السلطان عبد الحميد معلقًا على وثيقة رشيد بك: "ولا شك أن هذه الوثيقة تثبت أن السلطان عبد الحميد لم يكن كما ذهب البعض هلوعًا موسوسًا، بل تثبت أنه كان حكيمًا محتاطًا في تحركاته، إذ أمر أولاً بالبحث عن المتفجرات، ثم ذهب إلى الجامع غير متهيِّب. أما عن انقطاعه فيما بعد عن الذهاب إلى الجامع والتكية ولقاء الشيخ ظافر، فربما يرجع إلى أن السلطان أدرك أن أبا الهدى الصيادي يغار من الشيخ، فلم يشأ أن يغضبه وهو الذي استعان به في إرسال الدراويش إلى تركستان والهند، والتنغيص على الروس والإنجليز، واستخدمه عينًا على خصومه، بل وفي التباحث سرًّا مع الإنجليز.

غير أن العلاقة بين السلطان عبد الحميد وبين الصيادي كانت واحدةً من الأخطاء التي أخذها معظم المؤرخين على السلطان، إذ كان الرجل أفَّاقًا يكره أن يظفر أحد غيره بثقة السلطان، فأوغر صدره ضد الآخرين، وحال بدسائسه ومكائده بينه وبين المخلصين" [1].

يقول محمد كرد علي في مذكراته:

"ألا من حدثته نفسه أن يعرف كيف يحظُّ الحظ بعض الخاملين فيرفعهم إلى مراتب النابهين في الحكومات الاستبدادية فليسمع ما قصه عليَّ والدي:

---

(١) انظر مذكرات عائشة عثمان أوغلي بنت السلطان عبد الحميد أعدها أكمل الدين إحسان أوغلو، ونقلها إلى العربية صالح سعداوي صالح. دار البشير، عمان. ص ٤٨ .

(كنا بضعة تجار من الشاميين في استنبول ننزل في خان من خاناتها، ولم تكن الفنادق يومئذٍ معروفةً، وكنا نتآلف ونشترك في النفقة والسمر. وكان يزورنا درويش شاب أسمر اللون، جهوري الصوت، تبدو أمارات الذكاء عليه، وله جدائل يرخيها على ظهره، يعتمُّ بمئزره، ويكتسي عباءةً وقفطانًا، ويضرب بالدف، وينشد أشعارًا على طريقة القوم. وما كان يشاركنا في النفقة ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة. وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي وليد قرية خان شيخون من عمل حلب).

(وجرَّنا الحديث في إحدى العشايا إلى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ﷺ وذهبت بنا الآراء كل مذهب، وأخذ كل منا يدلي بما يراه، فصرّح أبو الهدى برأي لم يرض عنه الجماعة وعدَّوه تهجّمًا على الصحابة الكرام. قال إن نقطةً واحدةً أهريقت من دماء آل البيت أفضل من كل من مشى على الأرض بعد الرسول، فقال له مناقشوه: فأين إذًا يا جاهل يبقى أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكبار الصحابة والأئمة، وقام أحدهم ولطم أبا الهدى على وجهه، وحاول أن يزيده صفعًا، فحِلْتُ بينهما معتذرًا عن أبي الهدى بأنهم لم يفهموا قصده، وأوَّلوا كلامه تأويلاً ما كان يريده).

(مضت أيام انقطع فيها أبو الهدى عن مجلس أصحاب الخان، وعرضت في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألة اقتضى أن يكلم بشأنها ناظر الضبطية- الأمن العام- فانتدبني إخواني للقيام بهذه الوساطة، بدعوى أني أعرف قليلاً من

التركية،وصورتي مقبولة، وإني جسور اعتدت مقابلة الكبراء، فذهبت إلى النظارة، واستأذنت على الناظر، ولما فُتحت لي ستارة البهو، كان أول ما وقع عليه نظري ذلك الصاحب الذي أنقذته من الصفع يوم الخان، شاهدته قاعدًا في صدر المجلس والناظر جالس بين يديه جلسة الصغير مع الكبير. وأدركت في الحال أن الشيخ أبا الهدى أصبح ذا مظهر جديد).

ثم يمضي في روايته، فأشار إلى اهتمام الصيادي به، وقال للناظر معرِّفًا بي:

(هذا فلان من أعيان دمشق وكبار تجار ها، وهو على جا نب عظيم من الأدب والفصاحة، ثم تكلمتُ في المسألة التي جئت من أجلها فانحلَّت في الحال).

وعن سبب تقدم الصيادي هذا التقدم عند الناظر هو أن امرأة الناظر أُصيبت بمرض أعجز الأطباء وكان زوجها يحبها حبًّا شديدًا، وشاء الله أن تشفى من مرضها بعد خليط تداخلت فيه حجب وتمائم الصيادي مع أدوية وعقاقير الطبيب [فعظم مقام الشيخ في عين سيِّدها وشاع بذلك ذكره في دار الملك، وكثُر قصَّاده والمعتقدون به، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه الخير].

وما لبث أن استدعاه السلطان في مسألة مشابهة لمسألة الناظر، وأصبح بعد حين مستشارًا له، وأوهمه أنه صاحب النفوذ الأكبر في الولايات العربية، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته.

ويقول أيضًا محمد كرد علي : "وكان من أعمال الصيادي مكافحة المذهب الوهابي [السلفي] لئلا يتسرَّب إلى العراق والشام، لأن السلطان كان يخاف على ملكه في ديار العرب من الوهابيين وصحابهم". وبمثل هذا قال كثير من المؤرخين.

قلت: كيف يستقيم هذا مع دهاء وحنكة السلطان عبد الحميد؟! لاسيما وهو يعرف ظلم الصيادي للذين يختلف معهم في اتجاهاتهم، أو للذين يحظون بثقة السلطان وكبار المسؤولين فيكيد لهم كيدًا عظيمًا.

صحيح أن السلطان كان يحقق فيما يرفع إليه من تقارير، ولكن مع بداية التحقيق وظهور النتيجة، قد يتعرض علماء الأمة للظلم، وهذا ما حدث للعالم الدمشقي جمال الدين القاسمي، ثم تبيَّن للمسؤولين العثمانيين أن لا صلة له مع شيوخ نجد فانتهت محنته، وهناك عشرات من العلماء الأحرار فأي مصلحة للسلطان عبد الحميد وللسلطنة العثمانية في اضطهادهم وكسب عداوتهم؟! [1]

الصنف الثاني: الأعيان، وشيوخ العشائر، ويقول الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الذي أشرف على مذكرات عائشة بنت السلطان عبد الحميد: " كما حاول السلطان عبد الحميد أيضًا كسب تأييد رؤساء العائلات ذوي النفوذ والعشائر الكبيرة خارج استنبول ممن آمن بصدق إخلاصهم للدولة، فكان يحاول جذب العائلات ذات النفوذ في مناطق معينة إلى المشاركة في إدارة دفة الحكم، أو أن يتجنب

(١) مذكرات محمد كرد علي، الجزء الأول، ص ٢٤٢ .

بحذر المساس بمصالحها من خلال نوع من التسامح" [١]. والصلاح بين هؤلاء قليل، وهم لا يبالون إذا ذهب السلطان عبد الحميد، أو جاء أنور با شا وجمال با شا إذا كانت مصالحهم مضمونةً، ومنهم معظم الإقطاعيين الذين كانوا يعاملون الفلاحين الذين يعملون في أرضهم معاملة العبيد أو أسوأ... وشتان شتان بين معارضة يقودها شباب لا يترددون في بذل المهج والأرواح فيما يعتقدون أنه الحق، وبين موالين للسلطان يقودهم انتهازيون ينفر الناس منهم.

وإذا كان الدراويش والأعيان هم عصبة السلطان وبطانته فقد خلا الجو لجماعة الاتحاد والترقي لتأخذ طريقها إلى هدفها المنشود، وكان السلطان محيطًا بكل ما يدور في مملكته، لا سيما وأن جهاز استخباراته كان نشيطًا ومتفوقًا على أمثاله، ولقد وضع هذا الجهاز بين يدي السلطان معلومات كافية عن المؤامرة وأسماء المتآمرين ودور نوادي الماسونية، وكان من المنتظر لو أخذنا بأقوال خصوم السلطان أن يلقي المتآمرين في مياه البوسفور، أو يزج بهم في سجون مظلمة موحشة لا يُعرف فيها الليل من النهار، ويتركهم حتى يتوفاهم الله مهما طالت سني عمرهم، لكن السلطان كان على نقيض ما كتب أعداؤه عنه، كان كالوالد الرحيم، ينذر ابنه ويتوعَّده وقد يكتفي بفرك أذنه. يقول المفكر والأديب التركي نجيب فاضل:

"لم يشهد تاريخ الإنسانية كذبةً أشنع من كذبة أن السلطان عبد الحميد- الملقَّب

---

(١) انظر كتاب: والدي السلطان عبد الحميد الثاني. (مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي. ص ٣١).

من قِبَل الأرمن بالسلطان الأحمر- كان يرمي طلاب الكلية الطبية وطلاب الكلية العسكرية إلى مياه بحر مرمرة، إن أي حاكم فردي مهما بلغت رقةُ قلبه لم يكن ليتردد لحظة واحدة في إرسال زمرة عقدت العزم على تدبير انقلاب ضده إلى أعواد المشانق. وأضاف: "هذا هو خطأ السلطان عبد الحميد، فبدلاً من الشفقة على هؤلاء الذين كانوا خدمًا وألعوبةً بيد الماسونية واليهودية والإمبريالية الغربية، كان عليه أن يُشفق على أمته وعلى تاريخها فيقضي عليهم وهم بعد في أول الطريق، وأن يجتثهم من جذورهم... وماذا يمكننا أن نقول أكثر... لقد كانت تلك طبيعته وسجيته، وكان ذلك قدره. ولقد كان هذا السلطان الداهية يعرف بذكائه نقطة ضعفه هذه، لذلك فإنه قال مرة لأحد ندمائه:

(إنهم يدفعونني لكي أسلك طريق الشدة والعنف. ولكنني لا أستطيع ذلك لأنني لا أملك نفس المزاج العنيف الذي كان يملكه السلطان محمود).

إن الوسائل التي كان السلطان عبد الحميد يستعملها ضد الاتحاديين وأعضاء تركيا الفتاة كانت وسائل غير فعَّالة وغير مجدية، وتتلخص في إسداء النصح إليهم أو استمالتهم بمنحهم مناصب عالية، أو بدفع مبالغ معينة إليهم، أو نفيهم وتحديد إقامتهم هنا أو هناك مع تخصيصات مالية أكبر من رواتبهم الأصلية، ولم يؤذ أي واحد منهم خارج هذا أي إيذاء، لذا فقد فقست بيوض الأفاعي تحت جناحي رحمته وكبرت ونمت وانتشرت في كل جحر ثم خرجت إلى الميادين

والساحات" [١]. والشخص المنفي زمن السلطان عبد الحميد كان حرًّا في التجول داخل المدينة، ويسكن في بيت وليس سجناً مع مخصصات مالية دسمة، وإنما يحظر عليه مغادرة تلك المدينة، وكانت الرقابة على هؤلاء المنفيين من الضعف والتساهل إلى حد أن معظمهم كان يجد وسيلةً للهرب بكل سهولة.

قصارى القول: كشف السلطان عبد الحميد الثاني ثلاث مؤامرات للاتحاديين، وقُدِّموا إلى المحكمة العسكرية، وكانت العقوبات المتخذة بين السجن والنفي، وكان يصدر أمره بالعفو عنهم. وبعد شلِّ حركتهم في استنبول اتجه إلى معالجة أمرهم في أوروبا، فأرسل إليهم رئيس استخباراته أحمد جلال الدين باشا، وعرض عليهم العودة إلى استنبول وتعينهم في مناصب ملائمة لهم، ووعدهم ببعض الإصلاحات، وفي حال رفضهم لهذا العرض سيكون السلطان حرًّا في اتخاذ ما يراه مناسبًا من العقوبات في حقهم.

وبعد دراسة هذا العرض قرَّر معظمهم الموافقة على المبادرة واعتبروها هدنةً!! وأصدر السلطان عفوًّا عامًّا، فعادوا وعيَّنهم السلطان في مناصب مهمة، وكان في مقدمتهم مراد بك. وكاد أمرهم ينتهي لولا فتنة الجيش الثالث في سلانيك. يقول أحد قادة الاتحاديين في كتاب منشور: "إذا كان الجيش الثالث يتمتع بشيء من العسكرية وذلك لأن تدخل الدول العظمى في أحداث الروملي ساعد على اكتساب

(١) تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ص ٤١٠ – ٤١١. بتلخيص [عن كتاب عبد الحميد الثاني. أورخان محمد علي].

هذا الجيش نوعًا من الحرية لم تتمتع بها الجيوش الأخرى مما عمل على تهيئة تربة جيدة لفكرة الحرية!".

وقد بيَّنا فيما مضى احتضان المحافل الماسونية لهذا النشاط الهدَّام، وقد أدرك الماسونيون أن دور ونشاط بضعة أشخاص هاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديًا على الإطلاق، وأن الأسلوب المؤثر والفعَّال هو التسرّب إلى الجيش واصطياد الضباط الشباب بكل أنواع الإغراءات، وكان الجيش الثالث هو الأنسب لهم لما يتمتع به من ميزات.

وإضافةً إلى ما سبق ذكره عن دور الصهيونية- الماسونية- في ثورة الاتحاديين نضيف كلمةً مهمةً لرجل معروف باطلاعه الواسع على الشرق الأدنى. قال سيتون واطسون: "إن أعضاء تركيا الفتاة- الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم بهم- كانوا رجالاً منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها لكونهم قضوْا ردحًا طويلاً من الزمن في المنفى، وكانوا متأثِّرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية وبالنظريات غير المتوازنة للروح الوحشية للثورة الفرنسية، كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنهم دون استثناء رجال مؤامرات لا رجال سياسة، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقد الشخصي لا بدافع الوطنية، والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة، وهي مدينة سلانيك إذ تمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية جمعية الاتحاد والترقي وهي المنظمة السرية التي بدَّلت نظام حكم عبد الحميد.

إن العقول الحقيقية للحركة كانت عقولاً يهودية أو يهودية- مسلمة، وقد جاءت مساعداتها المالية من أغنياء الدونمة ومن يهود سلانيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فيينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن أيضاً" (١).

(١) The Rise of Nationality in the Balkans London 1917.P.P 134-135عن كتاب السلطان عبد الحميد الثاني. أورخان محمد علي. ص: ٢٣٧، مصدر سابق.

خلع السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميدالثاني محيطاً بأهم تحركات جمعية الاتحاد والترقي، وكان يقابل مؤامراتهم بالعفو والتسامح، ومهما قيل عن أسباب هذه الليونة، فهي مخالفة لنهجه في الحكم وسياسة الأمور، ولقد كان رحمه الله خير من يفهم قول الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذي يحفظ العهدا

فَهِم الاتحاديون موقف السلطان منهم فتمادوا في غيِّهم وأصبحوا قادةَ عصابات مسلَّحة، وكان أبرز قادة هذه العصابات أنور بك (أنور باشا فيما بعد)، ونيازي، وأيوب صبري، وصلاح الدين قائمقام الأركان الحربية.

قتلت هذه العصابات سامي بك مفتش الشرطة، وإمام فرقة المدفعية في سالونيك، وآخرين غيرهما، ثم صعدوا إلى الجبال، وتجمَّع حولهم آلاف المتمردين من الأرنؤوط والبلغار، وهددوا السلطان عبد الحميد بأنهم سيسيرون إلى استنبول إذا لم يعلن الدستور. ويبدو أن السلطان لم يكن في بادئ الأمر مصدِّقًا لهذه الحكاية، ولكنه أدرك بأن المسألة خطيرة ولا ينبغي التقليل من شأنها، فأعلن الدستور في

٢٣يوليو ١٩٠٨م وأتبعه بفرمان العفو العام الذي شـمل : جمال، وأنور، وطلعت، ولكن هل هدأت الفتنة؟!

لقد استمر الاتحاديون في تفعيل تنظيماتهم السرية، وحوَّلوا جمعيتهم إلى حزب سياسي شملت أنشطته جميع مرافق الدولة العسكرية منها والمدنية، وأخذوا يمارسون ضغوطهم على الصدر الأعظم وأركان الدولة من أجل أن تسير أمور السلطنة كما يريدون وفازوا في انتخابات (١يسمبر١٩٠٨م) التي استخدموا فيها السلاح ضد الذين ينافسونهم، وأحدثت هذه الانتخابات صراعًا بين الأتراك وغير الأتراك، وظهرت فرقة الأحرار اللامركزية التي أسَّسها صباح الدين ضد جمعية الاتحاد والترقي، ولكن فرقة الأحرار لم تحول بين الاتحاديين وبين سيطرتهم على مجلس المبعوثين الذي اختار أحمد رضا رئيسًا له.

حادثة ٣١ مارت [١]: ثبت بالوثائق التاريخية أن السلطان عبد الحميد خان لم تكن له علاقة بهذا الحدث من قريب أو بعيد. قالت الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد: "وصار جيش الحركة [٢] على مقربة من استنبول، وظل والدي يمضي أيامه في الانتظار حتى يوم خلعه، وكنا نحن أيضًا في حالةٍ يُرثى لها، نروح

(١) هذا حسب التقويم الرومي لسنة ١٣٢٥، ويصادف ربيع الأول ١٣٢٧ هـ ١٣/ ٤/ ١٩٠٩م. [عن كتاب السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان].

(٢) جيش الحركة: هو الجيش الذي قاده محمود شوكت وخرج به من سالونيك إلى استنبول وجنده خليط من البلغار واليونان والأرنؤوط والعرب ويهود الدونمة والأتراك.

ونغدوا أمام بابه، وقد رضينا بقدرنا، وراح يتردد عليه الباشاوات المخلصون له، ويَعرضون عليه المواجهة بالسلاح، إلا أنه كان يرد عليهم بقوله: (لا يجب لأجل شخص واحد أن يذهب ألف شخص، وأن يضرب الأخ أخاه، ويجب جمع الأسلحة من المعسكر وعدم إطلاق النيران، ولا أريد أن تنزف أنف رجل واحد، وليفعل المترددون ما يشاؤون).

وفي تلك الأثناء كانوا يدكُّون طاش قشلة بالمدافع، وتتردد أصداؤها بعنف في السراي الذي كان محاصرًا هو الآخر. وعندما قام جيش الحركة بمحاصرة السراي، وانقطعت صلته بالخارج أصدر أمرًا برفع علم التسليم على السراي" [1].

ويذكر المؤرخ التركي إسماعيل حامي داشماند في موسوعته التاريخية عن دخول جيش الحركة إلى استنبول فيقول: "إن بعض القواد جَثَوْا على ركبهم أمام السلطان عبد الحميد طالبين منه السماح لهم بتشتيت جيش الحركة فلم يقبل السلطان وقال لهم: (أيها الباشاوات إنني خليفة المسلمين، لذا لن أدع المسلمين يتقاتلون).

ثم انسحب للغرفة المجاورة، في تلك اللحظة كانت كلمةً واحدةً تخرج من فم السلطان كافيةً لتشتيت جيش الحركة المؤلف من الصعاليك، فلو قام بتعيين قائد مقتدر على رأس الجيش الأول الذي كان أفضل وأقوى جيش في تركيا وأمره بالقتال لتغيَّر مصير الدولة. ولعل عدم قيامه بذلك هو أكبر خطيئة للسلطان عبد

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والدي. مذكرات ابنته عائشة. ص ٢٣٤.

الحميد" [١].

وكان غالب باشـا ممن لعبوا الدور الأول في خلع السـلطان عبد الحميد خان. وقد كان موجودًا أيضًـا ضـمن العصـابة المكلفة بنهب سراي يلديز بعد احتلال جيش الحركة لاستنبول، وجاءته برقية من قائد جيش الحركة محمود شـوكت يأمره فيها باحتلال دائرة الحريم بسـراي يلديز، وجاء في مذكراته: عرضتُ البرقية على جواد بك الباشكاتب، ثم طلبتُ أن يقنع السلطان بالاستقالة فيحظى بموقع مهم في نظر الأمة فردَّ جواد بك قائلا: يا عزيزي كيف أقترح عليه ذلك. أقسـم لك أن السلطان لم يكن لديه أي دخل في تلك الواقعة [٣١ مارس]، وأنه حرص لأقصـى درجة على المحافظة على الحكم الدستوري منذ وقوع الانقلاب، وبذل جهودًا كبيرةً لمنع تلك الواقعة الأخيرة، ولكن ماذا كان عليه أن يفعل، فقد كان كل شيء قد انتهى وعمل على توفير الأمن، بأن مَنَع الجنود الموجودين بسـراي يلديز من استخدام السلاح، والحق أن صنيعه ذلك يستلزم الشكر له، وبالله أقسم انني أعلم أنه بريء" [٢].

وإذاً: فمسـؤولية الفوضى والاضـطرابات التي حدثت في ٣١ مارس يتحمَّل

(١) السلطان عبد الحميد الثاني. حياته وأحداث عهده. أورخان محمد علي مصدر سابق. ص ٢٧٦.

(٢) السـلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه. دراسـة من خلال الوثائق. عمر فاروق يلماز. ص ١٧٨ .

مسـؤوليتها جيش الحركة- الاتحاديون- الذين احتلوا اسـتنبول إن لم يكونوا هم الذين خططوا لها، ويتحمَّل مسـؤوليتها طابور القناصـة الذين اجتمعوا في سـاحة السـلطان أحمد، وراحو يهتفون: نريد الشـــريعة. وهؤلاء- القناصـة- من غوغاء الجيش الثالث في اسـتنبول، وليس بينهم أصـحاب رتب عالية من الضـباط، ثم تشـكَّلت فيما بعد حركة الأحرار اللامركزية التي يتزعمها الأمير صـباح الدين المناوئة للاتحاديين، وهي التي انتهت باغتيال الصـدر الأعظم محمود شـوكت عام ١٩١٣م، وصـباح الدين عميل معروف للإنجليز، وكان أبوه الداماد محمود حانقًا على السلطان عبد الحميد.

عود على بدء

وفدهم الى السلطان:

أرسل الاتحاديون الانقلابيون وفدًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني لإبلاغه بقرار خلعه، ويتألف من:

١- إيمانويل قراصو: وهو يهودي إسباني الأصل. كان مسؤولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب ضد السلطان عبد الحميد، وتأمين التخابر بين سالونيك وإستنبول فيما يتعلق باتصلات الحركة. وقراصو هذا محامٍ، عملت جمعية الاتحاد والترقي بنجاح على تعيينه في المجلس النيابي العثماني عن سالونيك مرةً وعن استنبول مرتين. وصفته المصادر الإنجليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي. عمل أثناء الحرب مفتشًا للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده في هذه الوظيفة أن يجمع أموالاً كثيرةً لحسابه الخاص، ولعب دورًا هامًّا في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجةً لخيانته للدولة العثمانية أن يهرب إلى إيطاليا، ويحصل على حق المواطنة فيها، واستقرَّ في تريستا حيث مات عام ١٩٣٤م. وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذَ الأعظم لمحفل مقدونيا نياريزولتا الماسوني [١].

٢- أرام: أرمني أباح دماء الكثيرين من الأتراك عند ترأسه الإرهابيين الأرمن.

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. تقديم وترجمة د. محمد حرب.

عضو في مجلس المبعوثان [١].

٣- أسعد طوبطاني: يقول يلماز: عميل لإيطاليا في استقلال ألبانيا، وقد أهدر دماء الكثيرين من الأتراك. نائب دراج في مجلس المبعوثان.

٤- الفريق عارف حكمت باشا: كان عضوًا في مجلس الأعيان [٢] وياورًا سابقًا للسلطان، وهو كرجي العِرق، وتعاون مع دول الاحتلال خلال الهدنة.

كان السلطان على وعيٍّ كامل بأن خيوط المؤامرة المحاكة ضده هي في أيدي اليهودية العالمية لعدم استجابته لبيع القدس وفلسطين. انظر إلى قوله:

"إن أشدَّ ما آلمني هو تبليغي بقرار الخلع من قِبَل ذلك اليهودي الماسوني، فأنا لا أستطيع نسيان عمانوئيل قره صو من بين وفد المبعوثين النواب الذين جاءوا إلى يلدز، لقد كان هذا إهانةً لمقام الخلافة. ونحن جميعًا نعلم مدى الحقد الذي يكنه منذ زمن الرسول ﷺ للإسلام ولمقام الخلافة، وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءني في أحد الأيام تيودور هرتزل مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخاميين وذلك من أجل غاية صهيونية، وقبلت الزيارة للاستماع إليهم لمعرفة مقاصدهم، فكان طلبهم هو الحصول على وطن لليهود، وكانوا يقترحون القدس لذلك، حتى إن تيودور هرتزل قال بلا خجل: أحب أن أعرض على جلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبةً من الذهب حالاً من أجل القدس.

---

(١) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية. يلماز أوزتونا ٣/ ١٨٥.

(٢) موسوعة يلماز. مصدر سابق.

شـعرت بأن الدم يطفو إلى رأسي... تأمل! لقد وصـلت الجرأة بهذين اليهوديْن إلى عرض الرشـوة في مقام سـلطتنا! صرختُ بهما: اخرجا من هنا حالاً... إن الوطن لا يُباع بالمال، وعندما دخل رجال القصـــــر أمرتهم بإخراجهما. ومنذ ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء، وكل ما أقاسيه هنا في سالونيك هو جزاء عدم إعطائي وطنًا لليهود "[1].

الماسونيون بعد خلع السلطان:

كان السـلطان قد جعل أرض فلسـطين ملكًا سـلطانيًّا، ومنع منعًا باتًّا بيعها إلى أي أجنبي لأنه كان يخشى قيام اليهود بشـراء هذه الأراضي، فجاءت حكومة الاتحاد والترقي وسـنَّت القوانين التي أباحت لجميع الأجانب شراء الأراضي في الدولة العثمانية ومنها أراضي فلسـطين، لم يكن النظام الجديد فيما أصـدره من قوانين أكثر من جهاز تنفيذي لتعليمات الماسـونيين الذين كانوا يعتبرون أنفسـهم سـادةَ هذا الانقلاب الذي الذي أطاح بعدوهم السلطان عبد الحميد الثاني.

"ولم يكن المسـلمون واعين لاسـتراتيجية الماسـونيين اليهود وجمعية الاتحاد والترقي، خصـوصًـا بعد أن وجدوها بعد عام ١٩٠٩م تروِّج سـياسـيًّا للوحدة

---

(١) قال حسـام الدين أرتوك، وهو أحد رؤسـاء الأمن القومي السـابقين في تركيا [ما وراء الأسـتار في عهدين]: قال لي مرة صـديقي ملازم أول خيَّالة زنزن دبره لي: عندما كنت في حراسـة السلطان عبد الحميد شكا لي السلطان المخلوع في أحد الأيام قائلاً: ثم ذكر الكلام الآنف الذكر. عن كتاب عبد الحميد الثاني. أورخان، ص ٢٣٩.

الإسلامية كاستراتيجية لإضعاف القوى الإمبريالية المنافسة لهم التي تحكم المسلمين، إلا أن الدعوة إلى ذلك لم تعد تجد من يسمعها لأن المسلمين أخذوا يعبِّرون عن كرههم الكبير للماسونيين باعتبارهم عملاء يروِّجون للآراء المعادية للدين" [1].

كان يرأس الفرع الرئيسي لجمعية الاتحاد والترقي في القسطنطينية رجل يهودي الأصل وماسوني من سالونيك، وكانت المحافل الماسونية تعمل في الخفاء بعض الوقت، وبعد سنة من تولي طلعت بك وزارة الداخلية، انتشرت المحافل الماسونية في كل أرجاء الدولة، وليس في استنبول وحدها، وهذه هي بعض الشواهد:

- سبق أن ذكرنا قول فخري البارودي:

"وبعد انقلاب الاتحاديين فتح المحفل أبوابه، وجمع الأعضاء شملهم، وأسَّسوا محفلاً جديدًا أسموه محفل (نور دمشق) وربطوه بالمحفل الاسكتلندي".

- "انعكس النفوذ المتزايد للصهيونية بين الأتراك الجدد وحكومتهم على موقف الصحفيين العرب والتقارير الدبلوماسية الفرنسية. وقد تجلَّت مشاعر معادية لليهود بين مسلمي دمشق الذين اتهموا اليهود بالتعاون مع الأتراك الجدد لتأسيس دولة صهيونية في فلسطين. وقد أكَّد الكاتب الإسلامي رشيد رضا تنامي الشعور المعادي لليهود وذهب إلى أن نفور المسلمين في الجزائر من فرنسا يعود إلى مرسوم

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والعالم الإسلامي. المؤلف قيصر أ. فرح، ترجمة محمد الأرناؤوط، ص ٣٣٨.

كريميو الذي ضحَّى بالجزائريين لأجل اليهود" [١].

- من أشهر النصارى الذين أسَّسوا المحافل الماسونية في مصـــر والشام الشامي يو سف سكاكيني، وهو من الروم الكاثوليك. وقد حصل على الجنسية الفرنسية، وخدم في الجيش الفرنســي. يوسف سكاكيني أسَّس محفل المجلس الأعلى العثماني، وأصبح معروفًا في العالم الما سوني كله، ولم يعد في الإمكان تأسيس أي محفل أجنبي دون موافقته، كان محفل الشــرق الأعظم في فرنسا يثق به أشدَّ الثقة، وكذلك كانت المحافل الما سونية في إيطاليا. أسَّس محافل ما سونية في: دمشق، وحمص، وحلب ثم في بيروت، وزحلة، وعدد من المدن المصرية.

والذي يميِّز يوســف ســكاكيني عن غيره من العاملين في الأنشــطة الماســونية تجسُّـــســـه لصـــالح الأتراك الجدد، أي جمعية الاتحاد والترقي، حيث كان يعتبرهم المنقذين من الحكم الاستبدادي الحميدي، في حين كانت المحافل الماسونية الأخرى في مصـــر والشام تعمل من أجل اللامركزية أو من أجل ا ستقلال البلاد العربية، وخاب أمل الما سونيين العرب عندما رأوا المحافل الأجنبية العظمى تعمل من أجل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان يو سف سكاكيني وأسياده الما سونيون الذين يتزعَّمون جمعية الاتحاد والترقي يســيرون في هذا الاتجاه المعادي لتطلعات

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والعالم الإسلامي. لمؤلفه قيصـــر أ. فرح، مصدر سابق، ومقال رشيد رضا في مجلة المنار عدد ٢٠ شباط ١٩١٣م.

العرب والمسلمين بشكل عام [١].

- يشير الكاتب الغربي تيودور ورنر في كتابه الذي تُرجم إلى التركية تحت عنوان (الأتراك تحت قبضة الإنجليز) إلى أن الموضوع لم يعد هناك وجود تأثير يهودي قوي على الاتحاد والترقي بل إنهم دخلوا في الحكومة فعلاً [٢].

"وفي سنة ١٩١١م نرى السيد رضا صالح النائب عن مدينة بيروت يلقي الخطاب الآتي في مجلس النواب بمناسبة مناقشة ميزانية ١٩١١م مشيرًا إلى الخطر الصهيوني في فلسطين وكيف أنهم بدأوا يضعون عَلَمهم وطوابع خاصة بهم ويقومون بسك نقود خاصة بهم فيقول:

"لقد بدأ اليهود بوضع عَلَم وطوابع ونقود خاصة بهم مع أن هذا خاص بالدول. ولا أملك حاليًّا في يدي وثيقةً حول العلم والنقود، ولكن السيد شكري [٣] عرض لكم نماذج من طوابعهم. بدأ اليهود يشترون الأراضي في

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والعالم الإسلامي. قيصر أ. فرح، مصدر سابق، ص:٣٢٥.

(٢) لمن يريد أن يتوسع في البحث مراجعة أرشيف رئاسة الوزارة التركية رقم ١٨،٥،٥/ ٦٢٢/ ١٢٨ [عن السلطان عبد الحميد. أورخان. مصدر سابق].

(٣) شكري العسلي، ولد عام ١٨٦٨م ببعض نواحي دمشق وتعلم بها، ثم أتم دراسته بإستنبول. انتخب عضوا بمجلس النواب العثماني ممثلاً لمدينة دمشق. اشتهر بالخطب التي كان يلقيها في المجلس دفاعًا عن العرب، كما تضمنت تحذيرات من خطر الصهيونية في فلسطين. كان من أعضاء حزب اللامركزية الذي كان يعمل من أجل تحرير البلاد العربية. حُكم عليه بالإعدام، ونُفِّذ الحكم في ٧ مايو ١٩١٦م. [عن القاموس السياسي. أحمد عطية الله مختصرًا].

فلسطين ليس بألف قرش بل بخمسين قرشًا. لقد اشتروا أراضٍ كثيرةً وحوَّلوها إلى مجمعات- مستعمرات- واقترب عددهم من مئتي ألف نسمة. وانتقلت القوة الاقتصادية في هذه المنطقة إلى أيديهم" [1].

إن في ذلك لذكرى:

قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

إذاً: لقد كانت هناك مؤامرة خطيرة تستهدف القدس- المسجد الأقصى- وأرض فلسطين التي باركها الله من فوق سبع سموات!

ولقد كان المتآمرون من اليهود والنصارى يمكرون بنا مكر الليل والنهار، ويعملون من أجل أن يكون لليهود وطن قومي في فلسطين.

ولقد كانت محافل القوم الما سونية في: إيطاليا، وفرنسا، وبريطانيا، و سالونيك، أوكارًا للمتآمرين الصغار، كحركة تركيا الفتاة، التي صار اسمها فيما بعد جمعية الاتحاد والترقي، والأقليات في السلطنة العثمانية: كالأرمن، والبلغار، والأرنؤوط، والنصارى العرب، وغيرهم!.

والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح: أين الشريف حسين بن علي وأبناؤه من هذه المؤامرة؟! وما الذي فعلوه لدرء هذا الخطر؟!

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان. مصدر سابق، ص:٢٤٢.

وهل يجوز لأحد أن يزعم بأن الحسين بن علي وأبناءه كانوا يجهلون وجود مثل هذه المؤامرة؟!

يستحيل أن يكون ذلك كذلك، لأن المؤامرة واضحة كل الوضوح: تتحدث عنها الصحف العربية، ويندد بها خطباء المساجد من فوق منابرهم كل صلاة جمعة، ويحذِّر من مخاطرها أرباب الفكر والسياسة في منتدياتهم العامة. وفضلاً عن ذلك كله فالشريف حسين وأبناؤه من كبار القادة العرب، ولا يجهل من كان هذا شأنه مجريات الأمور في العالم العربي.

وإذا جاز لنا جدلاً قبول الزعم بعدم اطلاعهم على الصحف اليومية والأسبوعية أو عدم ارتيادهم المنتديات العامة، فلا يجوز الدفاع بعدم سماعهم ما يثيره النواب العرب في مجلس النواب العثماني عام ١٩١١م حول الخطر الصهيوني في فلسطين لاسيما وأن كلًّا من عبد الله بن الحسين وأخيه فيصل أعضاء في المجلس!

ستأتي عجائب هؤلاء في الموضع المناسب من هذه المذكّرات!!

رسالة السلطان لشيخه

كان السلطان عبد الحميد الثاني من مريدي الشيخ محمود أبي الشامات، والشيخ محمود دمشقي، حنفي، صوفي، وهو شيخ الطريقة الشاذلية [١] اليشـــرطية، وفي منفى السلطان في سالونيك كان من الحراس الذين أقيموا عليه أحد تلاميذ الشيخ أبي الشامات، وعن طريقه تمت المراسلات الســـرية الكتابية بين السلطان المخلوع والشيخ، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التي أرسلها السلطان إلى الشيخ، وفيها البيان الصريح عن سر خلعه كشفه السلطان لشيخه:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأُقبِّل يديه المباركتين راجيًا دعواته الصـــالحة. بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

ســـيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشـــاذلية ليلاً ونهارًا،

---

(١) في هذه الطريقة ما فيها من الطامات، ولا أدري كيف نجمع بين دهاء الســـلطان وحنكته وقبوله بهذه الخرافات؟!

وأعرض أنني ما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة. المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الا تحاد والترقي المعرو فة (جون تورك) و تهد يدهم اضطررت وأُجبرت على ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصرُّوا وأصرُّوا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرًا وعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبًا، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

"إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا، فلن أقبل بتكليفكم هذا بو جه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أُسوِّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضًا".

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سالونيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطِّخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة: فلسطين. وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإني

أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه.

ألثم يديْكم المباركتيْن، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء يا أستاذي العظيم.

لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علمًا، ونحيط جماعتكم بذلك علمًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩هـ خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

هل فكَّر الاتحاديون كيف سيكون الحال بعد خلع السلطان عبد الحميد الذي تهابه الدول العظمى؟

وهل وضعوا خطةً سياسيةً تتعلق بإدارة شؤون السلطنة وكيفية التعامل مع مشكلاتها الداخلية والخارجية؟

يقول شكيب أرسلان الذي كان صديقًا لهم ويحسن الظن بهم:

"كان أكثر زعمائها [جمعية الاتحاد والترقي] شبانًا لم يتمرَّسوا بالأمور، ولم تنجزّهم الحادثات، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر- حتى من أنفسهم- فسكروا بخمرة العز، واستخفُّوا بمن سواهم، وظنوا أنهم قادرون

على كل شيء، والحال أنهم كانوا يواجهون صعابًا، ويقابلون عقابًا [١] لا قِبَل لهم بها، وكانت أمامهم- وهي الطامة الكبرى- دسائس الدول الأوروبية، التي كل واحد منهن تحرِّك أهالي البلاد التي تطمح إليها من أجزاء السلطنة، وكان هذا مرضًا مزمنًا، فلا الأجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه، ولا الأهالي الذين تعوَّدوا رؤية نفوذ هذه الدول في بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم، ولأجل وضع سدٍّ في وجه الأجانب، كان ينبغي أن تكون الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالاً، وأغزر مالاً من جميع الدول العظام، ولم تكن هذه الشروط خاصةً في الدولة العثمانية كما لا يخفى" [٢].

كان يسوس السلطنة العثمانية المترامية الأطراف رجل واحد، وكان من نوادر خلفاء آل عثمان: ذكاءً، ودهاءً، وحنكةً، وحكمةً، وقدرةً على استغلال خلافات الدول العظمى. فصار يسوسها رجال في سن متقاربة، تنقصهم الخبرة، وليس لأحد منهم ميزة تلزم الزملاء بالعودة إليه وتنفيذ تعليماته، كان السلطان عبد الحميد يعرفهم جيدًا، ومن منطلق هذه المعرفة قال:

"لو تمكنوا من إدارة تركيا مدة (١٠) سنين، فليفرحوا بأنهم قاموا بإدارتها عصرًا

---

(١) عقبات.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية. شكيب أرسلان. ص ٣٣١، جمع أصوله وعلق عليه حسن السماحي سويدان.

واحدًا " [١]. قال ذلك وانسحب من السلطة. وصدق حدسه، فلقد جَرُّوا تركيا إلى هزيمة قبل ذلك ثم هربوا من تركيا، فبعض القادة الجدد يهود ومن أبرزهم نائب سالونيك ورئيس أكبر محفل ماسوني فيها عمانويل قراصو، وكان من أعضاء الوفد الذين بلَّغوا السلطان عبد الحميد قرار خلعه. وجاويد بك وزير المالية في حكومة الاتحاديين التي تشكَّلت بعد خلع السلطان عبد الحميد، وهو وطلعت بك يمثلان التجسيد الرسمي للسلطة الخفية للجمعية.

وثقافة أكثر القادة الجدد متواضعة، فطلعت بك كان كاتبًا في دائرة البرق ويقبض ثلاث ليرات تركية في الشهر، وصار بعد الانقلاب: الرئيس العام لحزب الاتحاد والترقي، وناظر الداخلية والرئيس المطلق لإدارة حكومة الإمبراطورية، وكان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ألعوبةً بيده، وكذلك كان وزير الخارجية. يقول صاحب موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية يلماز أوزتونا:

"طلعت قومي متحمس للقومية التركية، ذكي، مكَّار كالثعلب، مخاتل، حركي لا يهاب أحدًا. جاهل من حيث العلم، كل عالمه كان الاتحاد والترقي. كان عديم الرحمة تجاه غير الاتحاديين".

ويقول عن أنور باشا:

"أُعطي الجيش كاملاً لسيطرة المقدم أنور بك المطلقة، فهو مقدم ركن، لم يقم حتى بقيادة كتيبة على رأس جيش إمبراطورية... شيء يصعب تصديقه، لكنه حدث

(١) موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية. يلماز أوزتونا. ص:١٨٩.

فعلاً. رُفعت رتبة أنور بك إلى لواء دون أن يصبح عقيدًا، وصار ناظرًا للحربية [٣/ ١/ ١٩١٤م]. كان في سن (٣٢ سنة و ٥ أشهر)، أنور باشا، مسلم مؤمن ومتدين جدًّا، قومي متحمس للعرق التركي، جَسور، جريء لكنه (مجنون كبير)، لا يستشعر المسؤولية. متبلِّد مغامر. كان عديم الاحترام للمشروطية [الديمقراطية]. أحال إلى التقاعد أكثرية الضباط الذين يفوقونه رتبةً، والذين ضحَّى السلطان عبد الحميد بالكثير في سبيل تدريبهم وإرسالهم إلى أوروبا للتدريب. كان ملحقًا عسكريًّا في برلين لفترة من الزمن... أظهر لقيصر ولهم عطفًا شديدًا وإكرامًا لهذا الرائد [بكباشي] الشاب... كان يرى [أنور] أنه ليس هنالك على وجه الأرض قوة بإمكانها أن تتغلب على الجيش الألماني. آمن بذلك بكل قلبه. وعلى مرِّ الزمن، نقل إحساسه هذا المؤيد للجرمانية إلى طلعت الذي تأثَّر به".

ويقول عن جمال باشا: محبًّا لفرنسا، يختلف عن طلعت وأنور من حيث كونه ميَّالاً للسياسة الخارجية الفرنسية. لو أمكنه التفاهم مع فرنسا وعن طريقها، مع الإنجليز، لكان باستطاعته منع الاشتراك في الحرب العالمية بجانب ألمانيا، ولكن الرياح سارت بغير الاتجاه الذي يريده. أخذت علاقته تسوء مع أنور باشا، لكنها لم تصل إلى حدِّ العراك، ويكبر أنور بعشر سنين" [1].

(١) انظر موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية. يلماز أوزتونا.

وقفـــات

١- الانقلاب العسكري الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي كان الأول من نوعه في عالَمنا الإسلامي [في حدود علمي]. وكان هذا الانقلاب الخطوة الأولى نحو هدم الخلافة الإسلامية الذي فعله كمال أتاتورك عام ١٩٢٤م فيا لها من جريمة نكراء تولَّى كبرها رجال أغرار وعدوا فأخلفوا، وأؤتُمنوا فخانوا، وعاهدوا فغدروا، وخاصموا ففجروا. فاستحقوا بهذه الصفات أن يدخلوا في زمرة المنافقين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان". رواه البخاري ومسلم. وعن عبد الله بن عمرو في الصحيحين أيضًا زيادة: "وإذا خا صم فجر، وإذا عاهد غدر". ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هل نفاقهم أكبر أم أصغر؟!

قال صاحب العلوم والحكم ما خلاصته: "النفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي بريد الكفر، وكما يُخشى على من أصرَّ على المعصية أن يُسلب الإيمان فيصير منافقًا خالصًا".

فعندما تحرَّك الجيش الثالث من سالونيك إلى استنبول قال قادته لجنودهم: نحن ذاهبون للدفاع عن السلطان في حين هم ذاهبون لخلعه، وبعد خلع السلطان وعدوا

الناس بالحرية، فكان حكمهم مثالاً للا ستبداد، وكانوا قد أعطوا البيعة لعبد الحميد الثاني ثم خرجوا عليه بالقوة.

٢- أنور بك [باشا بعد الانقلاب] وكل من كان على شاكلته من العسكريين رفَّعوا أنفسهم من رتبة مقدم إلى رتبة لواء دون أن يتولوا قيادة كتيبة أو خوض معركة، فكيف ذلك وهم يقودون جيشًا من أضخم وأهم جيوش العالم؟! ومن جهة أخرى فالضباط يحتاجون إلى دورات عسكرية وإلى امتحانات مستمرة لمعرفة مدى تحصيلهم وهل يستحقُّون رتبةً أعلى أم لا؟! فإذا كان الترفيع من غير ضوابط، ووسِّد الأمر إلى غير أهله يهبط مستوى الأداء العسكري ويصبح من السهل أن ينهزم الجيش في أول معركة يخوضها.

لقد سنَّ الاتحاديون لنا سنةً سيئةً، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها من بعدهم. الانقلابات العسكرية اليوم- وكما شهدنا- أصبح فيها النقيب لواءً، والرائد مشيرًا ومن رُفض قبوله كطالب في الكلية العسكرية أصبح مهيبًا، ولا أدري هل هناك رتبة مهيب أم اخترعها صاحبنا ممن رُفض قبوله ابتداءً، اعذروني فمعرفتي في الشؤون العسكرية متواضعة.

والأكثر مرارةً أن يصبح معلم المدارس الإبتدائية ضابطًا دون أن يدخل الكلية العسكرية لأنه من حزب أو طائفة أو عصابة قادة الانقلاب، ولهذا فمنذ انقلاب الاتحاديين وحتى يومنا هذا ونحن نتجرَّع كؤوس الهزائم المريرة، ولم تنتصر جيوشنا ولو في معركة واحدة.

٣- إذا كنت تناقش العسكريين في مسألة لها صلة بالشأن العسكري [وربما تكون مصيبًا أحيانًا] انقضوا عليك معاتبين لأنك تتحدث في غير اختصاصك، جميل!! ولكنهم لا يطبقون هذه القاعدة على أنفسهم، فلماذا هذه الانقلابات؟! ولماذا يتخذون من الانقلابات العسكرية وسيلةً للعمل السياسي، وهو ليس من اختصاصهم؟!

فهل رأيتَ نجَّارًا يجعل من الطب مهنةً له، ثم يُجري عملياتٍ جراحيةً دقيقةً؟! وهل رأيتَ حدَّادًا يزاول عمل مهندس مواصلات أو مهندس كيمياء؟!

العسكريون اقتحموا ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة فكانوا كالمُنْبَت [1] الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى. لقد كانت هذه الانقلابات سببًا في هزائم أمتنا في حروبها، وفي تخلفها ودمار اقتصادها.

٤- العسكريون يعيشون في عالم يختلف كل الاختلاف عن العالم المدني، ومن أهم وجوه الاختلاف: القوانين العسكرية الصارمة، كذلك القانون الذي ينصُّ على الطاعة المطلقة "نفِّذ ثم اعترض"، وماذا يفيد الاعتراض إذا كان الأمر في النهاية بيد القائد؟! وعندما يقع انقلاب عسكري، تَزْعُم القيادة بأن العسكريين سيعودون إلى ثكناتهم، ولكنهم اعتادوا على عدم الوفاء بالوعد ثم يصبح قائد الانقلاب رئيسًا للجمهورية، وويل لهذه الجمهورية من حكمه، فقد يحاول الليونة مع الناس ويمنح

(١) حديث ضعيف بهذا اللفظ، لكنه صحيح المعنى.

المواطنين هامشًا من الحرية، ولكن الطبع عند هؤلاء يغلب التطبُّع، فيتنكرون للمرة الثانية لوعودهم، ويسوسون الناس كأنهم في ثكنة عسكرية.

يصعب على هؤلاء العسكريين التخلي عن لغة السلاح، وكل شيء عندهم لابد فيه من القوة، ولو حاول أحدهم جادًّا التخلي عن السلاح لكان من الواجب عليه أن يدخل دورة تأهيل نفسي، كتلك الدورة التي يمرُّ بها السجين الذي عاش في سجن مظلم عشرين عامًا، أو نحو ذلك.

كنا ننعم بالحرية، فنتحدث بما نشاء، وننقد من نشاء من المسؤولين دون حسيب أو رقيب، ونحن في سورية لم نعرف اسم المباحث إلا أيام الوحدة مع مصر أيام عبد الناصر سنة ١٩٥٨م، وكذلك ما كنا نعيش أجواء المخابرات والكبت وكمِّ الأفواه، والأحكام العرفية إلا في ظل الحكومات التي جاءت بها الانقلابات العسكري. لقد أفسدوا الضمائر، وانتشرت ثقافة النفاق، وصار الأخ يخشى من أخيه أن يتجسس عليه، والأب من ابنه، والصديق من أعزِّ أصدقائه، والعرب في جاهليتهم، وبعد بعثة المصطفى ﷺ لا يعرفون هذا النوع من الانحطاط الأخلاقي!!

٥- عرفنا من خلال كم كبير من الوثائق التي لا يرقى إلى صحتها شك، ومن مذكرات الذين صنعوا الأحداث والموثوق من كتب التاريخ أن المنظمات الصهيونية والصليبية والمحافل الماسونية هي التي تآمرت على السلطان عبد الحميد، واستخدمت خليطًا من العثمانيين: منهم المفتون بمدنية الغرب، ومنهم من هو من الأقليات المعادية للإسلام، ومنهم المُغفَّلون الذين لا ينظرون إلى أبعد من أرنبة

أنوفهم، ونجحت هذه المؤامرة في هدم الخلافة العثمانية الإسلامية التي استمرَّت ستة قرون [٦٠٠سنة] .

وبعد هذه المؤامرة، وما تلاها من ويلات ومصائب استمرَّت دون انقطاع من عام ١٩٠٩م وحتى يومنا هذا أقول: هذه الانقلابات العسكرية ليس فيها نفع لأمتنا. لقد سلبتنا الحرية والكرامة، ووسَّعت السجون، ونشرت الجاسوسية وثقافة النفاق، وجعلت من العسكري سياسيًّا ومن مدرس المرحلة الابتدائية ضابطًا يقود معارك الهزيمة، وصار الناس يتساءلون بعد كل انقلاب: من وراءه؟! الفرنسيون أم الأمريكان أم الإنجليز؟ ثم تأتي الوثائق بعد حين لتجيب على أسئلة الناس، وفي الصفحات القادمة من مذكراتي أمثلة على ذلك.

الانحـــدار

قال من شـهد هذه الأحداث، وكان قريباً من الذين صـنعوها: "... ثم إن جميع الأمم التي كانت تتألف منها هذه الســلطنة كانت أهدافها مختلفةً؛ فالأروام وهم جانب كبير في المملكة لا ينسـون ملكهم القديم، وفي كل حركاتهم وسـكناتهم كان هدفهم الوحيد اسـتئناف الاسـتيلاء على القسـطنطينية، وطرد الترك منها إلى آسـيا، والأرمن كان هدفهم استئناف ملكهم القديم في نفس الأنا ضول، والبلغار يريدون ضم مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة، هذا من جهة المسيحيين.

فأما من جهة المســلمين، فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هي الجامعة الدينية، ولولاها لكانت السلطنة تفككت منذ قرون" [١].

كانت سـياسـة السـلطان عبد الحميد الثاني تقوم على تقريب كل من العرب والأرناؤوط، وأنا معني في بحثي هذا بالعرب. فقد كان منهم حراسـه بلباسـهم العربي وعمائمهم، وكان منهم كبار المسؤولين في قصـره وفي مختلف إدارات الدولة، وكـان العرب يشـتكون من اسـتغلال المسـؤولين العرب لوظـائفهم للإيقـاع بخصومهم، ولهذا فقد كان هؤلاء ضغثًا على إبَّاله [٢]، وكان أحرار العرب يترقَّبون

(١) تاريخ الدولة العثمانية، لشكيب أرسلان. جمع أصوله وعلق عليه حسن السماحي سويدان.

(٢) أي: بلية على أخرى، وهو مثل عربي.

إعلان الدستور ليتخلصوا من الظلم الذي لحق بهم، ويترقبون أيضًا ظهور رجال جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا يتعاونون معهم وينتظرون منهم الكثير النافع.

وعندما آل الحكم إلى الاتحاديين، صُدم العرب من أفعالهم:

- لقد أبعدوا العنصر العربي، فبعضهم هرب من مصير مشؤوم. عزت العابد لجأ إلى باخرة بريطانية فحمته، والشيخ أبو الهدى الصيادي سُجن لمدة شهر، وأُفرج عنه بعد انتهاء التحقيق معه، و شفيق الكوراني لزم بيته [1]، وهكذا أصبح اعتمادهم على العنصر التركي دون غيره.

- عزلوا بضعة عشر متصرفًا عربيًّا.

- في مجلس المبعوثان حدَّدوا للعرب أقل من نصف المقاعد المخصصة لهم، ورشَّحوا للنصف الآخر أتراكًا في دوائر عربية لا يعرف أهلها اللغة التركية. فكيف يتفاهمون؟!

- خلت الحكومة التي تشكلت في كانون الأول عام ١٩١٠م من وزير عربي مع إعطاء ثلاثة مقاعد لليهود؟!

- راحت بعض الصحف التركية الصادرة بعد خلع السلطان عبد الحميد تنشر المقالات المعادية للعرب، والتي تتهمهم بشتى الاتهامات الهابطة الكاذبة، وكان

(١) سورية والعهد العثماني. يوسف الحكيم، ص ١٧١.

باعة هذه الصحف ينادون بأعلى أصواتهم: "بيس عرب"، وبيس معناها باللغة التركية قذر. تداعى العرب المقيمون في استنبول إلى اجتماع عام، وكان منهم أدباء وسياسيون وكتَّاب وقرروا مقابلة قادة الانقلاب، وسمعوا منهم وعودًا معسولةً هدأت بعدها الحملة الإعلامية بعض الوقت ثم عادت بشكل أقوى وأوسع حيث صار عدد من المتعصبين للقومية التركية من كتَّاب الصحف المصرية.

- أثار العربَ هذا الظلمُ الذي لحق بهم في مجلس المبعوثان وزجَّت الدول الغربية بنفسها في هذه المعركة دفاعًا عن العرب، وهو حق أرادت به باطلاً، لأنها لا تريد الخير لنا ولا للأتراك. وخاضت الصحف العربية هذه المعركة بمنتهى الشجاعة والوضوح.

- إن أشدَّ ما تُبتلى به الأمم الصراعات القومية والتفاخر بأمجاد الآباء والأجداد، لاسيما ونحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وهو الرابطة الوحيدة التي وحَّدت بين العرب، والترك، والأكراد، والأرناؤوط، والجركس، والشيشان، والكرج. كان السلطان عبد الحميد مدركًا لهذه المسألة وأبعادها، بل كان يقدِّم غير الترك على الترك، وجاء الاتحاديون لينشدوا العزة بغير الإسلام كمدنية الغرب، والقومية العلمانية التركية، فكانوا في ذلك كمن يلهث وراء سراب. فعندما أراد أهل الفكر تحديد أصول الترك. فمنهم من زعم أنهم من الجنس الآري الأبيض، ومنهم من قال: إنهم طورانيون. وراحوا يمجِّدون جنكيزخان، وهلاكو، وتيمورلنك، ويطالب بمسح أسماء الخلفاء الراشدين التي كانت تُكتب على جدران

المساجد. ومنهم من ادَّعى أنهم من ذرية آل طولون الذين حكموا مصر. ومن عقلائهم من أكَّد بحزم أنهم عثمانيون إسلاميون ولا يرضون بديلاً للجامعة الإسلامية، والحق كل الحق مع هؤلاء، لأن العثمانيين مجموعة من القوميات امتزجت ببعضها وجعلت منها قوميةً من نوع خاص، فقد يكون والد العثماني عربيًّا، ووالدته تركيةً أو شيشانيةً أو أرنؤوطيةً، وهذا حصيلة جيل عمره ستة قرون.

هذه الدعوة المريبة كان يرفع لواءها الإنجليز، وهم وراء كل فتنة عصفت بوحدة الأمة الإسلامية، ومن بعد الإنجليز اليهود والنصارى، ثم خريجو المحافل الماسونية الذين ليس لهم أصل، ومثالنا على ذلك الرئيس الفعلي للاتحاديين طلعت باشا وهو بلغاري من أصل غجري أي [نَوَري] وكفاه بهذا الأصل فخرًا!! وقره صو وهو من اليهود الأسبان القاطنين في سالونيك، ووزير المالية جاويد وهو من الطائفة اليهودية المعروفين بالدونمة، واليهودي نسيم روسو، واليهودي أيضًا نسيم مازلياج وهما من العناصر الفعَّالة في حركة تركيا الفتاة. أي علاقة لهؤلاء اليهود وأشباه اليهود بالقومية التركية؟! قال بعض الباحثين: لم يظهر بين قادة وزعماء تركية الفتاة منذ إنشائها عضو واحد من أصل تركي خالص [1].

(١) المصادر: سورية والعهد العثماني. يوسف الحكيم، ص ١٧١. صحوة الرجل المريض. موفق بني المرجة، ص ١٨٨. السلطان عبد الحميد بين الإنصاف والجحود. محمد مصطفى الهلالي، ص ١٧٨. القومية والغزو الفكري. جلال كشك، ص ٢٠١-٢٠٢.

إثارة النعرات القومية وذراري أهل السنة

رضي العرب أن تكون الخلافة بيد الترك طيلة ستة قرون، طالما أنهم يعيشون في ظل دولة واسعة الأرجاء، مرهوبة الجانب، والدين فيها كله لله سبحانه وتعالى.

وجاء انقلاب الاتحاديين (سنة ١٩٠٩م)، وتخبطهم السياسي الذي يفتقد الحنكة والحكمة والخبرة، وكان صراع القوميات بداية هذا التخبط! فأي مصلحة لهم في استعداء القوميات الأخرى؟!

بل وأي مصلحة لهم في تسخير وسائل إعلامهم لشتم العرب الذين اختارهم الله جلَّ وعلا لحمل رسالة الإسلام، وأنزل القرآن الكريم بلغتهم، وكان منهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ؟!

"ولمصلحة من تنشر جريدة (إقدام) في شباط ١٩١٠م مقالاً وهو واحد من عشرات المئات، يتحدث كاتبه وهو ضابط تركي عن اليمنيين فيقول فيه: (إن أهل اليمن يعبدون المال، وإنهم في سبيل المال يضحُّون بكل شيء حتى بأعراض نسائهم!! فقامت قيامة العرب الذين كانوا في استنبول يومذاك من ضباط وطلاب ونوَّاب وغيرهم، وذهبت مظاهرة منهم إلى إدارة الجريدة فقذفوها بالأحجار وأهانوا صاحبها. وحين وصل الخبر إلى الجرائد العربية قامت قيامتها أيضًا، فكتبت إحدى الجرائد الشامية: (خسئت لا أبا لك، وما أصدق المثل العربي عليك: رمتني بدائها وانسلت... وهذه أنساب العرب يتوارثونها كابرًا عن كابر فأين نسبك

ونسب من ينتمي إليك يا صاحب إقدام؟!). وبمثل هذا الأسلوب ردَّت جريدة الرقيب البغدادية على صاحب جريدة إقدام التركية" [١].

وعلى الضفة الأخرى من السلطنة كان العرب ثلاثة أقسام: قسم منهم استمرَّ على ولائه للسلطنة مع الدعوة للإصلاح السلمي، وهؤلاء كانوا قلةً وموضع اتهام من الآخرين، والقسم الثاني يدعو إلى اللامركزية في ظل الخلافة الإسلامية، ويحظى هذا القسم باحترام واسع بين العرب. أما القسم الثالث فينادي بقيام دولة عربية حديثة ويعتقد بأن العثمانيين مستعمِرون كالصليبيين أو كالتتار، بل بدافع من عقيدته التي يدين بها يراهم أشد، ومعظم الذين ينتمون إلى هذا القسم من النصارى المرتبطين بفرنسا وإنجلترا، ثم من الأقليات التي تدين بغير الإسلام أو من القوميات غير العربية، ومما ينبغي التأكيد عليه أن بين هؤلاء عددًا غير قليل من أهل السنة، وهؤلاء أحد صنفين من الناس: إما أنهم مُغفَّلون استدرجتهم شعارات برَّاقة، ولا يدرون أن وراءها شرًّا مستطيرًا، ثم يجدون أنفسهم- في وقت لا ينفع فيه الندم- ضحيةً لكيد أعداء الإسلام، وإما أنهم ليس لهم من السنة إلا الاسم، وفي الحقيقة هم يكيدون للسنة وأهلها، وتستعبدهم مصالحهم وأهواؤهم. فقد كانوا بالأمس قوميين، ثم صاروا بين عشية وضحاها اشتراكيين، وعندما كسدت سوق الاشتراكية أصبحوا رأسماليين.

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود، مؤلفه محمد مصطفى الهلالي، ص:١١٧.

ترفع شعوبنا صوتها منددةً بمصادرة أقلية حاكمة تنتمي إلى طائفة أو حزب لحريات الأكثرية- أي أهل السنة- فيأتي الجواب: ليس صحيحًا ما تزعمون، ولا نسلم معكم أن قيادة الحزب أو الطائفة هي من أبناء الحزب أو الطائفة: فرئيس الجمهورية أو نائبه منكم، ورئيس الوزراء منكم، ووزيرا الخارجية والداخلية منكم، ومعظم قيادة الفرقة التي واجهت العصاة منكم، ومدير السجن الفلاني الذي فعل ما فعل من القتل والتعذيب منكم.

وقولهم هذا صحيح، ولكنهم هم الذين يختارون هؤلاء الإمعات [١] الطغاة من ذراري أهل السنة، فرئيس الوزراء الفعلي هو مدير مكتب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الوزراء، وقرار قائد الفرقة قد يكون بيد نائبه أو بيد ضابط آخر، وفضلاً عن ذلك فهو شديد الخشية من سائقه أو خادمه الذي يراقبه ويكتب عنه، أما أبناء السُّنة الذين يُشرِفون على المعتقلين في سجونهم- رغم قلتهم- فلهم قلوب لا يفقهون بها، بل هم أشد وحشيةً من الوحوش.

ومما لاينقضي منه العجب أن المسؤولين من ذراري السنة يغلقون معظم منافذ حلول مشكلات المراجعين- ولو كانت بسيطةً- فلا يجد هؤلاء الشفقة المفتعلة إلا عند أبناء الطائفة الحاكمة!! ولسان حالهم يقول: نحن أرحم بكم من أبناء طائفتكم! ولو كانوا حقًّا من أبناء ديننا لما فعلوا بنا هذا الذي فعلوه.

---

(١) إمعات أمامهم، طغاة على الآمنين من أبناء هذا الشعب.

أجل! هذه مصيبة أهل السُّنة في نفر من ذراريهم مردوا على الشقاق والفرقة والنفاق. ولقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ أشدَّ خطرًا على جيل الصحابة من اليهود والنصارى.

استطاع القسم الثالث استمالة كثير من أبناء العرب إلى صفهم لأنه يملك إمكانات كبيرة، ويتلقَّى دعمًا غير محدود من إنجلترا وفرنسا.

كانت الأمور في البلدان العربية مهيّأةً لانفجار يدمِّر ما بناه المخلصون من أبناء هذه الأمة خلال ستة قرون، وزاد الطين بلةً الامتيازات الأجنبية التي جعلت الدول الغربية (إنجلترا، فرنسا، روسيا، إيطاليا، النمسا، الولايات المتحدة الأمريكية) شريكةً لتركيا في حكم سورية، وتضاعفت هذه الامتيازات في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية:

"لقد بعث القطب الماروني المعروف في شمال لبنان يوسف بك كرم برسالة إلى البطريرك الماروني بولس مسعد عام ١٨٥٧م ورد نصها في كتاب تاريخ لبنان العام، وفيها يشكو من الصراعات الطائفية وترابطها بالمصالح الدولية، فيقول: لقد أصبحت أمورنا في هذه الأيام تابعةً للإنجليز أو فرنسا، وإذا ضرب أحدهم جاره تصبح المسألة إنجليزية- فرنساوية وربما قامت إنجلترا وفرنسا من أجل فنجان قهوة يهرق على أرض لبنان" [1].

(١) صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية. ص ١٨١.

لقد كان الا تحاديون فيما هم عليه من حمق ورعونة كتلك المرأة الحمقاء التي تغزل غزلها وتفتله محكمًا ثم تحله. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل: ٩٢].

التدخلات الأجنبية

الذين نسجوا مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد هم أنفسهم الذين صدَّروا الشعارات القومية العلمانية بين شعوب السلطنة، وأدخلوا في روع العرب بأن الأتراك مستعمرون غاشمون، وآن لكم أن تتحرَّروا من استعمارهم، وسوف ندعم قيام مملكة عربية عاصمتها مكة المكرَّمة، وتعود للعرب قيادة العالم الإسلامي التي انتزعها التتار الجدد منهم!!

بريطانيا... فرنسا... الصهيونية... الصليبية... يمدُّون أيديهم للعرب ليتحرَّروا من استعمار الترك، ولا يريدون من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا!

هل نصدِّق هذا القول؟! وهل إن صدَّقه العرب المسلمون قبل قرن من الزمن يكونوا معذورين بجهلهم؟!

لا، لا يجوز تصديقه، واحتمال الجهل غير وارد، لأن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، و سنة ر سول الله ﷺ، وأقوال ومواقف أئمة هذا

الدين، ووقائع التاريخ، كل أولئك يؤكدون لنا أنهم أعداء لنا، ويتحالفون مع كل عدو لنا، ويُظهرون لنا خلاف ما يبطنون، وفضلاً عن ذلك فالقادة العرب الذين تعاونوا معهم لا يجهلون ذلك أبدًا.

بدأ العرب ينشطون بعد عام ١٩٠٩م من أجل اللامركزية. واللامركزية اعتبرها بعضهم مرحلةً تسبق الدعوة إلى الاستقلال، وقيام مملكة العرب الموهومة، وفيما يأتي سأعرض أهم محطات الافتراق العربي- التركي، ولن أتقيد بالتسلسل الزمني فحسبي ما حدث في قرننا الماضي:

النشاط الفرنسي [١٩٠٩ – ١٩١٣م]:

الباحث الألماني [مارتين هارتمان] يتحدَّث عن هذه المرحلة في رسائل كان قد بعثها إلى جريدة فرانكفورت، خلال رحلة قام بها إلى سورية بين الثالث عشر من آذار والعشرين من نيسان عام ١٩١٣م، ومما قاله في مقدمة هذه الرسائل: "برأيي أن أكثر فقرات رسائلي أهميةً هي تلك التي أتحدَّث فيها عن نيَّات وخطط الحكومات والشعوب الأجنبية للاصطياد في المياه العكرة، في المقاطعات العربية من تركيا". ويقول في موضع آخر: "شهية الفرنسيين تنظر إلى سورية بأوقح ما يكون وكأنها فرنسا الشرق".

أما أرشيف الخارجية الفرنسية، فقد حفل بالتقارير والدراسات السياسية، بعضها من القناصل في السلطنة العثمانية إلى وزير الخارجية الفرنسية أو رئاسة

الجمهورية الفرنسية، وبعضها الآخر من حركة الإ صلاح في بيروت أو من الطائفة المارونية أو اللجنة التنفيذية للجمعية العمومية المسيحية التي تمثِّل الأرثوذكس، والروم الكاثوليك وغيرها.

ومما جاء في هذه التقارير: التحذير من الجهات التي تنافس فرنسا على مستقبل سورية، فعن رو سيا يقول التقرير: إنها تعمل بتكتم ولا تنسق مع غيرها من الدول الأوروبية. وعن إنجلترا تقول التقارير: لقد جعلوا مصر مركزًا لانطلاقتهم في البلدان العربية، وأقاموا علاقات وثيقة مع عدد كبير من الزعماء العرب، ويعملون على ضمِّ سورية إلى مصر، وتلقى هذه الدعوة قبولاً في أو ساط السوريين. وفي رسائل النصارى للمسؤولين الفرنسيين يقولون:

"إننا إذ نعتبر فرنسا حامية المسيحيين العثمانيين ووطنًا بالتبني لمسيحيي سورية!!" [1]. ثم يطالبون ببسط الحماية الفرنسية على سورية أو الحكم الذاتي.

وقصارى القول: فإن هذه التقارير التي أشرتُ إليها، وتقارير أخرى كثيرةً لم أذكرها تشير إلى أن فرنسا كانت تطمع بحكم سورية، ولا تريد منافسًا لها.

(١) بلاد الشام. د. وجيه كوثراني. معهد الإنماء العربي.

المؤتمر العربي الأول:

كان انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣م، ولقد سُـجِّلت ظروف وسيرة المؤتمر في كتاب خاص نشـره محب الدين الخطيب السكرتير الثاني في اللجنة العليا لحزب الأمة اللامركزية في القاهرة سنة ١٣٣١هـ - ١٩١٣م، أي بعد قليل من انعقاده.

وفكرة المؤتمر انبثقت أوائل عام ١٩١٣م عند خمسـة شـبان كانوا طلابًا في مدارس باريس العالية وهم: عبد الغني العريسـي ومحمد المحمصاني وتوفيق ثابت من بيروت، وعوني عبد الهادي من نابلس، وجميل مردم من دمشـق، وهؤلاء من أركان جمعية العربية الفتاة السرية.

ولقد اتصـل الشـبان الخمسـة بآخرين من شـباب العرب في باريس وفاتحوهم بفكرة المؤتمر، ومن ثم تمَّ الاتفاق على تأليف لجنة تحضـيرية مهمتها الاتصـال بالشـخصـيات والهيئات العربية في مختلف الأقطار وتهيئة أسباب عقد المؤتمر وزمنه وجدول أعماله. وكانت اللجنة مؤلفةً من: شـكري غانم وعبد الغني العريسـي وندرة مطران وجميل مردم وعوني عبد الهادي، وشـارل دبَّاس ومحمد المحمصـاني وجميل معلوف. وقد قررت اللجنة أن ترتبط بحزب اللامركزية في مصـر بصـفة رسـمية. ووافق الحزب على طلب اللجنة التحضـيرية واسـتعداده لإرسـال مندوبين لحضور المؤتمر.

وعُقد المؤتمر في ٨ حزيران ١٩١٣م في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع جيرمن في باريس، وترأسه الشيخ عبد المجيد الزهراوي أحد أعضاء وفد حزب اللامركزية من مصر إلى المؤتمر. وقد لوحظ أن عضوية المشاركين بالمؤتمر تمَّ ترتيبها بحيث تحقق المناصفة تمامًا بين المسلمين والنصارى، ويبدو ذلك واضحًا من خلال استعراض أسماء المشتركين فيه، رغم أن الدعوة له كانت عامَّةً كما تجلَّت المناصفة في اللجنة التحضيرية.

ولا بد لنا في هذا الصدد من طرح السؤال التالي: من المُغفَّل الذي يقتله طموحه ولا ينظر إلى أبعد من أرنبة أنفه، ومن المتآمر الذي فكَّر وقدَّر وعرف كيف يستدرج هذه الجموع إلى طريق لا يخدم إلا أعداء أمتنا؟!

لنتوقف قليلاً عند دور أبرز أعضاء هذا المؤتمر. قالت الدكتورة خيرية قاسمية في كتابها (عوني عبد الهادي أوراق خاصة): "إن شكري غانم كان فرنسيًّا أكثر منه عربيًّا، فقد غادر لبنان إلى الجزائر وهو في السابعة، وعاش حتى بلغ سنَّ، الشباب وتزوج هناك من فرنسية، ثم غادرا معًا إلى باريس حيث قضى حياته. وفي باريس كلفته الخارجية الفرنسية بإصدار جريدة عربية [المستقبل العربي] بإشراف [فلاندك] أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي مع زميله جورج سمنة. ويذكر عوني عبد الهادي أنه اختلف معه لرفضه نشر مقال يضرُّ بالمصلحة العربية وإصراره على نشره".

"كما يذكر عوني عبد الهادي أن الخارجية الفرنسية عر ضت عليه ا ستخدامه مع زميليْه جميل مردم والشـيخ جوزيف الخازن في بثِّ الدعاية لها في البلاد التي تعيش فيها جاليات سـورية، فقبلا ورفض، وتمَّ إرسـال جميل مردم إلى أميركا وحيدًا بعد اعتذار جوزيف الخازن في آخر لحظة، وكانوا جميعًا أعضـاء في جمعية العربية الفتاة التي أنشـأوها بباريس عام ١٩١١م وقامت فيما بعد بترتيب عقد مؤتمر باريس عام ١٩١٣م.

لا أعتقد أن حزب اللامركزية يجهل سيرة شكري غانم، ولا يجهل أيضًا الدور الهدَّام للجمعية اللبنانية التي كان جميع المنتمين إليها من النصـارى والذين توزَّعوا فيما بعد لتأسـيس وقيادة معظم الأحزاب والجمعيات العربية، وكان لهم دور في حزب اللامركزية".

"ومن المفارقات البارزة أن الأعضاء الذين شاركوا في هذا المؤتمر ممن لم تطالهم إعدامات جمال باشا فيما بعد قد حظوا بأرفع المناصب خلال عهد الانتداب الفرنسي في سـورية ولبنان والانتداب البريطاني في فلسـطين والأردن والعراق، رغم كثرة الرجال الذين يحملون لواء الوطنية والقومية خلال تلك الحقبة" [١].

(١) صحوة الرجل المريض. ص ٣٠٩ مصدر سابق مع تصـرف يسير، وبلاد الشام. وجيه كوثراني. مصدر سابق. ص ٢٨١.

المكاتبـات الســـرية

بين الشريف حسين والسير هنري ماكماهون

كرَّس مؤتمر باريس ١٩١٣م أطماع فرنسـا في كل من سـورية ولبنان، وهي على نطاق المشـــرق العربي لا تطمع بأكثر من هذيْن البلدين خلافًا لبريطانيا التي تتميَّز بنشاط واسع ومكر نادر، وخبرة طويلة وعريقة فضلاً عن روابط قوية تربطها بكثير من القيادات العربية الفعَّالة في الساحة العربية، ومن أبرز هذه القيادات الشـــريف حسين بن علي وأبناؤه.

كانت بداية تحالف الشـــــريف حسـين مع بريطانيا اجتماعات سرية وخطيرة عقدها عبد الله بن الحسين (مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية فيما بعد) مع كتشنر المندوب السـامي البريطاني، وهذه الاجتماعات مهَّدت للمكاتبات المشـهورة بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون (وكان قد أصبح مندوبًا ساميًا في مصـــر بدلاً من كتشـنر الذي أصـبح وزيرًا للحربية)، ومما لفت نظري رسـالة مكماهون الجوابية الأولى التي يقول فيها:

"من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين؛

مصر في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣هـ الموافق ٣ أغسطس ١٩١٥م

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد بن السيد، والشريف ابن مكة، السيد الجليل المبجَّل دولة الشريف حسين باشا، سيد الجميع أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين، ومحطِّ الرجال المؤمنين الطائعين عمَّت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة، والتسليمات القلبية الخالصة من كل مثابة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والاحساسات نحو إنجلترا، وقد يسرُّنا علاوةً على ذلك أن نعلم سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة، وهي أن مصالح العرب هي مصالح إنجلترا ومصالح إنجلترا هي هي مصالح العرب..."، إلى آخر الرسالة.

أرأيتم الدجل في أحطِّ صوره، والكذب في أسوأ وأوسع معانيه؟

وهل صدَّق الشريف قول مكماهون : "أن مصالح العرب هي مصالح إنجلترا ومصالح إنجلترا هي هي مصالح العرب"؟ إنه كلام ممجوج لا يصدِّقه حتى السذج من الناس!

إنجلترا كانت تقدِّم هذا الخطاب للشريف حسين بيد، وتخفي في يدها الأخرى "سايكس بيكو" و"بلفور"، ولا تخجل أو تعتذر عندما تنكشف هذه الأكاذيب، لأنها لا ترى إلا مصالحها، وغيرها لا تعترف بمصالحه.

هذا الحسيب النسيب... فرع الشجرة المحمدية... سيد الجميع... قبلة العالمين... الذي عمَّت بركته الناس أجمعين، [مالمكماهون والبركات فهل يؤمن بها هذا العلج؟!]، لم تجد بريطانيا بأسًا من أسره دون أن يهتزَّ رمش عينها، وكان قد تقدَّمت سنُّه، ثم نفته إلى جزيرة قبرص، بعد أن وعدته بالأمس أن يكون خليفةً للعرب وللمسلمين.

في جزيرة قبرص اضطرَّ الحسين بسبب عوزه أن يقابل سفير بريطانيا ويطلب منه قرضًا إلى أن يأتي راتبه من ابنه فيصل ملك العراق، فما كان من هذا السفير إلا أن طلب منه رهنًا، وما كان الحسين يملك إلا خنجرًا عزيزًا عليه فقدَّمه للسفير الذي كان بالأمس أحد الموظفين الصغار الذين يتعاملون معه كملك للعرب قاطبةً!!

قرأتُ في [كتاب سائح في الشرق العربي] للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، وأنا أذكر هنا موجز ما قاله: نقل الشيخ الندوي عن شاهد عيان أنه قال له: كنتُ في زيارة للشريف حسين في عمَّان [١]، وكان مريضًا ينتظر أجله، ورأيتُه ينادي ابنه عبد الله، وعندما مثُل بين يديه قال أجلسني وكان مستلقيًا على فراشه،

(١) سمح الإنجليز للحسين أن ينتقل من قبرص إلى عمان بعد أن اشتدَّ عليه المرض ليقوم ابنه عبد الله على خدمته.

فأجلســه، وعندما جلس نظر إلى ابنه ثم قال له: "يا عبد الله لا تثق بالإنجليز". وكانت هذه الوصية ثمرة تجربته مع الإنجليز!!

فكيف وثق الحســين بالإنجليز ابتداءً، وكيف صــدَّق وعودهم له وهو رجل متديِّن يقرأ كتاب الله، ولا بأس في اطلاعه على كتب السُّـنة والتاريخ، فهل الطموح هو الذي دفعه إلى ذلك؟!

هذه هي بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، قبل قرن مضى، وهي هي قبل هذا القرن وبعده، إنهم قوم لا عهد ولا ذمة لهم، وليس لهم صديق، وقد يبطشون بأعز أصدقائهم لأن دوره قد انتهى ومصلحتهم أصبحت مع خصمه. ومن لم يعتبر بقصة الشريف حسين معهم لا تنفعه العبر.

مشانق جمال باشا

علم جمال باشا بأن في قنصلية فرنسا ببيروت أوراقًا مدفونة في حائط الغرفة، وعند التفتيش عثروا على هذه الأوراق التي تحتوي على مخابرات القنصل والسفارة ووزارة الخارجية الفرنسية. ثم أمر جمال بالقبض على كل من وجدوا له مراسلات في القنصلية، واقتيدوا للمحاكمة في الديوان العرفي بعالية.

كان بين هذه الأوراق كتاب رفعه ممثلوا الطوائف المسيحية إلى القنصل الفرنسي العام يطالبون فيه احتلال فرنسا لسورية، واستقلال ولاية بيروت تحت حماية ووصاية فرنسا.

علَّق جمال باشا على أعواد المشانق أحد عشر شابًّا في (٢٠ / ٨/ ١٩١٥)، وكانت هذه هي الدفعة الأولى، وفي (٦/ ٥ / ١٩١٦ م) علق على أعواد المشانق ثلاثةً وعشرين من قادة سورية وكانت هذه هي الدفعة الثانية، وجرى توزيعها على عدة مدن، فتم في ساحة المرجة بدمشق إعدام : شفيق المؤيد، عمر الجزائري، عبد الحميد الزهراوي، شكري العسلي، عبدالوهاب الإنجليزي، رشدي الشمعة، ورفيق رزق سلوم.

وفي ساحة البرج ببيروت نفذ حكم الإعدام بـــ : عمر حمد، محمد حسين الشنطي، عبدالغني العريس، عارف الشهابي، توفيق البساط، أحمد طبارة، سيف الدين الخطيب، سعيد عقل، بتروباول، جرجي حداد، سليم الجزائري، أمين لطفي الحافظ، وجلال البخاري.

وفي ساحة باب العمود بالقدس تم إعدام: أحمد عارف الحسيني، مصطفى أحمد الحسيني، وعلي الحاج عمر النشاشيبي.

كما صدرت أحكام بالإعدام غيابيًّا على عدد آخر من رجالات العرب. وهذا غير الاعتقالات وما يرافقها من تعذيب وحشي شملت عددًا من رجالات العرب. يقول فارس الخوري: "سكبت كثيرًا من العبرات الحرَّى على ما قاساه ذلك الشيخ الجليل والقائد الشجاع شكري باشا الأيوبي من أنواع العذاب والتنكيل على أيدي أولئك الزعانف المارقين من كل شرف ودين، فإنهم لم يتركوا نوعًا من أنواع التعذيب الجسدي إلا أوقعوه به ليعترف لهم بجرائم ملفقة وأفعال مختلفة أسندها إليه وإلى غيره ذاك الخبيث عبدالغني، وهو يقابلهم بدعاء الله عليهم لينتقم له منهم على هذا الجور والغدر. من جملة فظائعهم به أنهم وضعوا أرطالاً من الأغلال الحديدية في رجليه وعلى منكبيه وأكرهوه على التجول ساعات كثيرة تحت هذه الأثقال الباهظة في ساحة الخان والزبانية وراءه يسوقونه بالعصي على مشهد من الجنود والسجناء وهو يرتدي بزة أمير اللواء العسكري! ويقول لهم بأعلى صوته: ليس العار علي بل عليكم أيها الأنذال الجبناء وعلى الذين أمروكم بهذه الأفعال الشائنة. وجاؤوا بابنه الضابط خالد بك الأيوبي وهو شاب جذَّاب المحيا والهندام، وجلدوه أكثر من ست مئة جلدة، وأوقفوه على ساقيه ١٥٦ ساعة ليدلهم على المكان الذي أخفى فيه والده الراية العربية، وهو يصيح ويقسم لهم أنه لا يعرف شيئًا عن هذه الراية ولا عن مكان وجودها.

وفي أثناء هذا التحقيق استدعى جمال باشا، شكري باشا الأيوبي وقال له: إني أعفو عنك إذا أخبرتني بأسرار هذه الجمعية والخطط التي هيأتها. فقال له شكري باشا: "المجرم لا يعفو عن البريء، والبريء لا يقبل عفو المجرم، فافعل ما تشاء، وسيأتيك يوم تندم فيه على هذه الجرائم التي ترتكبها. فانتهره وأعاده إلى محبسه" (١).

بمثل هذه الصور من التعذيب الذي لا يُحتمل كانت تُنتزع الاعترافات من المتهمين، وقد يعترف المتهم بشيء لم يفعله ليتوقف التعذيب، وبعد هذا التحقيق الشاق وما يصاحبه من جرائم هل يلتزم جمال با شا بقرارات المحكمة؟! يجيبنا على هذا السؤال علي فؤاد أردن رئيس أركان الجيش الرابع فيقول: "في شهر نيسان ١٩١٦م جاء إلى مقر أركان الجيش في أوتيل فيكتوريا بدمشق المقدم شكري بك رئيس ديوان الحرب بعالية، وقال: إن محاكمة المتهمين انتهت. وهيئة الديوان كونت فكرةً صريحةً عن حقيقة القضايا. إنها مقتنعة بأن عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالإعدام لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة على أكثر تقدير. ومع ذلك رأت الهيئة أن تعرض الأمر على قائد الجيش قبل أن تكتب قرارها النهائي في هذا الشان... وأنا جئت للعرض والا ستئذان. وقدم القائمة التي كان يحملها. ولكن جمال با شا تناول الورقة منه دون أن يقرأ ما هو مكتوب فيها. أخذ يكتب تحت كل اسم الحكم الذي

(١) أوراق فارس الخوري، الكتاب الأول، ص ٢١٥. كان سجيناً في خان الباشا الكبير بدمشق، وممن كان معه في هذا السجن : شكري القوتلي، الدكتور أحمد قدري، شكري الأيوبي، زكي العظمة، ميخائيل القصير، عبد الحميد القلطقجي.

يريده هو: إعدام، إعدام، إعدام، ولكن رئيس ديوان الحرب رأى أن يعمل بتوصية علي فؤاد، فقال: يا باشا أرجوك فكر في التاريخ. ولكن جمال باشا صاح في وجهه قائلاً: التاريخ؟ فليتحطم على رأسك. وبعد ذلك عاد شكري بك إلى عالية، و صدرت أحكام الإعدام على عشرين شخصًا، من ديوان الحرب، وفقًا لأوامر جمال باشا" [١].

الطاغوت يمتثل دائمًا بقول فرعون، كما قال تعالى: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾. فهو لا يحكم إلا بأهوائه، ولا يحترم حتى القوانين التي أشرف على و ضعها، وأقسم على الإلتزام بكل ما ورد فيها.جمال با شا يحاكم العرب في شيء كان هو قد فعل أشد منه، فهو يحاكمهم لارتباطات بينهم وبين فرنسا، وكان السلطان عبد الحميد حاكمه ومن كان يعمل معه من الاتحاديين ثلاث مرات لارتباطهم بالماسون وبفرنسا وإنجلترا، وكانت محاكمةً عادلةً ثم عفا عنهم، وهذا من أكبر أخطاء السلطان عبد الحميد. وجمال باشا من كبار الحمقى. لقد كان من الواجب عليه التودد إلى العرب، وتنفيذ بعض، أو كل، المطالب الإصلاحية التي كانوا يطالبون بها، بدلاً من استفزازهم وأخذ البريء بجريمة المذنب لا سيما وأن السلطنة العثمانية كانت على أبواب حرب كونية. ولقد كان

(١) كتاب علي فؤاد أردن فهو بعنوان : خطرات سورية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد نشر سنة ١٩٥٤، عن كتاب [مذكرات جمال باشا السفاح، ص ٢٨٧] تحقيق: د. عبدالمجيد محمود خالد، الدار العربية للموسوعات.

شكري باشا الأيوبي منصفًا وشجاعًا عندما قال لجمال باشا الذي وعده بالعفو عنه إن قال الحقيقة:

المجرم لا يعفو عن البريء، والبريء لا يقبل عفو المجرم!! فافعل ما تشاء وسيأتيك يوم تندم فيه على هذه الجرائم. ويشاء الله أن يشرب جمال باشا من الكأس الذي أسقى غيره منه عندما هُزم في الحرب شر هزيمة، ثم اغتاله الأرمن، ولكل ظالم نهاية.

ثورة الحســين

ثورة الحسين [١]

وصل فيصل مكة المكرمة في الوقت الذي انتهت فيه المفاوضات بين الإنجليز والشريف حسين بشأن تنصيب الشريف ملكًا على العرب مقابل إثارة العالم العربي ضد الحكومة العثمانية. وفي ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦م أطلق الحسين رصاصة الثورة على ثكنات الجيش العثماني بمكة المكرمة، وأذاع بيانًا أعلن فيه انفصاله عن الدولة العثمانية، ونادى بنفسه ملكًا على العرب، وزعم أنه يجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الإسلامي الشريف! الذي يعمل الأتراك على تحريفه، وقامت الطائرات الإنجليزية بإلقاء هذا البيان على المدنيين والعسكريين العرب.

بعد صدور هذا البيان أرسلت إنجلترا رسلها لإيقاد نار الثورة في بلاد العرب، وأردفتهم بالأموال والذخائر. وتألف جيش الشريف من ثلاثة أقسام:

١- قسم يقوده فيصل بن الحسين وهو مكون من قبائل المدينة المنورة، مثل: بني جهينة، وعتيبة، وعجيل، وبليس.

٢- وقسم يقوده علي بن الحسين، وهو مكون من جيش نظامي من عرب

---

(١) الحسين بن علي [١٨٥٤ – ١٩٣١] من أشراف مكة. كان عضوًا بمجلس شورى الدولة. في عام ١٩٠٨ عين أميرًا بمكة. أجرى إتصالات عن طريق ابنه عبدالله مع مكماهون، والتزمت بريطانيا بتتويج الحسين ملكًا على العرب. أعلن الثورة على العثمانيين سنة ١٩١٦ وكذبت بريطانيا بجميع وعوداتها له.

الشام الذين انفصلوا عن الجيش التركي وأيضًا من عرب البادية ومقره رابغ.

٣- وقسم يقوده عبدالله بن الحسين، ومكون من البدو وفيهم بعض العرب الذين كانوا في الطائف، وكان مقرهم في ضواحي الطائف.

وكان بدو الحجاز هم العنصر الأساسي والغالب في هذه الجيوش، أما الضباط فهم إما عراقيون، وهم الأكثرية، أو سوريون وفلسطينيون.

ولكن الجيش الفعال، هو الذي يقوده فيصل، وقد وثق به الإنجليز، واعتمدوا عليه دون سواه حتى احتلال دمشق. ومن أشهر الضباط الإنجليز الذين شاركوا في قيادة جيش فيصل الكولونيل لورانس، وكان من أحطِّ هؤلاء الضباط وأكذبهم.

تكاتب فيصل ولورانس مع شيوخ قبائل البدو في الشام، واستدعاهم للمعاونة، فلبَّاهما الشيخ نوري بن شعلان شيخ قبيلة الرولة، والشيخ عودة بن تايه شيخ قبيلة الحويطات. ودفع الكولونيل لورانس لكل من هذين الشيخيْن ستة آلاف جنيه إنجليزي ذهبي كسلفة ابتدائية، ثم أبلغها إلى الخمسة وعشرين ألف دينار، مما لم يكونا يحلمان بخمسة أو بعشرة من قبل واضطرهما أن يلازماه كظله ولا يأتمران إلا بأمره... وصار كثير من القبائل[1] في أيدي لورانس يديرها كيف يشاء، وأخذ الأصفر الرنان الذي يصحبه لورانس يبهر عقول ضعفاء القلوب من الناس، وخصوصًا رجال البدو الذين لم يألفوه ويعرفوه من قبل، فراحوا يلتفون حول

(١) أعني قبائل البدو الرحل.

لورانس، وأخذ لورانس ينقد كل جندي يتطوع في جيش فيصل جنيهين إنجليزين ذهبًا في كل شهر، وكان هؤلاء يترددون على أهلهم في مضاربهم، ويقبضون العطايا التي يقدمها لهم جمال باشا، ثم يعودون ويأخذون رواتبهم من الإنجليز.

احتلت قوات فيصل ينبع والوجه، ثم توجَّهت نحو الشمال، فحاصرت العقبة من جهة البر، والأسطول البريطاني من جهة البحر، واستمر القتال حتى سقطت العقبة واحتلها فيصل وقواته، وبعد العقبة واصل فيصل السير إلى أن بلغ معان، ولم يلق بين العقبة ومعان مقاومةً تستحق الذكر، وقد التحقت بقوات فيصل سرية من المدفعية الفرنسية، وكانت الطائرات الإنجليزية تواكبه وتكشف له مواقع الأتراك وتقذف عليهم قنابلها. هذا وقد استمر فيصل وقواته في التقدم حتى سقوط دمشق بأيديهم، ودخلها فيصل في يوم الخميس ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦هـ الموافق ٣ تشرين الأول ١٩١٨م.

وقفـــات

الأولى : لقد كانت هذه الحرب صليبيةً استعماريةً بامتياز، فمن المشهور أن قائد القوات الإنجليزية الجنرال اللنبي عندما احتل القدس يوم ٩ كانون الأول ١٩١٧م كتب إلى رئيس الوزراة البريطانية لويد جورج: "إن الحرب الصليبية تنتهي اليوم باسترداد الجنود الإنجليز للمدينة المقدسة".

ومن المشهور أيضًا أن الجنرال غورو عندما احتلت قواته دمشق عام ١٩٢٠م ذهب إلى قبر صلاح الدين الأيوبي قبل أن يأخذ قسطًا من الراحة، ووقف أمام القبر وقال: "ها قد عدنا يا صلاح الدين". ولسان حاله أو مقاله يردد: نحن أحفاد غود فراي، فأين أحفادك يا صلاح الدين!

ومما لا شك فيه أن انفصال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية كان خطوةً متقدمةً نحو هدم الخلافة الإسلامية، وهو هدف إستراتيجي طالما عملت من أجله الدول الغربية الصليبية، وفيما مضى من هذا البحث ذكرنا ما فيه الكفاية من الأدلة، وكان الرابح الأكبر في ذلك كله الصهيونية العالمية التي لولا ذلك كله لما قامت لهم دولة في فلسطيننا.

الثانية: تركت هذه الحرب أحقادًا بين أبناء الملة الواحدة، وليقرأ من شاء الفظائع التي ارتكبها بدو لورنس ضد الأتراك المسلمين، من قتل، وأسر، وإذلال، والفظائع التي ارتكبها الألمان والأتراك ضد العرب. لقد حفظت كتب التاريخ صورًا يندى لها جبين كل عربي مسلم حر.

لقد خرَّبت قوات فيصل ولورنس قسمًا غير قليل من السكة الحديدية الحجازية وخصوصًا من درعا وعمان، ودرعا والمزيريب، ودرعا وخربة غزالة، وهدَّمت خمسة وعشرين جسرًا!! فما هو ذنب السكة الحديدية الحجازية؟! لقد كان عملاً يفتخر به المسلمون، وربطت بين عاصمة الخلافة والمدينة المنورة. وإذا كان تخريب السكة الحديدية عملاً مقصودًا يريده لورنس وقيادته، فكيف سكت عن هذا فيصل، وهو الذي يعرف كيف جمع المسلمون الأموال، ويعرف كذلك أهميتها؟! الجدير بالذكر أن الدول العربية التي تمر بها السكة تعمل أو تقول: إنها تعمل من أجل إعادة هذا المشروع العظيم، ومضى على ذلك عقود دون أي إنجاز، فهل يريد الذين خرَّبوها أن تبقى كذلك؟!

الثالثة : ربط الحسين بن علي وأبناؤه مصيرهم بالإنجليز، وكانوا يعتقدون أن الإنجليز قوة لا تقهر، ولهذا كانوا أوفياء لهم، صبورين على هجرهم لهم، غير وارد عندهم الخروج عليهم كما خرجوا على الأتراك، فعندما قال الحسين بن علي: إن الإنجليز نكثوا وعودهم له، رد عليه عضو مجلس الشيوخ الإنجليزي (الذي كان خلال الحرب ضابطًا يدعى الميجر سومرست) اللورد رجلان في صحف لندن بتاريخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩٢٣م: "يقول الملك حسين إن العرب في العراق وفلسطين وسورية لبَّوا دعوته! فهذا القول عار عن الصحة! لقد انضم إلى الحلفاء قليلون من سكان هذه البلاد وتناولوا أجورًا وافية! إن دعوى الملك حسين بأنه يتكلم باسم العنصر العربي كله لا أساس لها، فقد كان قبل الحرب شريفًا لمكة

كموظف تركي براتب معين انتقته الحكومة التركية من بين مرشحين كثيرين لهذا المنصب. إن العائلات الشريفة كثيرة، فمن الخطأ حصر هذا التعريف. نعم إن عائلة الملك حسين اكتسبت بعض النفوذ من اتصالها الدائم بمكة، ولكنها لا تُعد أنبل وأشرف من عائلات متعددة أخرى تمتُّ بأنسابها إلى النبي العربي. إن الرأي العام عند الحضر من العرب في شأن العائلة الملكية المزعومة قد أفصح عنه أيما إفصاح فلاح من شرق الأردن بعد الهدنة بقوله: لا شك أنهم لن يجعلوا فيصلاً ملكًا علينا، إذ يكفينا ما نذوق من بلاء دون أن يكون علينا ملك بدوي. ومهما كان من أمر وعودنا إلى العرب فلا شك أن الملك حسينًا وأولاده قد كوفئوا خير مكافأة".

أنصح القارئ الكريم أن يعود إلى قراءة أول رسالة كتبها المسؤول الإنجليزي مكماهون إلى الحسين بن علي، ثم ليعد إلى قراءة ما كتبه اللورد رجلان في صحف لندن مرة ثانية!! فمن هذه وتلك يعرف خلق الإنجليز وقدرتهم الفائقة على الخداع والمراوغة والكذب والتضليل. أنظر- يا رعاك الله- كيف صوَّر اللورد رجلان الحسين وجيشه بمجموعة من العرب المرتزقة!! وقد دفع الإنجليز الأجرة المناسبة، فلا يطالبون أكثر من هذا، ولم يكن الأمر كذلك، فلولا هذا الجيش لما انتصر الحلفاء.

ولما كان العناد طبعًا من طبائع الحسين، فقد رفض سياسة الأمر بالواقع، وراح يلح على الإنجليزبتنفيذ ما وعدوه به، ولما عجزوا عن إسكات هذا الصوت نفوه

إلى قبرص ولم يراعوا شيخوخته.

أما فيصل فقد بدأ مسيرته مع الإنجليز بصحبة الكولونيل لورنس، وكما قلت فيما مضى فلورنس من أحطِّ وأكذب الضباط الإنجليز. وانتهت حياته (أعني فيصلاً) في العراق مع المسز بيل سكرتيرة السفارة الإنجليزية التي كان العراقيون يسمونها أم ناجي، وكان الفيصل يعتقد بأن لهذه المرأة دورًا في اختياره ملكًا على العراق، ولم ينس لها هذا الفضل، وتحدثت بيل عن ثقة فيصل بها، وقدرتها على حل أصعب المشكلات بينه وبين الإنجليز، وكيف كان يحتضنها أحيانًا. كل ذلك وغيره من تاريخ العراق كانت تكتبه في رسائل تبعثها لأهلها، ثم جُمعت فيما بعد بأكثر من كتاب وتُرجمت للعربية.

وقصارى القول: فإن فيصلاً كان يثق بالإنجليز، ويعتقد أن حلَّ معظم مشكلات العالم بأيديهم. وهو الاعتقاد الذي يراه بعض حكام العالم الإسلامي اليوم. يقول الشيخ رشيد رضا: "ولقد عاشرته- أي فيصلاً- زهاء نصف سنة كنت ألقاه في أكثر أيامها، ولم أقف له على عقيدة راسخة في السياسة، إلا استحالة إخراج فرنسا وإنجلترا من البلاد العربية، ووجوب العمل مع إحداهما، وخدمة البلاد بمساعدتها في ظل وصايتها" [1].

---

(١) مصادري في الحديث عن ثورة الحسين بن علي: كتاب مرآة الشام، عبدالعزيز العظمة بالدرجة الأولى، ثم كتاب الرجل المريض، مصدر سابق، وكتاب الثورة العربية الكبرى، قدري قلعجي.

ولم يكن أخوة عبدالله في الأردن أحسن حالاً منه.

معاهدة سايكس بيكو

جورج بيكو هو المندوب السامي الفرنسي لمتابعة شؤون الشرق الأدنى. ومارك سايكس هو نائب في مجلس العموم البريطاني، والمندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى بمصر.

وسايكس بيكو: معاهدة سرية بين بريطانيا وفرنسا بشأن تقسيم الولايات العثمانية في الشرق الأوسط بينهما، ينسب اسمهما إلى كل من ممثلي الدولتين، وهما مارك سايكس البريطاني، وجورج بيكو الفرنسي، تم التوقيع عليها خلال شهر مارس ١٩١٦م وبقي أمرها سرًّا حتى عام ١٩١٧م حين وقعت صورة من نصوصها في أيدي القوات الألمانية بعد قيام الثورة الروسية وإذاعة الشيوعيين للوثائق والمعاهدات السرية التي وُجدت في محفوظات وزارة الخارجية الروسية إبان الحكم القيصري باعتبار روسيا حليفة لكل من بريطانيا وفرنسا حينذاك.

سارع الألمان إلى تسليم صورة من هذه الوثيقة إلى الحكومة العثمانية لإظهار خداع بريطانيا التي كانت تتبادل حينذاك المكاتبات الودية مع شريف مكة وتقطع العهود بمنح الدول العربية استقلالها بعد هزيمة الأتراك في الشام، ونفى البريطانيون الاتهام خشية أن يقوم العرب بعقد صلح منفرد مع تركيا، وأوفدوا هوجارت من مكتب المخابرات البريطاني في القاهرة مبعوثًا خاصًّا إلى الحجاز لتهدئة روع العرب، ولكن ما إن استسلم آخر جندي تركي في الشام حتى بدأت الحكومتان في تنفيذ الاتفاقية، وكان من نتائجها طرد فيصل قسرًا من سورية

ليتمكَّن الفرنسيون من احتلالها باسم الانتداب.

علم العرب بأمر اتفاقية سايكس بيكو بعد أن علم بها الألمان، وجرت مفاوضات سرية بين العرب والاتحاديين الأتراك، وعلم رجال المخابرات البريطانية بأمر هذه الاتصالات فرموْا بثقلهم واستخدموا كل وسائلهم الخبيثة، فتراجع فيصل عن توقيع اتفاقية مع الأتراك فيها كل الخير للطرفين، ولو وُقِّعت لتغير اتجاه تاريخ المنطقة [1].

(١) القاموس السياسي، أحمد عطية الله، صحوة الرجل المريض ص ٢٨٧.

وعد بلفور

كانت الصهيونية العالمية حليفةً الإنجليز في خلع السلطان عبدالحميد، وفي تبني انقلاب الاتحاد والترقي وفي الحرب العالمية الأولى، وكل منهما يعرف قصد الآخر وملتزم به، والصهيونية التي حملت الولايات المتحدة في ١٢ نيسان ١٩١٧م إلى دخول الحرب إلى جانب بريطانيا، ووفاء بوعودها فقد أصدر اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية كتاباً إلى البارون روتشيلد الزعيم الصهيوني وفيه تعِد الحكومة البريطانية اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين دون استشارة الحسين بن علي وأولاده ودون أخذ رأيهم مع أن هذا الوعد يختص بأرض عربية كانت بريطانيا وعدت الحسين بأنه سيكون ملكاً عليها،وهذا نص الكتاب المذكور كما نشرته جريدة المقطم المصرية في ٩ نوفمبر ١٩١٧م أي بعد صدوره بستة أيام:

عزيزي :

"يسرُّني أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى المشروع الذي يُراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود وتبذل خير مساعيها لإدراك هذا الغرض، وليكن معلوماً أنه لا يسمح بإجراء شيء يُلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلاد الأخرى وبمركزهم

السياسي". [١]

قلت فيما مضى وأقول للمرة الثانية والثالثة : إن الإنجليز أهل خبث ودهاء، ومن ذلك أنهم عندما يصدرون قرارًا أو اتفاقًا أو معاهدةً يتعمَّدون أن يكون هناك أكثر من معنى في صياغته، ثم ينقلون الناس من الأصل إلى الشكل وأي معنى يتفق عليه المؤتمرون، ثم تعقد عدة جلسات وتتعدد القراءات دون أي اتفاق، انظر إلى قولهم: وليكن معلومًا أنه لا يسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن...".

فبالله عليكم أي ضرر أكبر من إعطائهم وعدًا بإنشاء كيان قومي لهم؟! أليس هذا هو الذي رفضه السلطان عبدالحميد رحمه الله، بل رفض ما هو أقل منه، ثم أغلق جميع الأبواب بوجههم؟! إن وعد بلفور جاء بعد اتفاقية سايكس بيكو، وكان الحسين وأبناؤه يسمعون ويروْن، وإذا حرَّكوا ساكنًا فتراهم يسارعون في التراجع إرضاءً للإنجليز، ولا يُتهم أحد منهم بعدم إدراك أبعاد ما كان يجري.

ومما يستحق الذكر أنه لما دخل الجنرال اللنبي القدس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧م رسميًا مشى إلى جانبه ممثلو دول الحلفاء ولم يمثِّل الدول العربية الجديدة ممثل في ذلك الاحتفال الرسمي. فما هو تفسير الحسين وأبنائه لإبعادهم وهم حلفاء لهم، وكيف استمروا بعد ذلك كله يقاتلون مع الحلفاء إخوانهم الأتراك المسلمين؟!

---

(١) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، حسن الحكيم، ص : ٣٠.

اتفاقية وايزمن – فيصل

"كانت وزارة خارجية إنجلترا تضغط على فيصل بن الحسين لإنهاء قضية اعتراف العرب بحقوق اليهود بفلسطين وكان لورنس يحاول بكل قواه إقناع الأمير فيصل بعقد اتفاق مع اليهود للتعاون معهم في فلسطين، وكان قد سبق واجتمع الأمير فيصل في ربيع عام ١٩١٨م مع الدكتور وايزمن بطلب من الحكومة البريطانية في العقبة حيث تعهد وايزمن للأمير فيصل أن الصهيونيين لن يفكِّروا بإنشاء حكومة [١] يهودية في فلسطين، بل يريدون أن يساعدوا في تقدم البلاد اقتصاديًّا دون أي ضرر يلحق بالعرب، وبعد المخابرات مع والده الحسين واستشاراته له حتى أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩م حيث وافق أن يوقع الاتفاقية كما جاءت وأرادها الإنجليز، وهذا نصها:

"إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابةً عنها، والدكتور حاييم وايزمن ممثل المنظمة الصهيونية القائم بالعمل نيابةً عنها، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي، ويتحققان أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافها الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدول العربية وفلسطين، ولكونهما

---

(١) وهذا أيضًا ما رفضه السلطان عبدالحميد رحمه الله وقال ما خلاصته : إنهم يكذبون ولا يريدون غير الدولة، ويغنينا الله عنهم وعن خدماتهم التي يتبجحون بها، وفيصل وأبوه يعرفان موقف السلطان أكثر منا، كما يعرفان أخلاق اليهود!!

يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما قد اتفقا على المواد التالية"

وأكتفي هنا بذكر البند الرابع والتاسع، ومن شاء مزيدًا من التفصيل، فليعد إلى قراءة هذه الوثائق في مظانِّهاومنها هذا المصدر الذي أشرنا إليه في الهامش:

البند الرابع: يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

البند التاسع: كل نزاع قد يثار بين الفريقيْن المتنازعيْن يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم. وُقِّع في لندن، في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩م[1].

هذه هي اتفاقية فيصل- وايزمن صريحة واضحة. وبعد توقيعها والاتفاق على مضمونها جاءت تفسيرات أو توضيحات قد يُقبل بعضها ويُرد بعضها الآخر، ومن ذلك قول الدكتور أحمد قدري في مذكراته: "وفي غضون إقامتنا في لندن سعى اليهود كثيرًا للاتصال بالأمير فيصل، وبثوا الدعاية الشديدة بأنهم على استعداد

(١) كتاب "العهود المتعلقة بالوطن العربي"، دوجيه علم الدين، عن كتاب "الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية"، حسن الحكيم. ص ٣٩.

لمعاونة العرب سواء في المحافل السياسية الأوروبية أو الأمريكية، ليحصل العرب على حقوقهم كاملةً، فقبِل الأمير بمقابلة ثلاثة من زعمائهم، وهم: وايزمن البريطاني، وسوكولوف البولوني، وهربرت صموئيل وزير البرق والبريد السابق في إنجلترا، فقدموا له كتابًا يوقِّعه برضائه معترفًا بتأسيس وطن قومي- ثقافي فقط في فلسطين لقاء مساعدتهم العرب في المحافل السياسية...".

ويضيف قدري بأنه تدخل هو وعوني عبد الهادي واشتركا في المفاوضات إلى جانب الأمير فيصل، "وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه وبخطه بالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه إذا ما وفَّى اليهود بوعدهم وتمَّ للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس إلى خليج البصرة وفقًا لمطالب الملك حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب".

وقال آخرون: كان فيصل يثق بلورنس ثقةً مطلقةً. ويعتقد بأنه مناصر للقضية العربية، ولم يكن كذلك. والاتفاقية بين فيصل و وايزمن كُتبت باللغة الإنجليزية التي لا يعرفها فيصل، وأوهمه لورنس بأنها لصالح العرب فوقَّع عليها وهو لا يدري حقيقة وأبعاد ما تحويه. ومن هؤلاء من يقول: وقَّعها لورنس باسم فيصل. يقول عوني عبدالهادي [وكان مدير مكتب فيصل ومن أقرب الناس إليه]:

"إن ثقة فيصل الزائدة بلورنس جعلته يعتمد على تأكيداته بأن الاتفاقية مع وايزمن لا تبغي إلا إيجاد وطن روحي لليهود والسماح لهم بالعيش في سلام في فلسطين، وأنه ليس لهم مطامع سياسية".

وذكر عوني عبد الهادي في مقابلة شخصية: أن لورنس كان في مؤتمر فرساي يترجم بعض فقرات خطاب فيصل دون أن يعرف أحد من الوفد العربي ما يقوله لجهلهم بالإنجليزية، كما أنه لا يعرف العربية أحد في المؤتمر غير لورنس، وليس من الواضح إذا كان لورنس قدَّم ترجمةً رسميةً للخطاب رغم أن الوفد العربي اشترط أن تكتب الترجمة حتى لا تتكرر مأساة اتفاقية فيصل- وايزمن".

وكان فيصل يعتقد أن الإنجليز بيدهم كل شيء، وأدخل لورنس في روعه أنه إذا رضي عنه اليهود فسترضى عنه كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا كان اتفاقه مع وايزمن، والذين ينكرون هذا الاتفاق أو يقلِّلون من شأنه إنما يدافعون عن أنفسهم قبل كل شيء لأنهم بطانة فيصل، ويصيبهم ما يصيبه من نقد أو تجريح.

ففي يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩١٩م نشرت جريدة الجويش كرونيكل، وهي لسان الجمعية الصهيونية في إنجلترا، بيانًا للأمير فيصل عالج فيه المسألة اليهودية بصراحة، وكان مما قاله في هذا البيان:... وقد قيل لي: إن جميع اليهود يعتمدون على التصريح الذي فاه به المستر بلفور، ويتطلعون إلى إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، أي أن تصير فلسطين دولةً يهوديةً، ولا ريب أن هذه الأماني تناقض أفكار العرب ولا ترضيهم فأناشد اليهود وهم ساميون قبل العرب، طالبًا معونتهم إيانا في إنشاء المملكة العربية حتى إذا كثر عدد اليهود في فلسطين تيسَّر أن تجعل ولاية

يهودية من ولايات هذه المملكة العربية" [١].

هذه المقابلة لا يجادل في صحتها بطانة فيصل، ولننظر إلى أهم ما فيها من مخاطر. يقول فيصل: "فأناشد اليهود وهم ساميون قبل العرب، طالبًا معاونتهم إيانا في إنشاء المملكة العربية". يطلب معونة ألدَّ الأعداء لاعتقاده بأن الغالبية العظمى من أوراق قضايا العالم عامة بأيديهم، وهذه واحدة، أما الثانية، فكيف ينتظر مساعدةً له عند كل من إنجلترا وفرنسا. لم تكن مخططات اليهود تخفى على أمثاله، لقد نوقشت هذه المخططات في مجلس المبعوثان الذي كان فيصل أحد أعضائه، وأثارها المفكرون العرب في كل ناد، وكتبت عنها صحف ذلك العصر.

المُستجيرُ بعمرو عند كُربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولهذا المثال قصة طريفة: فجساس طعن كليبًا فدقَّ صلبه، ومر عمرو بن الحارث على كليب وقد قربت منيته، فقال كليب: يا عمرو أغثني بشربة ماء، فنزل عمرو وأجهز على كليب [٢]. وإن كلًّا من بريطانيا وفرنسا تريد استعمار البلاد العربية إلى حين، حتى يتمدد أهلها ثم تدع الحكم لأهلها- كما تزعم- أما اليهود فيعتقدون أن فلسطين وطن لهم، والعرب غرباء عنها جاءوها محتلين. فكيف ينتظر

(١) المصادر: صحوة الرجل المريض، موفق بني المرجه. مصدر سابق. وأوراق خاصة لعوني عبد الهادي، إعداد، د. خيرية قاسم، مركز الأبحاث الفلسطيني ١٩٧٤. والوثائق التاريخية، حسن الحكيم، مصدر سابق. ومذكراتي للدكتور أحمد قدري.

(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني: ٢/ ٢٢٢.

فيصل منهم المساعدة؟! ولن تكون هذه المساعدة التي ينشدها منهم أحسن من مساعدة عمرو لكليب.

ويقول فيصل: "حتى إذا كثر عدد اليهود في فلسطين تيسَّر أن تُجعل ولايةً يهوديةً من ولايات هذه المملكة العربية". ماذا يعني قوله: "حتى إذا كثر عدد اليهود في فلسطين"؟! إنه يعلم حق العلم أن حكم الاتحاد والترقي منذ خلعه للسلطان عبد الحميد أباح هجرة اليهود إلى فلسطين وشراء أراضٍ فيها وتضاعفت هذه الهجرة بعد احتلال الإنجليز لفلسطين، وهو لا يستنكر هذه الهجرة، ولا يشير إلى خطورتها، بل يؤيدها في قوله: "حتى إذا كثر عدد اليهود في فلسطين"، يَعِد بمنحهم: "ولاية يهودية من ولايات المملكة العربية"، ومثل هذه الإشارات الكثيرة تجعلنا نعتقد أن فيصلاً كان لا يرى بأسًا في منح اليهود وطنًا قوميًّا في فلسطين، ومع ذلك كان مضطرًّا لترديد الموقف العربي في استنكار منح اليهود وطنًا قوميًّا في فلسطيننا وقدسنا، وكان فيصل يعيش مثل هذه التناقضات. يقول صاحب خطط الشام: "وكان هذا الأمير في بحران سياسي يتنازعه عاملان متناقضان، أحدهما العرب الذين كانوا يطلبون إليه بشدة مقاومة الصهيونية، والعامل الثاني بعد نظره الذي جعله يسعى بإخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين، فتحرج مركزه بين هذه المطالب المتناقضة، وغلب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين، ثم عدل عن هذا الرأي، وأرسل كتابًا إلى الأستاذ فيلكس فرنك فرتر أحد زعماء اليهود الأميركان، هذه خلاصته: [إننا نشعر أن

العرب واليهود هم أبناء عمٍّ في الجنس وأنهم تحمَّلوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية، وقد ساعدهم حسن الطالع بأن يتمكنوا من الصعود معًا إلى الدرجة الأولى من سلم آمالهم الوطنية، ونحن العرب، وخاصة المتعلمين، ننظر برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية، وقد اطلع وفدنا في باريز الآن على الاقتراحات التي قدمتموها أمس إلى مؤتمر السلام ونحن نعتبر أن هذه الاقتراحات معتدلة ولائقة، وسنعمل جهدنا لمساعدة اليهود أبدًا ونتمنى لهم وطنًا ينزلون فيه على الرحب والسعة. وإني أتطلع وشعبي أيضًا إلى مستقبل نستطيع فيه أن نتبادل التعاون لتصبح البلاد التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الأمم المتمدنة في العالم]" [1].

انظر- يا رعاك الله- إلى قول فيصل: "وإني أتطلع وشعبي أيضًا إلى مستقبل نستطيع فيه أن نتبادل التعاون لتصبح البلاد التي نشترك في الاهتمام بها..."، وقوله: "ونحن العرب وخاصة المتعلمين ننظر برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية...". فمن فوَّض فيصلاً ليتحدث باسم الشعب العربي، الذي كان يحذِّر وينذر من خطر الصهيونية، ومن رعاية الإنجليز والدول الغربية لهم، ومعاركه معهم بدأت منذ عام ١٩٢٠م ؟! بل من فوَّض فيصلاً ليتحدث باسم العرب في كل المؤتمرات التي كان يحضرها؟! لقد كان هو في واد والشعوب العربية في واد آخر.

(١) كتاب خطط الشام، محمد كرد علي ٣/ ٢١٩، دار النوادر.

الأطراف التي شاركت في إنجاز المشروع الصهيوني

من هذه الأطراف من كان مثلها في هذا المشروع كمثل الصهيونيين إن لم يكن أشرّ، ومنهم من دفعته إلى ذلك شهوة الحكم أو المال:

الاتحاد والترقي :

تمكنت الصهيونية والصليبية العالميتان من خلع السلطان عبدالحميد الثاني- رحمه الله- الذي وقف كالطود الشامخ بوجه أطماع اليهود في فلسطيننا الحبيبة. وكانت حركة الاتحاد والترقي هي الأداة الطيعة التي استخدمتها هذه القوى العالمية الشريرة، ثم أصبح اليهود وربيبتهم الماسونية شركاء في أول حكومة تلت خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وكان أول قرار اتخذته هذه الحكومة المتواطئة مع العدو السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين، والسماح أيضًا لهم بشراء أراض فيها وفي الأرض المباركة المجاورة لفلسطين. كان الأمر في بدايته غير ملفت للنظر أو هكذا ظن الذين اتخذوا هذا القرار الجائر، لكنه لفت نظر العرب، فأثاروه في مجلس المبعوثان وفي سائر وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الوقت، وحذر رجالات العرب من قيام دولة يهودية في فلسطين، ولكن لا حياة لمن تنادي. أو نقول ما قاله الشاعر عمر أبو ريشة :

لا يُلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم

هناك صفات تشمل قادة الاتحاد والترقي، فمنها: أصولهم واتجاهاتهم. فجاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة، وقره صو من اليهود الإسبان القاطنين في

سالونيك، وطلعت باشا بلغاري من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهرًا، ونسيم روسو ونسيم مازلياج يهوديان، ومن العناصر المؤسسة والفعالة في حركة تركيا الفتاة. هذا جانب، أما الجانب الآخر فأنور باشا كان برتبة مقدَّم في الجيش، ولم يقم حتى بقيادة كتيبة على رأس جيش إمبراطوري، فكيف جرى ترفيعه إلى رتبة لواء، ثم أصبح وزيرًا للحربية... كيف؟! وطلعت باشا يقول عنه الباحثون: "قومي متحمس للقومية التركية... ذكي، مكار كالثعلب، مخاتل، حركي لا يهاب أحدًا، جاهل من حيث العلم، كل عالمه كان الاتحاد والترقي، كان عديم الرحمة تجاه غير الاتحاديين". وجمال باشا كان محبًّا لفرنسا، وحاول التعاون معها لكن السيف قد سبق العذل، ولم يكن على وفاق مع أنور باشا لكن الأمور لم تصل إلى حد القطيعة، ولُقِّب بالسفاح بعد المجازر التي ارتكبها في البلاد الشامية، فقتل وسجن ونفى كثيرًا من الأبرياء.

أرايت أخي القارئ هذا الخليط من قادة الاتحاديين؟! فهل نقول عنهم علمانيين، بل هم أسوأ، وفضلاً عن ذلك فقد أُشربوا حب حضارة الغرب وثقافته. وأقلهم شرًّا كان أنور باشا، ومع ذلك فقد كان شديد الإعجاب بألمانيا ويعتقد بأنها لاتقهر، ولهذا فقد فرض التحالف معها في الحرب العالمية الأولى، وكان يسانده في ذلك طلعت باشا، ولم يكن ذلك التحالف في مصلحة السلطنة العثمانية.

ومنها: إن قادة الاتحاد أغرار لا علم لهم بالسياسة، وكانت ثقافتهم محدودةً، فعندما يصبح المقدَّم لواءً ثم يتقلَّد وزارة الحربية لجيش يعد من أقوى جيوش العالم،

ماذا ننتظر أن يكون مصير هذا الجيش؟!

وعندما يصبح موظف بسيط أشبه بمراسل في وزارة خدمات الرجل الأول في السلطنة العثمانية فإلى أين يقود هذه السلطنة؟! وعندما تتعرض هذه الدولة لاعتداء، فإن القيادة السياسية بخبرتها الواسعة تدرس المسألة من كافة وجوهها، وإذا قررت إعلان الحرب، فهنا يأتي دور الجيش وقيادته التي شاركت في القرار المتخذ، وشجاعة القائد وحدها لا تكفي بل قد تقود إلى الهاوية، وهذا ما حدث لإمبراطورية مثل الدولة العثمانية على يد مقدَّم شجاع، ولكن ليس لديه خبرة بفنون الحرب، وموظف بسيط الثقافة، لا علم له بالسياسة، وحفنة من اليهود لهم أهداف مغايرة لأهداف السلطنة العثمانية، وتبيَّن في وقت لا ينفع فيه الندم أن حساباتهم خاطئة، ومخططاتهم فاشلة، فألحقوا هزيمةً منكرةً بالدولة الكبرى. وصار في كل صقع أمير المؤمنين ومنبر.

لقد صار هذا الانقلاب الذي قاده مقدَّم غرٌّ وموظف محدود الثقافة وحفنة من اليهود، قدوةً سيئةً لجميع الانقلابات التي شهدها عالمنا الإسلامي (بعربه وعجمه) خلال قرن من الزمن. وصرنا نرى الملازم يصبح عقيدًا، والنقيب لواءً، والذي رفضته لجنة القبول في الكلية العسكرية، يصبح فريقًا أو مشيرًا أو مهيبًا أو قل ما شئت من الأسماء التي اخترعوها. وصار من حقنا أن نطرح الأسئلة التالية أمام كل انقلاب يفاجئنا:

- من وراء هذا الانقلاب : هل هي أمريكا، أو بريطانيا، أو فرنسا، وهل

لليهود علاقة؟!

- لماذا ترضى الدول الغربية الحرية لشعوبها، وتفرض علينا الاستبداد من خلال حكم العسكر؟! وليعد من يشك بسؤالنا هذا إلى الوثائق التي نشرت، وإلى مذكرات المتقاعدين من رجال المخابرات: الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية.

دور إنجلترا

شاركت الدول الكبرى في وزر المشروع الصهيوني، ولكن الدولة التي تبنته ورعته وقدمت له كل التسهيلات في النصف الأول من القرن العشرين هي إنجلترا.

- تبنته من خلال تقسيم العرب إلى دويلات تتنازع دائمًا على حدود وهمية صنعتها إنجلترا نفسها وفق خطة خبيثة اعتادت على حبك مثيلاتها.

- وتبنته من خلال وعد بلفور وزير خارجية إنجلترا في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ووعدهم للشريف حسين بقيام مملكة عربية، فصدقت في وعدها لليهود وكذبت في وعدها للشريف حسين وكافأته على ما قدم لها باتفاقية سايكس بيكو.

- وتبنته من خلال اتفاقية فيصل وايزمن، وإقناع لورنس لفيصل بأنه إذا أرضى اليهود فسترضى عنه أمريكا وإنجلترا، ونقلنا فيما مضى من هذا البحث ما فيه الكفاية من الأدلة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى صارت فلسطين من نصيب إنجلترا، ولم يعد المطلع على الأوضاع في ذلك الوقت يفرق بين ما يريده الصهاينة، وما تريده إنجلترا. يقول صاحب خطط الشام:

"أخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية فتولى رئاستها صهيوني صميم،

ورئاسة النيابات صهيوني متطرف، وتغلغل الصهيونيون في جميع الدوائر وسيطروا على الإدارة العامة، وصارت اللغة العبرية لغةً رسميةً، وظنوا أنه سيأتي إلى فلسطين ألوف من اليهود بسرعة فيؤلفون الأكثرية الساحقة، ثم ينشؤون دولةً يهوديةً لتتم بها النبوات القديمة، ولم يعلموا ما يقابلهم من الصعوبات والعراقيل في تحقيق أمنيتهم، وتجاهلوا أن البلاد يسكنها ثلاثة أرباع مليون عربي يملكون أرضها ويستغلون مواردها..." [١].

والمندوب السامي البريطاني الذي قال عنه صاحب الخطط بأنه صهيوني متطرف هو هربرت صموئيل أول مندوب سامي بريطاني. اختارته الحكومة البريطانية من اليهود لتسهيل تنفيذ وعد بلفور.

دور عبدالله بن الحسين:

ويحدثنا الملك عبد الله بن الحسين عن تأسيس المملكة الأردنية، وعن الصهيوني الذي شغل منصب المندوب السامي البريطاني فيقول في مذكراته:

"تلقيت دعوةً من السيد هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني بالقدس لزيارة القدس ومقابلة وزير المستعمرات البريطانية مستر تشرشل، فقبلت الدعوة وتعيَّن اليوم. ولما وصلنا السلط في طريقي إلى القدس لقيني فيها الكولونيل لورنس ومعه أحد ضباط قوة الطيران البريطانية لمرافقتي إلى القدس، وأثناء الليل أخبرني

(١) خطط الشام، محمد كرد علي ٣/ ٢٢٢، دار النور.

لورنس بملخص ما يريد تشرشل أن يفاتحني به من عدم إمكان رجوع الملك فيصل إلى سورية، وتوجهنا في صباح اليوم التالي إلى القدس. وكان لورنس معي في سيارتي، وكانت سيارةً عسكريةً بريطانيةً يقودها جاويش بريطاني. وكان معي في الموكب رجالات سورية وفلسطين"، ثم يصف المندوب السامي البريطاني اليهودي صموئيل بقوله: "أما السيد هربرت صموئيل فلا بد لي هنا من ذكر دماثة أخلاقه وجم أدبه وكماله، فهو سياسي محترم كامل، ولقد كان له ذلك الموقف الذي لا أنساه له، وهو موقفه عندما أبلغني أن المطلوب من والدي المرحوم ترك العقبة والسفر إلى قبرص، فقد كانت الدموع ملء عينيه وهو يفضي إليَّ بالنبأ برقة حاشية وتأثر عميق".

وهذا الذي ذكره عبد الله بن الحسين يوجب عليَّ تسجيل الملحوظات التالية:

١- كان عبد الله بن الحسين قادمًا من الحجاز على رأس قوات رمزية هدفها تحرير سورية من قوات الجيش الفرنسي الذي استعمرها وأخرج فيصل بن الحسين منها. فهل كان عبد الله السياسي المحنك قادرًا على ذلك، بل هل كان جادًّا فيما جاء من أجله؟! وهل كان يظن أن الإنجليز سيتركونه يدخل سورية؟!

٢- قال له تشرشل ولورنس وصموئيل والشيطان الرجيم: غير ممكن رجوع فيصل إلى سورية التي أصبحت في عهدة فرنسا، وبقية القصة ذكرتها كتب التاريخ الحديث. لقد اقتطع الإنجليز الأردن عن أصلها وفصلها سورية، وجعلوا منها دولةً، وهي التي لا تملك إمكانات الدولة، ولهذا فقد عاشت عالةً على غيرها، كما

عاشت عازلاً بين الشمال والجنوب العربي. في هذا اللقاء بين عبد الله والطغمة الإنجليزية الصهيونية في القدس، عدل عبد الله عن غزو سورية، وطرْد غورو وقواته الفرنسية منها، ورضي بالأردن دولةً، ثم نصب خيامه. نعم كان يعيش في خيام وليقرأ من شاء مذكرات خير الدين الزركلي [عامان في عمان]، ولا تسل عن موارد هذه الدولة وميزانيتها وأركان الحكم فيها. نعم، لا تسل لأني أخشى أن يدخل مثل هذا السؤال في باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

٣- قال الملك عبد الله عن المندوب السامي البريطاني، وهو صهيوني متطرف [هربرت صموئيل]: "ولقد كان له ذلك الموقف الذي لا أنساه له. وهو موقفه عندما أبلغني أن المطلوب من والدي المرحوم ترك العقبة والسفر إلى قبرص. فقد كانت الدموع ملء عينيه وهو يفضي إليَّ بالنبأ برقة حاشية وتأثر عميق". إذ كانت الدموع ملء عينيه وهو يفضي لعبد الله بهذا النبأ فمن الذي اتخذ قرار نفي الحسين إلى قبرص بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا؟! وهل من المعقول أن يكون المندوب السامي البريطاني ليس له أدنى علاقة بهذا القرار؟! الشريف حسين كان يلح على التزام بريطانيا بوعدها له وفق محادثاته مع مكماهون، وكانت بريطانيا مزعوجةً ومُحَرَجةً من هذا الإلحاح، ولابد لها من اتخاذ قرار زاجر ضد شيخ مسن لا تسكته لغة التلميحات والهمسات، ولهذا فقد خفتت الأصوات بعد نفيه وتكاد لا تسمع حتى همسًا.

وإذا كنا نتهم هذا الصهيوني المتطرف بالمشاركة في القرار الذي اتخذته حكومته ضد الشريف حسين، فدموعه هذه التي يتحدث عنها عبد الله بن الحسين هي مثل دموع التماسيح، لأن التمساح عندما ينقض على فريسته تدمع عيناه، وعندما يبكي المخادع المنافق يقولون عنه: يذرف دموع التماسيح. وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فقد قرأت في أحد مؤلفات ناصر الدين النشاشيبي[1] أن الملك عبد الله كان يحدثهم بين الفينة والأخرى عن مرض ابنه طلال، فكان كلما قال: طلال!! ودون أن ينطق بكلمة أخرى يبدأ غلوب باشا يبكي بدموع غزيرة، ويتساءل النشاشيبي: من أين يأتي بهذه الدموع؟! لا أدري.

(١) وكان موظفًا في الديوان الملكي الأردني.

دور الولايات المتحدة الأمريكية

المشروع الصهيوني في النصف الثاني من القرن العشرين:

انتقلت قيادة العالم في النصف الثاني من القرن العشرين من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تولت أمريكا احتضان المشروع الصهيوني، ولم تكن من قبل بعيدةً عنه، فالنشاط الصهيوني في أمريكا أقوى وأكثر فعاليةً منه في بريطانيا. ففي شهر آب سنة ١٩١٨م أرسل الرئيس الأميركي ويلسون كتابًا إلى رئيس لجنة الصهيونيين هذا نصه: "راقبت برغبة شديدة العمل الأساسي الذي قامت به لجنة وايزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وها أنذا أتخذ هذه الفرصة لأظهر امتناني بتقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي بلاد الحلفاء منذ تصريح بلفور المتضمن موافقة إنجلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، ووعد الحكومة الإنجليزية بأنها تساعد ما استطاعت وتضمن الوصول إلى هذه الغاية بشرط أن لا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود [العرب] المدنية والدينية من سكان فلسطين أو تعبث بحقوق اليهود خارج فلسطين" (١).

---

(١) خطط الشام، كرد علي، ٣/ ٢١٧.

وويلسون هو الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية [١٨٥٦م-١٩٢٤م]. ولد ببلدة ستونتون في ولاية فرجينيا. درس القانون وعمل فترة بالمحاماة، ثم حصل على درجة الدكتوراه، ثم اشتغل بالتدريس بجامعة برنستون ثم مديرًا لها. وفي عام ١٩١٢م انتخب رئيسًا

وفي ١٥ مايو ١٩٤٨م اعترف الرئيس الأمريكي ترومان بقيام دولة باسم إسرائيل على أرض فلسطين العربية بعد إعلانها بخمس دقائق، وسبق ذلك أن طالب بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة بفتح أبواب فلسطين لهجرة مئة ألف صهيوني يهودي فورًا، ثم استخدم الضغط السياسي والاقتصادي على كثير من أعضاء هيئة الأمم لقبول إسرائيل عضوًا بالمنظمة الدولية في ١٠ مايو١٩٤٩م" [١].

وفي ٢٥ آذار ١٩٤٤م كتب عادل أرسلان في مذكراته: "في سفارة أمريكا بأنقرة شعبة خاصة لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وهذا لم يسبق له مثيل في تاريخ الدول. اليوم ذهب أركان تلك الشعبة مع بعض أعيان اليهود إلى الباخرة التركية [طاري] فوجدوها موافقةً لنقل مهاجري اليهود من بلغاريا ورومانيا إلى فلسطين تحت حماية الهلال الأحمر التركي" [٢].

مذكرات الأمير عادل أرسلان تختلف عما كتبه أكثر أصحاب المذكرات. كان يكتب ما يريد أن يقوله في يوم الحدث، ولا يجامل أحدًا فقد انتقد أخاه الأمير شكيبًا في غير موضع من مذكراته، كما كان يعيش الآلام والجراح التي نعيشها اليوم، ومن أراد أن يفهم كثيرًا مما يجري في العقود التي تلت وفاة عادل أرسلان

للجمهورية، وأعيد انتخابه عام ١٩١٦م. وفي يناير ١٩١٨م أعلن في إحدى خطبه ما عرف بالنقط الأربع عشرة أو مبادئ ويلسون وجعلها أساسًا لإنهاء الحرب، القاموس السياسي.

(١) القاموس السياسي، أحمد عطية الله، مصدر سابق.

(٢) مذكرات عادل أرسلان، الجزء الأول، ٤٤٤.

فليقرأ مذكراته. انظر إليه ماذا يقول عن تبني أميركا لإسرائيل:

"يزداد الرئيس ترومن تشددًا وإمعانًا في سياسته الصهيونية، وصحف البلاد العربية مشغولة بالتافه من المسائل". ٦/ ٧/ ١٩٤٦م. ويقول أيضًا:

"ترومن ماضٍ في خدمة إسرائيل، والكيد للعرب وقوله أمس لمجلس أمريكا- دون مناسبة- أن منع مصر النفط عن إسرائيل مخالف لشروط الهدنة ولحرية التجارة، لا سبب له في نظري إلا ما ظهر في بعض البيئات الأمريكية من الاهتمام للقضية العربية. فأراد اليهود إظهار مصر بمظهر المعتدي فأمروا خادمهم المطيع بدس تلك العبارة في خطابه". ٦/ ٧/ ١٩٥٢م.

ما الذي تغيَّر بعد وفاة الأمير عادل أرسلان؟!

- كان لمصر شأن كبير أيام العهد الملكي، كانت ملاذًا للعرب الأحرار الذين تلجئهم ظروف مقاومة المستعمرين لبلدانهم إلى الإقامة في مصر، فكانت تحميهم من كل مكروه، وتقدِّم إليهم كل ما تقدر عليه من عون، ولا تبالي في الدخول بصراع مع الدول المستعمرة التي تطارد ضيوف مصر وتهددهم. وكان عند مصر من الحرية والعزيمة ما يجعلها تمنع النفط عن إسرائيل. فهل مصر اليوم كذلك؟!

وماذا نقول للأمير عادل وأقرانه لو كُتب لنا أن نلقاهم وسألونا: كيف قبلتم بفتح سفارة لإسرائيل في مدينة عمرو ابن العاص وصلاح الدين الأيوبي؟!

أما رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية منذ أيام ترومن وحتى يومنا هذا إن لم يكونوا مثله فهم أسوأ منه، وتهديد الكيان الصهيوني في فلسطيننا الحبيبة خط أحمر

لا يجوز الاقتراب منه. ومن أجل حماية الدولة الصهيونية لا تتردد في استخدام أي سلاح، وقد فعلت ذلك من قبل، ولا أظن أحدًا ينسى استخدام ترومن للسلاح النووي في هيروشيما.

وزيادةً على هذا وذاك، فالولايات المتحدة الأمريكية تستخدم حق "الفيتو" ضد أي قرار تتخذه الأمم المتحدة ضد إسرائيل، فيصبح القرار لاغيًا بموجب هذا الحق [١] وهو والله ليس حقًّا ولاعدلاً، بل هو الظلم في أوسع معانيه، ولا أدري كيف تقبل دولة لنفسها أو يرضى العالم كله لها بردِّ إجماعه واعتباره لاغيًا.

(١) فيتو تعبير لاتيني معناه: أنا أمتنع. ويستخدم في القوانين الدستورية والدولية بمعنى حق الاعتراض، وقد أصبح هذا الاصطلاح متداولاً منذ قيام مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة، حين منحت الدول الكبرى الخمس ذات المقاعد الدائمة [فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، والصين] حق الاعتراض على أي قرار يصدره المجلس حتى بعد اتفاق جميع الأعضاء المنتخبين والدائمين باستثناء إحدى الدول الخمس الكبرى. القاموس السياسي. فيتو.

ليس علينا في الأميين سبيل

سقط حلفاء اليهود من الاتحاديين العثمانيين بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، واغتال الأرمن طلعت باشا وجمال باشا وكذلك قضى أنور باشا نحبه على يد جهة أخرى غير الأرمن، والسؤال هنا: ماذا كان موقف حلفائهم اليهود وذراريهم من الماسونيين؟! هل شقّوا الجيوب، ولطموا الخدود، ولبسو السواد حزنًا على من فتحوا أمامهم آمالاً عريضة؟! أم هل تعرَّضوا لاضطهاد الحكام الجدد في السلطنة العثمانية لأنهم من قادة الفريق المنهزم الذي دمر البلاد والعباد؟!

تحالف اليهود بعد الحرب العالمية الأولى مع جنسيات واتجاهات شتى، هُزم بعضها وانتصر البعض الآخر، وكان اليهود دائمًا مع المنتصر في جميع هذه المعارك. كيف ؟! لليهود قضية واحدة، وما بعد هذه القضية شيء ثانوي يتفقون ويختلفون فيه، أما القضية الأولى: أي العودة إلى فلسطين وإقامة دولتهم فيها فلا خلاف بينهم عليها. ومن أجلها يسخِّرون جميع إمكاناتهم في العالم، ولا خلاف بين المعتدلين والمتطرفين فيهم حول هذه المسألة، ويعرفون كيف يستدرُّون عطف العالم مع كرههم لهذا العالم لأنه من "الجوييم".

والجوييم اسم عبري يطلقه اليهود على المسيحيين خاصة، وعلى غير اليهود بصفة عامة، ويعني الأميين أو الوثنيين أو الأجانب. يتردد ذكره في التلمود الذي يشير في مواضع متعددة منه بما يفيد استعلاء الشعب اليهودي على غيره من الشعوب، كما يشير إلى أن الجوييم هم أعداء اليهود، وليس من العدل أن يشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم، كما جاء فيه: يحق لليهودي أن يغش الجوييم، ومحظور

عليه أن يحيِّي الكافر بالسلام ما لم يخش ضرره أو عداوته. وقوله: قبل أن يحكم اليهود نهائيًّا على باقي الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم ويبقى اليهود مدة سبع سنوات يحرقون الأسلحة التي غنموها بعدالنصر.

كما تردد ذكر الجوييم فيما يعرف باسم مقررات صهيون. من ذلك قولهم: إن الحاجة اليومية إلى الخبز تضطر الجوييم إلى السكوت والرضوخ والرضا وإلى أن يكونوا خدامًا لنا، أذلاء خاضعين في استسلام. وقولهم: إن الجوييم كقطيع من الغنم ونحن الذئاب. وقولهم: لقد خدعنا الجيل الناشئ من الجوييم، وجعلناه فاسدًا مستعفنًا بما علَّمناه من مبادئ ونظريات معروف لنا زيفها التام" [(١)].

هذه هي أخلاق اليهود في القديم والحديث، وهذه هي مخططاتهم ومواقفهم من غيرهم، وعلى ذلك شواهد من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، قال تعالى:

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٥ – ٧٦]، الشاهد هنا قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾.

قال ابن كثير: أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا

---

(١) القاموس السياسي، أحمد عطية الله. جوييم.

حرج في أكل أموال الأميين، وهم العرب، فإن الله قد أحلَّها لنا. قال تعالى: "ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون "، أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرَّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهْت".

وقال سيد قطب: وهذه بالذات صفة يهود. فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة. فالأمانة بين اليهودي واليهودية، أما غير اليهود، ويسمُّونهم الأميين، وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود)، فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرُّج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم! ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا، وهم يعلمون أن هذا كذب. وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتًا وبهتانًا..." (١).

ولقد كذب اليهود على ربهم جلَّ وعلا فكيف لا يكذبون على عبيده؟! ومن ذلك زعمهم أن الله فقير وهم أغنياء، وزعمهم أن الله بخيل، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة، وفي ظلال القرآن، سيد قطب.

وقال تعالى﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾[آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[المائدة: ١٨].

وقال جلَّ من قائل:﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[البقرة: ٨٠ – ٨١].

وقال جلَّ من قائل: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[المائدة: ٧٨– ٧٩].

يتفاوت الأعداء في كيدهم ومكرهم: فمنهم العاقل الذي لا تتجاوز عداوته الحد الأدنى، ولا يكذب على خصمه، وقديمًا قيل: "عدو عاقل خير من صديق جاهل". ومنهم الذي لا تعرف عداوته الحدود كما لا تعرف صداقته الحدود.

وأمتنا الإسلامية لا تعرف- في تاريخها الطويل- أشدَّ عداوةً لها، وأعظم كيدًا،

وأكثر إيذاءً من اليهود. قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢ – ٨٣].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: "لتجدنَّ أشد الناس ..."، ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق، وغمط للناس وتنقُّص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى همُّوا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة" [(١)].

وقال ابن كثير أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾. أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة [(٢)]، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذا كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال

---

(١) تفسير ابن كثير للآية، مصدر سابق.

(٢) في الجملة أي ليس على الإطلاق، والمقصود صنف قليل منهم.

مشروعًا في ملتهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: يوجد فيهم القسيسون- وهم خطباؤهم وعلماؤهم- والرهبان: جمع راهب، وهو العابد، مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان" (١).

كلمة قيِّمة:

الأستاذ سيد قطب رحمه الله من أكثر المفسرين المعاصرين رصدًا للكيد اليهودي، وله في هذا الموضع تعقيب رائع ننقله لأهميته:

"وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائمًا أشد وأقسى وأعمق إصرارًا وأطول أمدًا من عداء الذين أشركوا!

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة. وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة. وتضمَّن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام ﷺ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل؛ والتي لم تخبُ لحظةً واحدةً قرابة أربعة عشر قرنًا، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء

(١) تفسير ابن كثير للآية، مصدر سابق.

الأرض جميعًا.

لقد عقد الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة، معاهدة تعايش مع اليهود؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدِّق ما بين أيديهم من التوراة... ولكنهم لم يفوا بهذا العهد- شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل- حتى قال الله فيهم:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ البقرة: ٩٩ – ١٠١، ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ﷺ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط!

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبي في بابل، والعبودية في مصر، والذل في الدولة الرومانية.

ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ، فإنهم ردُّوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ النساء: ٥١

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق- يوم أن كان الناس مسلمين [1]- استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه- لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفَّل بحفظه سبحانه- ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار. ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض... حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويشنونها حربًا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين!

وصدق الله العظيم: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾ المائدة: ٨٢.

إن الذي ألَّب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم؛ وبين قريش في مكة، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة...

---

(١) يعني الأستاذ سيد قطب: يوم أن كان الناس مسلمين كما ينبغي أن يكون عليه المسلم، ولا ينفي الإسلام عن المسلمين اليوم.

يهودي...

والذي ألَّب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاها من النكبات.. يهودي..

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير.. يهودي..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال "الدستور" بها في عهد السلطان عبدالحميد، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي "البطل" أتاتورك.. يهودي..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود!

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية.. يهودي.. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي.. ووراء معظم النظريات الهدَّامة لكل المقدسات والضوابط يهود!

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمداً، وأعرض مجالاً، من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون - على ضراوتها - قديماً وحديثاً.. إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها. وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول.

وأما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية، التي تعد الماركسية مجرد فرع لها

وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية، التي سنتعرض لها في الفقرة التالية.

فإذا سمعنا الله – سبحانه – يقول:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾

ويُقدَّم اليهود في النص على الذين أشركوا.. ثم إذا راجعنا هذا الواقع التاريخي، فإننا ندرك طرفاً من حكمة الله في تقديم اليهود على الذين أشركوا!

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة، التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام، وعلى نبي الإسلام، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها.. ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله!.. ولن يخلِّص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه.." (١).

أصاب سيد كبد الحقيقة في قوله: "ولن يخلِّص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه".

فالسلطان عبد الحميد الثاني يوم كان يقيس الأمور بمقياس الإسلام أفشل خططهم، وأبطل كيدهم، وهزم هرتزل وآل روتشيلد شر هزيمة، وما ترك نافذةً يتسللون من خلالها إلا أغلقها. وعندما نجحوا وعملاؤهم من جماعة الاتحاد والترقي في خلع السلطان عبد الحميد، هزم الواحد من قادتهم مئات قادة ذراري المسلمين، ففي قرن من الزمن استطاع هرتزل، ووايزمن إقامة دولة من العدم، وأين أقاموا هذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ٢/ ٩٦٠.

الدولة؟! في فلسطيننا.. في الأرض التي باركها الله من فوق سبع سموات!! من حق اليهود أن يفتخروا ويمجِّدوا هذين الرجلين، أما هرتزل فقد تحدَّثنا عنه فيما مضى من بحثنا هذا، وأما وايزمن فنوجز الحديث عنه فيما يلي:

وايزمن [١٨٧٤ – ١٩٥٢]:

حاييم وايزمن، وهو زعيم صهيوني روسي الأصل. درس الكيمياء بجامعات ألمانيا ثم انتقل إلى سويسرا، وعمل محاضرًا بجامعة جنيف، ثم هاجر إلى إنجلترا عام ١٩٠٣م وحصل على الجنسية البريطانية، وعمل مدرسًا للكيمياء بجامعة منشستر، ثم تولى منصب مدير معامل وزارة البحرية البريطانية، فيما بين عام ١٩١٦ – ١٩١٩م، وتمكَّن خلال هذه الفترة من اكتشاف طريقة صناعية لإنتاج الأسيتون، وكانت له أهمية في دفع الإنتاج الحربي المتصل بصناعة المفرقعات، وتقديرًا لعمله هذا أُقيمت باسمه مستعمرة في فلسطين [تحت الانتداب البريطاني] عُرفت بمستعمرة داود، كما كان لنشاطه في خدمة البحرية أثره في تطوير الحركة الصهيونية.

يعتبر وايزمن خليفة هرتزل مؤسس الصهيونية المعاصرة، تولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ما بين ١٩١٧ – ١٩٣٥م، وفي السنة الأولى تزعَّم المفاوضات بين اليهودية الدولية والحكومة البريطانية وهي المفاوضات التي تمخَّضت عن وعد بلفور [٢ نوفمبر ١٩١٧م] وقد أصرَّ خلال هذه المحادثات على أن تكون فلسطين لا غيرها من أنحاء الإمبراطورية البريطانية الوطن القومي الموعود لليهود، كما

حاول مع السلطات الفرنسية المنتدبة ضمَّ منطقة نهر الليطاني بلبنان إلى حدود فلسطين ولكنه فشل، وإليه يُعزى الضغط على يهود أمريكا لدخول الولايات المتحدة الحرب العظمى عام ١٩١٧م في صف الحلفاء، ثم الضغط على مؤتمر الصلح بباريس لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني في ظل وعد بلفور.

تولى رئاسة الاتحاد الصهيوني البريطاني منذ ١٩٣١م، ورئاسة الوكالة اليهودية ما بين ١٩٢٩م و ١٩٤٥م. ترأس الجانب اليهودي في مؤتمر لندن عام ١٩٣٩م، كما قام بدور في أعمال لجنة التحقيق الإنجلو- أمريكية في عام ١٩٤٦م التي انتهت بتحقيق الرغبة اليهودية في إدخال ١٠٠ ألف يهودي جديد إلى فلسطين، وفي ١٥ مايو ١٩٤٨م وجَّه الرئيس الأمريكي ترومان التهنئة بقيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربية، وفي ١٧ فبراير ١٩٤٩م انتُخب رئيسًا لهذه الدولة لحين وفاته عام ١٩٥٢م. له كتاب [المحاولة والخطأ] وهو تاريخ الحركة الصهيونية والاحتلال اليهودي لفلسطين" [١].

وكتب عادل أرسلان في يومياته [الإثنين ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٢م] الكلمة التالية بمناسبة وفاة وايزمن:

" أُذيع نبأ موت الصهيوني الأكبر الدكتور حاييم وايزمن رئيس جمهورية إسرائيل، وخلف هرتزل في زعامة الصهيونيين. كان الرجل دكتورًا في الكيمياء، لكنه كان أعلى من دكتور في السياسة، فقد جمع بين العلم والذكاء والمكر والدهاء

(١) القاموس السياسي، أحمد عطية الله، وايزمن.

والمرونة والمضاء والإخلاص لصهيونيته والتفاني في قوميته، وبين معرفة اليهود على اختلاف نحلهم، ومعرفة الغربيين على تعدد دولهم، وتوفّر على إعداد الأسباب لقيام الدولة اليهودية، فوضع قواعدها قبل أن يذكرها، واستعان بأهل الرأي من قومه قبل أن يشهرها، وأشرف بنفسه على الدسِّ بين العرب واستهواء ضعاف النفوس منهم، وأحكم الدسائس بين أحزابهم وملوكهم، وبين حكوماتهم والحكومات الأوروبية، وسلَّح الصهيونية بوعد بلفور، ثم عزَّزه بوعود من تشرشل ولويد جورج وروزفلت وائد وترومن وسمطس وبيرسون (وزير خارجية كندا اليوم) وغيرهم، وأدخل في الصهيونية عددًا من رجالات اليهود كانوا يناهضونها أو لا يؤمنون بها، منهم ليون بلوم وهربرت صموئيل وبعض آل ورتشيلد، وهو الذي غلب هرتزل مؤسس الصهيونية في مؤتمر فيينا الصهيوني وانتزع منه الرئاسة، لأنه رضي أن يكون لليهود وطن قومي في غير فلسطين، بينما كان هو يقول: أن لا معنى لدولة يهودية بعيدة عن أورشليم.

حاييم وايزمن بطل اليهود وداهيتهم وهاديهم ومرشدهم، لم يقض شريدًا طريدًا مغلوبًا مقهورًا، بعد نفي إلى قبرص أو هوان في العقبة، لكنه لم يمت إلا بعد أن أنقذ قومه بالهدنة الأولى، يوم طار إلى واشنطن فحمل ترومن على طلبها وإقناع الدول العربية بقبولها، بينما جيوشها على ١٢ كيلو مترًا من تل أبيب، وهو لم يمت إلا بعد أن رأى قومه في عيد نصرهم، ورأى لدولته جيشًا وأسطولاً، وهي في الأمم المتحدة برغم أنوفنا، تضربنا فنصيح ونستغيث، وتعتدي علينا فنشكو ونحتكم

ولكن إلى حماة إسرائيل...

لا أشك في أن للرجل وصيةً وأن اليهود يكتمونها، وأنه سيكون فيها خطة لمستقبل الدولة اليهودية، فقد قال وايزمن يوم أقرَّت الأمم المتحدة دولة اليهود: "هذه هي المرحلة الثانية والأولى وعد بلفور"، وايزمن اليهودي الروسي هو في نظري من أعظم رجال التاريخ، لأنه أوجد شيئًا من لا شيء ورؤساء العرب وجدوا شيئًا فجعلوه لا شيء" [1]ا.هـ.

(١) مذكرات عادل أرسلان: ٣/ ١٤٠٢.

وتذكّروا الخليفة والخلافة

وتذكروا الخليفة والخلافة

في وقت متأخر، نُشرت مذكرات الصهيوني هرتزل، وقرأ الناس في عالمنا الإسلامي فيها:

"قال السلطان عبد الحميد لصديق نيولنسكي: إذا كان صديقك فانصحه أن لا يسير أبدًا في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدًا من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الأرض بإراقة دمه، وقد غذَّاها فيما بعد أيضًا بدمائه، وسوف نغذِّيها، بل لن نسمح لأحد باغتصابها منا، فليحتفظ اليهود بملايينهم، أما إذا سقطت الدولة العثمانية وتمَّ تقسيمها فقد يحصل اليهود على فلسطين بلا مقابل، إننا لن نقسِّم هذه الدولة العثمانية إلا على جثثنا، ولن أقبل تشريحنا لأي غرض كان". مذكرات هرتزل، ص ٣٥.

ولي على كلام هرتزل الملحوظات التالية:

١- إنها صرخة ألم ممزوجة بالحقد والتآمر على السلطان عبد الحميد رحمه الله الذي أغلق أمام اليهود جميع الأبواب [١] والنوافذ، وكان مدركًا لكل أحابيلهم، وهو بهذه الصفة من نوادر رجالات العالم كله، وليس العالم الإسلامي وحده، ومما يميِّزه عن غيره من رجالات العالم الذين عرفوا اليهود حق المعرفة أنه لم يستخدم القوة ضدهم، فهم آمنون كمواطنين ضمن سلطنته لا يسمح لأي كان أن يعتدي

(١) ذكرنا فيما ما ضى من هذا البحث جملة من هذه الصرخات.

عليهم أو أن يسلبهم حقًّا من حقوقهم، أما مؤامراتهم فيحبطها بمراسيم وإجراءات محترمة.

٢- السلطان عبد الحميد في تقديره لواقع عصره ولما آل إليه وضع السلطنة كان ينظر بنور الله. انظر إلى قوله: "أما إذا سقطت الدولة العثمانية وتمَّ تقسيمها فقد يحصل اليهود على فلسطين بلا مقابل". فهو يرى أن وحدة الأمة هي مركز الثقل، فإذا كانت الأمة كيانًا واحدًا ترأسها وتدير شؤونها قيادة واحدة من أهم سماتها التماسك واستبانة سبيل المجرمين. قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

إن مثل هذه القيادة ستقطع سبيل المفسدين سواءً كانوا يهودًا أو أشباه يهود، فهل يتدبَّر هذا القول الذين يريدون فصل اليمن الجنوبي عن الشمالي؟! أو الذين يريدون قيام دويلات في عراق واحد؟! أما كفانا تجزئة وإقامة حدود مصطنعة بين أبناء البلد الواحد والشعب الواحد والدين الواحد؟! ألا يرى هؤلاء كيف كانت تهابنا الدنيا وتحسب لنا ألف حساب، وكيف أصبحنا بعد انقلاب الاتحاديين ثم بعد سقوط الخلافة الإسلامية؟!

٣- أصبح هدف اليهود سقوط هذا السلطان الذي أغلق جميع الأبواب والمنافذ أمامهم، ولهذا فقد استنفروا وسائلهم الشيطانية دون أي استثناء، ومن هذه الوسائل أجهزة إعلامهم العالمية التي لا تنافسها أية أجهزة أخرى، وكان شعارها اكذب واكذب واكذب عسى أن يصدِّقك الناس، وصدَّقهم الناس في بلادنا، بل

صدَّقهم الناس في العالم كله: صدَّق الناس أن السلطان عبد الحميد طاغية مستبدٌّ لا يعرف قلبه شفقةً ولا رحمة. وصدَّق الناس أن السلطان كان يرمي خصومه في مياه البوسفور، وأن سمك البحر كان يتغذَّى من هذه الأجساد. ولم يكن شيئًا من هذا يحدث. وصدَّق الناس أن السلطان كمَّ الأفواه، ووسَّع السجون ومارس فيها أشدَّ أنواع التعذيب، ولهذا فقد أطلقوا عليه وصف السلطان الأحمر.

وكان ينشر هذه الأكاذيب في البلاد العربية الماسونيون الذين ازدهرت أوكارهم في سورية ومصر والعراق، والموارنة الذين هاجروا إلى مصر وسيطروا على صحفها وسائر وسائل إعلامها. وراح الناس يبحثون عن: الحرية والديمقراطية والمساواة التي صادرها السلطان الأحمر! وليس هو والله أحمر ولا أسود. وعن الوحدة العربية التي يتزعَّمها خليفة عربي يعيد أمجاد الأمويين والعباسيين في عهدهم الأول يوم قال هارون الرشيد للغيمة في السماء: اذهبي فأينما حللتِ فإن خراجكِ سيأتيني.

أدرك المسلمون في بلادنا أنهم يجرون وراء سراب خادع، وبعد أن أنهكهم التعب وهم يجرون ويجرون أيقنوا أنهم لن يجدوا ماءً ولا طعامًا وراء هذا السراب.

وها هنا تذكَّروا عهد السلطان عبد الحميد! وخير من يعبِّر عن مشاعر الأمة في مثل هذه الحالة العلماء والشعراء، وفي هذا الصدد يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

كنت أبكي بالأمس منـك، فمالي ... بتُّ أبكي عليك (عبد الحميد)؟
فـرح المُسلُمون قبـل النَّصارى ... فيك قبل الدُروز قبل اليهـود
شمتُـوا كلهـم ، وليس من الهمَّـة ... أن يشمـت الـورى في طريـد
أنت (عبدُ الحميد) والتاجُ معقُود ... و(عبـدُ الحميد) رهـن القيـود
خالـد أنـت رغـم أنـف الليالي ... في كبـارالرجـال أهـل الخلـود
لك في الدهـر والكمـالُ مُحـالُ ... صفحاتٌ، ما بين بـيضٍ وسُود
حاولُوا طمس ما صنعتَ وودُّوا ... لو يُطيقُون طمس خطَّ الحديد[1]

وفي قصيدة للشاعر أحمد محرم استنكر فيها إعلان الشريف حسين الثورة على الترك وانضمامه للإنجليز بعد أن خدعوه بوعودهم الكاذبة، وكان مما قال فيها:

نبئت ما زعـم الشريـف وقومه	فسمعت ما لم تسمـع الأذنان
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم	ورمـوا بآمـالٍ إليـه حسـان

(١) يشير إلى سكة الحديد التي أنشأها السلطان عبد الحميد بين المدينة ودمشق سنة ١٩٠٠م، وتمَّت سنة ١٩٠٨م، وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته وتكاليفه الباهظة التي نهض بها عبدالحميد دون أي عون خارجي، مع سوء الظروف التي كانت تقاسيها تركيا. وطول الخط ١٢٠٠ ميلاً. وقد قُدِّرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات، اكتتب فيها المسلمون في سائر بقاع الأرض. ص:٤٨ من هامش الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

فأباح ما منعت فوارس هاشمٍ	وحمت ولاة البيت من عدنان
يا ذا الجلالة لا سعدت بتاجه	ملكًا سواك به السعيد الهاني
أنسيتم الآيات بالغةً فما	بصحائف التاريخ من نسيان
الترك جند الله لولا بأسهم	لم يبق في الدنيا مقيم أذان

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فله قصائد كثيرة يتغنَّى فيها بالعثمانيين من الترك والعرب الذين أعزَّ الله بوحدتهم دينه، ومن هذه القصائد رائعة يرثي بها الملك الحسين بن علي الذي وافته المنية سنة ١٩٣١م، ومع أن المناسبة يخيِّم عليها الحزن، فإنه لم يفته أن يقول للمُتوفّى: قم وأخبر العرب كيف غامرت بتاريخك ونسبك فوثقت بالإنجليز الذين لا يشبههم شيء كما تشبههم الأفاعي وقاتلت إلى جانبهم إخواننا الترك، ومن أبياتها قوله:

قم تحدَّث أبا علي إلينا ... كيف غامرتَ في جوار الأراقم
لم تبال النيوب في الهام خشنًا ... وتعلَّقت بالحواشي النواعم[1]
كلنا وارد السراب وكل ... حمل في وليمة الذئب طاعم[2]

---

(١) النيوب: جمع ناب، والناب السن بجانب الرباعية وبها القضم. الهام: الرؤوس، واحدها هامة، والحواشي: الأطراف، واحدتها حاشية ويعني الإنجليز.

(٢) الحمل: الصغير من الضأن. طاعم: مطعوم. انظر ديوان شوقي: ٥/ ١٧٣، دار الكتاب العربي، بيروت.

وفي قصيدة أخرى بكى شوقي الخلافة حين ظن الناس أنها قد استقبلت عهدًا جديدًا كله عزة، فارتفع صوت الباكين يعلنون موتها المفاجئ في صخب المحتفلين بعرسها، وكفَّنوها في ثوب الزفاف، بين جزع الجازعين، وذهول الذاهلين، وعبرات الضاحكين:

عادَت أَغاني العُرسِ رَجعَ نواحِ ... وَنُعيتِ بَينَ مَعالِمِ الأَفراحِ

كُفِّنتِ في لَيلِ الزَفافِ بِثَوبِهِ ... وَدُفِنتِ عِندَ تَبَلُّجِ الإِصباحِ

شُيِّعتِ مِن هَلَعٍ بِعَبرَةِ ضاحِكٍ ... في كُلِّ ناحِيَةٍ وَسَكرَةِ صاحِ

ضَجَّت عَلَيكِ مَآذِنٌ وَمَنابِرٌ ... وَبَكَت عَلَيكَ مَمالِكٌ وَنَواحِ

الهِندُ والهِةٌ وَمِصرُ حَزينَةٌ ... تَبكي عَلَيكِ بِمَدمَعٍ سَحَّاحِ

وَالشامُ تَسأَلُ وَالعِراقُ وَفارِسٌ ... أَمَحا مِنَ الأَرضِ الخِلافَةَ ماحِ

بَكَتِ الصَلاةُ وَتِلكَ فِتنَةُ عابِثٍ ... بِالشَرعِ عِربيدِ القَضاءِ وَقاحِ

أَفتى خُزَعبِلَةً وَقالَ ضَلالَةً ... وَأَتى بِكُفرٍ في البِلادِ بَواحِ

إِنَّ الَّذينَ جَرى عَلَيهِم فِقهُهُ ... خُلِقوا لِفِقهِ كَتيبَةٍ وَسِلاحِ

أَستَغفِرُ الأَخلاقَ لَستُ بِجاحِدٍ ... مَن كُنتُ أَدفَعُ دونَهُ وَأُلاحي[1]

(١) الموسوعة الشوقية لأمير الشعراء أحمد شوقي، جمع وترتيب وشرح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي. ص:٢/ ٥٠٧، والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين.

وكتب الشيخ محمد شاكر مقالاً في المقطم يصوِّر ما يشعر به من خيبة الأمل، وقد أخذت ضربات الكماليين تتوالى، محاولة قطع كل الصلات التي تربط تركيا بالإسلام والمسلمين، فهو يقول:

"خليفة يُخلع وخلافة تُلغى، وأموال تُصادر، وتعليم ديني يُمحى، ومحاكم شرعية تُغلق، وأسرة عثمانية تُطرد من آفاق البلاد، وتُحرم من جنسيتها التركية، فما معنى هذه العاصفة الهوجاء، عاصفة الجنون التي تهبُّ على العالم في مشارق الأرض ومغاربها من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية في أنقرة؟".

"رحم الله زمانًا كنا نعطف فيه على هذه الفئة إبان تمرُّدها على السلطنة العثمانية، وهي تجالد مجالدة الأبطال لطرد الأعداء من الأناضول، وزحزحة الخلفاء من دار الخلافة، والله يشهد أن الذي حدا بنا إلى العطف على هؤلاء المتمرِّدين إنما هو الإشفاق على الخلافة العظمى أن تمتد إليها يد المهانة والاستذلال، وهي البقية الباقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأول، وهي العزاء الوحيد الذي كنا نتعزَّى به في نكبات الأيام وصروف الليالي ... عجيب أمر هؤلاء الذين تسلَّلوا في جنح الظلام إلى كهوف الأناضول، وظلوا يهتفون باسم الإسلام حتى حازوا فخار النصر، كيف ارتدُّوا على أدبارهم يحاربون الإسلام بأسوأ أداة ملكتها أيديهم في أعز عزيز على العالم الإسلامي، وهو نظام الخلافة... الخ" [1].

مؤسسة الرسالة. ص:٢/ ٣٧.

(١) كاتب هذا المقال فضيلة الشيخ محمد شاكر [١٨٦– ١٩٣٩] كان من أسرة علياء من

ومن أحسن ما كُتب في تصوير هذا الانحراف مقال مصطفى صادق الرافعي [تاريخ يتكلم] وقد ذهب [١] الرافعي في هذا المقال مذهب الرمز، فزعم أنه رأى فيما يرى النائم أنه صحب حاكماً مجنونًا اسمه [الحاكم بأمر الله]، وهو يرمز بهذا الحاكم لمصطفى كمال نفسه، فدوَّن تاريخه في عشرة أسفار، أخذ يلخِّصها في هذا المقال. فيقول مثلاً في المجلد الثاني من هذا التاريخ، يصف مصطفى كمال في بدء حركته بالغيرة على الإسلام تألفًا للقلوب، ثم انقلابه من بعد حين حين أمكنته الفرصة: "أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه. وكان في ذلك لئيم الكيد، دني الحيلة، يهودي المكر. فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتيا، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها الفقهاء، والمشايخ، وبالغ في إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضُّع لهم، ودخل في ظلال العمائم... وأحضر لنفسه فقيهيْن مالكييْن [اثنين لا واحدًا] يعلِّمانه ويفقِّهانه. وكان أشبه بمريد

أشراف الصعيد. تخرَّج من الأزهر وفي منتصف سنة ١٨٩٤م عُيِّن أميناً للفتوى، وعمل مع مفتي الديار المصرية أستاذه الشيخ محمد العباسي المهدي ثم تدرَّج في المناصب القضائية والتعليمية حتى أصبح وكيلاً للجامع الأزهر سنة ١٩٠٩م، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء، وفي سنة ١٩١٣م عُيِّن عضواً في الجمعية التشريعية، وفي سنة ١٩٣١م أعرض عن الدنيا ولزم داره لمرض الفالج الذي أصابه حتى دعاه مولاه فلبّاه سنة ١٩٣٩م في التاسع والعشرين من يونيه. ومما يجدر ذكره أنه والد العلميْن أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر. كتاب: الأزهر في ألف عام، عبد المنعم خفاجي: ٢/ ٤٢.

(١) هذا كلام صاحب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

مع شيخ الطريقة يتسعَّد به ويتيمن، أشرف ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك.

"وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا اللفافة اليهودية [1] في مخه، تصْلِح بإقراض مئة وفيها نية الخراب بستين في المائة! فإنه ما كان يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلب اللفافة اليهودية رأس المال والربا، فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها وأبطل العيديْن وصلاة الجمعة، وقتل الفقهاء وقتل معهم فقيهيْه وأستاذيْه، وعاد كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة، يقول في نفسه: إن هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحدًا في العيد: الفخ، والعمامة واللحية...!".

"إن هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقته شيئًا واقعًا، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخرابها، ولو استطاع أن يشنق من المسلمين كل ذي عمامة في عمامته، ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة، وهو يعلم أن لهوانه على الله قد جعله الله الذبابة التي تصيب الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل بالحمى، والقملة التي تضرب بالطاعون. فلو فخرت ذبابة، أو تبجحت قملة، أو استطالت بعوضة، لجاز أن يطن طنينه في العالم! وهل فعل أكثر مما تفعل؟".

"ويرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامي خرافة وشعوذة على النفس، وأن محو

---

(١) كان يعتقد أنه من أصول يهودية.

الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق. وأن الإسلام كان جريئًا حين جاء واحتل هذه الدنيا، فلا يطرده من الدنيا إلا جراءة شيطان كالذي توقح على الله حين قال: (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) [ص:٢٨]. ولهذا أمر الناس بسب الصحابة، وأن يكتب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع!".

"أخزاه الله! أهي رواية تمثيلية يلصق الإعلان عنها في كل مكان؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول: أخزاه الله!".

"يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم. وإني لأخشى والله أن يأمر الناس في بعض سطوات جنونه أن كل من كان له أم أو أب بلغ الستين فليقتله. لتخلص الأمة من قديمها الإنساني!".

"كأنه لايعرف إنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ، ويحلم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف . فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيئان. نتن رمته في بطن الأرض ، ونتن أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجل المسلط كالغبار المستطار ، لا يكنس إلا بعد أن يقع" [١].

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. محمد محمد حسين ٢/ ٤٦.

صحـــوة ضمائـــر

صحوة ضمائر

ليس غريبًا أن يتأثر المسلمون بدعاية الذين تـآمروا عـلى السـلطان عبـد الحميـد، وزيَّنوا لهم بأنهم يريدون الأفضل دينًا ودنيا، ثم يتبيَّن لهـم أن هـذا الـذي جـاء لـيس الأفضل، ويتذكَّرون مـا خسـروه في عهـد سـلطانهم، وهـذا الـذي عـبَّر عنـه حـافظ إبراهيم في قوله:

كنتُ أبكي بالأمس منك، فما لي بتُّ أبكي عليك عبد الحميدِ

ولكن الغريب- كل الغرابة- أن يتذكَّر عهد الخلافة والخليفة قوم من النصارى أو من ذراري المسلمين الذين أُشرِبوا حُبَّ حضارة الغرب وثقافتـه وعاداتـه أو مـن الذين اتخذوا القومية العلمانية نهجًا لهم، ولعل من أشهر هؤلاء:

أولاً- خالد العظم [١٩٠٣ ـ ١٩٦٥م]:

من رجـالات سـورية المعـدودين في القـرن العشـرين. شـارك كـوزير في معظـم الحكومات التي تشكَّلت في الثلث الثاني مـن القـرن العشـرين، وتـرأس أول وزارة عـام ١٩٤١م، وكـان آخـر وزارة ترأسـها عـام ١٩٦٢م وكـان رجـلاً فـذًّا في ميـدان الاقتصاد، ساهم في تأسيس الشركة الوطنية لصناعة الإسمنت ومـواد البنـاء وتـولَّى إدارتها منذ سنة ١٩٣٠م. وفي سنة ١٩٣٥م أسَّس الغرفـة الصـناعية بدمشـق وتـولَّى رئاستها حتى سنة ١٩٤٣م، ثم ساهم في تأسيس شركات أخرى.

خالد العظم رأسمالي النزعة، مخالف للاتجاه الإسلامي، ينظر لكثير مـن المشـايخ

والدعاة نظرة سخرية واستصغار، تعاون مع اليمين ثم تعاون مع خصوم شكري القوتلي كالشيوعيين والبعثيين وعدنان المالكي حتى لُقِّب بالميلونير الأحمر.

تحدَّث خالد العظم عن أهم الأحداث التي شهدها أيام طفولته، ومن أهمها إعلان الدستور عام ١٩٠٨م، وكان لا يتجاوز الخامسة من سني عمره، فقال كلامًا نفيسًا ننقله فيما يلي ليتدبَّره القارئ:

"وأما الذكرى الثانية في مخيلتي فهي أصوات المدافع التي أُطلقت في دمشق يوم الانقلاب التركي في ١٩٠٨م. وقيل لي: "أعلنت الحرية..." وطبعًا لم أكن أنا مدركًا ما هي الحرية ولا أهلي كانوا مهتمين بإفهامي كنهها. وقد تعرفت بها فيما بعد، ولمست كم من المظالم تُرتكب في سبيلها.

وأجزم بأن هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بداءة الهزَّات التي استمرت منذ ١٩٠٨م ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الأدنى. فلا تكاد تمضي سنة دون أن يحدث في جزء من هذا الشرق ما يبعث الارتجاج في المجموع: ففي ١٩٠٩م خُلع السلطان عبد الحميد وتولى الاتحاديون الحكم، وفي ١٩١١م استولت إيطاليا على طرابلس الغرب، وفي ١٩١٢م نشبت حرب البلقان، وفي ١٩١٤م انفجرت الحرب العالمية الكبرى ودامت حتى آخر عام ١٩١٨م، وفي ١٩١٩م بدأت مناوشات حربية بين الافرنسيين والوطنيين السوريين استمرت حتى موقعة ميسلون، بتموز ١٩٢٠م، حينما تغلَّب جيش الجنرال غورو ودخل دمشق.

ولم تهدأ سورية خمسة وعشرين عامًا قضتها تحت الانتداب الافرنسي. فكانت أولى المظاهرات ضده في ١٩٢٢م حينما جاء مستر كراين الأمريكي، فاحتشدت الجماهير وأُلقيت الخطب ضد فرنسا وأوقف المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورفاقه. وكانت هذه أولى التفاعلات الشعبية ضد الاستعمار.

وقامت الثورة السورية ضد فرنسا في ١٩٢٥م وظلت تشغل الافرنسيين حتى ١٩٢٦م، ثم أُثيرت المظاهرات على أثر فشل دور تجربة الحكم الوطني الذي أقامه الافرنسيون في ١٩٢٨م. وظلت البلاد تتمخض بالمظاهرات والمناوشات حتى ١٩٣٢م، حين أقام الافرنسيون شبه حكم وطني لم يلبث أن واجه المظاهرات وإقفال المخازن والدكاكين في ١٩٣٣م.

ثم نشبت الثورة في فلسطين ضد الإنجليز واليهود في ١٩٣٥م، وتجدَّدت في ١٩٣٨م، بينما كانت القلاقل تملأ الجو إرهابًا في سورية حتى انفجرت الحرب العالمية الثانية وانقسم الافرنسيون قسميْن، الواحد بقي مخلصًا لحكومته المركزية في فيشي والآخر اشترك مع الإنجليز بمحاربة قوى الجنرال دانتز، الذي دخل دمشق واستولى على سورية ولبنان. ثم انتهى الأمر إلى قيام الحكم الوطني في سورية ١٩٤٣م. إلا أن الافرنسيين لم يُراعوا وعودهم باحترام استقلال سورية فكانت حوادث العدوان في ١٩٤٥م.

ولم يمض على العهد الوطني الذي قام في سورية ولبنان أكثر من عاميْن حتى دخلت قضية فلسطين في دورها الحادِّ، فقررت بريطانيا إلغاء انتدابها وسحب

جيوشها من تلك الربوع. وتدخَّلت الأمم المتحدة بإقرار تقسيم البلاد إلى جزئين خصَّت اليهود بالجزء الأكبر الغني والعرب بالجزء الآخر. واعترض العرب شعوبًا وحكومات ودخلت القوى العربية إلى الأراضي الفلسطينية ودارت بينها وبين اليهود معارك عديدة، فلم تنجح قوانا- لأسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن- في طرد اليهود. وتدخَّلت الدول الكبرى التي اتفقت كلمتها هذه المرة وأجبرت الدول العربية على قبول إيقاف القتال، ثم على توقيع اتفاقات الهدنة.

وفي ١٩٤٩م قام بسورية انقلاب عسكري تزعَّمه حسني الزعيم بناء على تشجيع الافرنسيين والأمريكيين، ثم قام انقلاب معاكس دعمه الإنجليز كاد يلقي بسورية في أحضان العراق لولا قيام أديب الشيشكلي بقلب الحكم القائم وتسلَّم قيادة الأمور. لكنه لم يلبث أن اضطر إلى الهروب من دمشق في ١٩٥٤م، فقام الحكم المدني الديمقراطي حتى أواخر ١٩٥٧م. غير أنه انهار بدوره بتأثير عوامل عديدة لا تُبرِّئ الأمريكيين من التدخل بها. ثم كانت الانتفاضة العسكرية ضد الوحدة في ٢٨ أيلول ١٩٦١م.

وما حدث في سورية رافقته في بقية البلاد العربية حوادث لا تقل أهميةً وتأثيرًا على مجرى التاريخ، لا سيما في مصر حيث قام سعد زغلول بثورته التي استمرت حتى نوال الاستقلال. ثم لجأ عبد الناصر ورفاقه الضباط إلى قلب نظام الحكم بمعاونة الأمريكيين المعنوية. ثم كانت حوادث الهجوم على قناة السويس في ١٩٥٦م وما عقب ذلك من حوادث هامَّة.

وأما في الجزيرة العربية فكانت حرب الهاشميين والسعوديين انتهت باحتلال عبد العزيز بن سعود الحجاز وإلحاقها بمملكته. وكذلك نشبت في العراق ثورات وانقلابات عديدة بدأت بالثورة الوطنية ضد الإنجليز، ثم توالت الانقلابات العسكرية الواحدة تلو الأخرى: بكر صدقي، حكمت سليمان، ياسين الهاشمي، العقداء الأربعة (الصباغ ورفاقه)، نوري السعيد، الكيلاني، الوصي عبد الإله. وهؤلاء كلهم قاموا، واحدهم ضد الآخر، فقُتل أكثرهم وسُجن الباقون، إلى أن انتهى الأمر بقلب النظام الملكي كله على يد عبد الكريم قاسم ورفاقه، فأُبيدت العائلة المالكة وسُجن من بقي حيًّا من الزعماء السياسيين. ثم عقب ذلك ما حصل في الموصل من ثورة عسكرية، تلتها محاولة قتل عبد الكريم قاسم نفسه. وهذا كله لم يضمن للعراق استقرارًا مستمرًّا منذ قيام دولة العراق حتى الآن.

ولئن نعم لبنان بهدوء نسبي فإن الثورة التي قامت في ١٩٥٨م واستمرت طويلاً خدشت سمعة ذلك البلد الذي سعى أبناؤه لإشاعة الهدوء والسكينة في ربوعه. وهكذا ابتلي لبنان بالانقسام الداخلي ومساوئه. ولم ينجُ لبنان من ويلات الانقلابات العسكرية إذ حدثت محاولة لقلب نظام الحكم في ٣١/ ١٢/ ١٩٦١م ولكنها باءت بالفشل.

وأما الأردن فقد نَعِم بقسط من الاستقرار النسبي مدةً أطول من جيرانه، إلا أنه منذ حوادث فلسطين وانضمام المنطقة العربية إليه بدأت مظاهر عدم الاستقرار تتجدَّد عامًا فعامًا. فقُتل الملك عبد الله، ثم تنازل ابنه الملك طلال عن العرش. لكن

حفيده الملك الحسين ظل عرضةً لتيارات سياسية متضاربة جعلت بلاده غير هادئة من حيث الأمن والاستقرار السياسي. فهناك انتخابات ١٩٥٥م، وقيام حكومة النابلسي وسيرها إلى جانب سورية ومصر- والسعودية، ثم ردة فعل الملك حسين بحلِّ البرلمان وإسناد الحكم إلى سمير الرفاعي وهزَّاع المجالي، وسجن العقائديين وتعثر الأمور بين المملكة الأردنية والجمهورية العربية المتحدة، واضطراب الحال حتى اغتيال المجالي. والحقيقة أن وضع الأردن مع سورية والعراق وتأليف دولة عربية قوية على طريقة الاتحاد الفدرالي، وهكذا تكون الأمور عادت إلى نصابها الطبيعي.

ولم تنجُ بلاد فارس من هزات عنيفة بدأت في العصر الحاضر بثورة القائد بهلوي وفوزه بعرش إيران، ثم صدامه مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى خلعه ونفيه إلى إفريقيا حيث توفي. ثم قام مصدّق بحركته الشهيرة التي بذل الأمريكيون والبريطانيون جهدهم لقلب نظامه فنجحوا وتنفَّسوا الصعداء. ثم قامت مظاهرات جديدة وهرب الشاه ثم عاد، ولكنه لا يزال هو ونظام حكمه معرضيْن للانهيار. وفي أفغانستان قامت حركة معادية للأجانب على يد عاهلها أمان الله لم تلبث الدول الكبرى أن قضت عليها بواسطة باجا سقا. لكنه قُتل وعادت الأمور لسيرها الطبيعي.

وباكستان، بعد استقلالها في ١٩٤٧م، لم تستقر فيها الأمور. فقامت ثورة تولاها قائد الجيش الذي سمَّى نفسه رئيسًا للجمهورية. وتركيا كذلك، بعد أن

حاربت اليونان وظفرت باستقلالها وسادت الطمأنينة فيها وسارت في طريق التقدم والرقي، انقسمت إلى فئتيْن: فئة برئاسة عصمت اينونو، وفئة برئاسة عدنان مندريس الذي فاز بانتخابات ١٩٥٠م النيابية وتسلَّم الحكم. لكنه أساء التصرف، فانهارت اقتصاديات تركيا انهيارًا خطرًا. فقام الضباط عليه واعتقلوه وتسلَّموا زمام الأمر ثم أعدموه.

والسودان أيضًا لم تُحرم من انقلاب تولَّى العسكريون بنتيجته شؤون الحكم برئاسة الفريق عبود في ١٩٥٨م.

فإذا التفتنا حولنا في بلاد الشرق الأدنى، بحالته الحاضرة، رأينا حكومات عسكرية مستبدَّة تسيطر على أجزائه: تركيا ورئيسها الجنرال غورسيل، ولبنان ورئيسه فؤاد شهاب، والجمهورية العربية المتحدة ورئيسها البكباشي جمال عبد الناصر، والعراق ورئيسه اللواء عبد الكريم قاسم، والباكستان وعلى رأسه الجنرال أيوب خان. أما الدول الأخرى فتُحكم بطريقة لا تختلف عن الطرق المتَّبعة في البلاد المذكورة من حيث النظام الرئاسي الاستبدادي وهي لم تنجُ من عدم الاستقرار، رغم أن الحكم فيها حكم عسكري غير شوري باستثناء إسبانيا والبرتغال. والفضل في هذيْن البلديْن يرجع إلى عقلية فرانكو وسالازار وطبيعة الشعبيْن الإسباني والبرتغالي.

ويبدو أن الحكم العسكري الذي استشرى في الشرق الأدنى انتقلت عدواه من أمريكا الجنوبية، حيث لا يستقيم الحكم لجنرال أو قائد حتى يقلبه زميل له، وهكذا

دواليْك.

ولعل للغيرة والحسد أثرهما في اندفاع القواد العسكريين إلى الطموح للقبض على زمام الأمور واغتصاب السلطة، سواء من الحكام المدنيين أو من زملائهم العسكريين الذين سبقوهم في هذا المضمار.

وبأكثر الحالات، يسبق الانقلاب العسكري تردي الأمور الداخلية في البلاد، نتيجةً لتزاحم المدنيين على الحكم ولجوئهم إلى إساءة استعمال صلاحياتهم، حرصًا منهم على استبقاء دفة الأمور في أيديهم. فتنتشر الفوضى ويعم التبرم والاستياء، فيهرع ضابط مهووس أو جماعة من صغار الضباط إلى عزل السلطة المدنية عن الحكم والحلول محلها، حاسبين أنهم بأسلوبهم الحديدي، وبما اعتادوا عليه من إصدار الأوامر التي لا مرد عليها لجنودهم، يستطيعون إملاء إرادتهم على مجموع الشعب. وهم يعتقدون أن إدارة سياسة الدولة، داخليًّا وخارجيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا، أمر سهل كإدارة حسابات فرقة عسكرية أو تمرين كتيبة على السير وأخذ التحية أو إطلاق الرصاص. وأولئك الضباط- خصوصًا في بلدنا- الذين هربوا من المدارس الرسمية لعجزهم عن الحصول على شهاداتها والتجأوا إلى المدرسة العسكرية حيث لا تزيد مدة الدراسة فيها عن سنتين، ثم بدأوا يعلقون النجوم والنسور على أكتافهم بسرعة خاطفة، ظنوا أنهم يخدمون بلدهم باستيلائهم على قيادة البلاد وبإبعاد المُجرَّبين من المدنيين الذين مارسوا صناعة الحكم طويلاً وكانوا على علاتهم أكثر خبرةً ودرايةً من هذه الطبقة اليافعة.

وفي جملة الأسباب الأساسية التي أدَّت إلى الانقلابات العسكرية كان ابتعاد الشعب وزعمائه عن الرضوخ لمطلب الدول الاستعمارية وقبول اقتراحاتها المؤدية إلى ربط مصير الأمة الصغيرة بالدولة الكبيرة. فعندما يعجز عملاء تلك الدولة عن تسيير البلد في مثل هذا الاتجاه يعمدون إلى إغراء بعض الضباط للقيام بانقلاب عسكري يوقف، على الأقل، الاتجاه المعاكس لرغبة تلك الدولة، إذا هو لم يوجِّه الأمور في مصلحتها.

طبيعي أن جميع الضباط المشتركين في الانقلابات ليسوا عملاء للأجانب ولكنهم يُخدعون بمظاهر الأمور، وبما ينفخه فيهم بعض رفاقهم من روح الحماس الوطني فيصبحون آلةً تلعب بهم الأيدي المُلوَّثة، ثم لا يلبث أكثرهم أن يفهم الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان".

ثانياً – فارس الخوري [١٨٧٧ – ١٩٦٢م]:

هو فارس بن يعقوب بن جبور الخوري، من عائلة نصرانية أرثوذكسية، ولكن جده جبور صار بروتستنتي المذهب، وفارس أصبح كجده بروتستنتيًّا. لم يبلغ نصراني من المكانة ما بلغه فارس الخوري في سورية، فكان رئيسًا للوزراء أكثر من مرة وكذلك كان رئيس المجلس النيابي، ومن الأعمال التي شغلها أيضًا: أستاذ القانون في كلية الحقوق بجامعة دمشق، ممثل سورية في الأمم المتحدة، وكان رئيسًا لنقابة المحامين. وتولَّى رئاسة مجلس الأمن سنة ١٩٤٧م، ومن قبل كان عضوًا في مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩١٤م. من عباقرة عصره في كثير من فنون العلم

والمعرفة.لفارس الخوري قصيدة في هجاء السلطان عبد الحميد إثر خلعه سنة ١٩٠٩م، قال في مطلعها:

الله أكبر فالظّلام قد علموا لأي منقلب يفضي الألى ظلموا

لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتفضت أركانه وتولَّت أهلَه النقمُ

مختلف القوى العالمية كانت تعاضد اليهود

وما لبث أن أعلن ندمه، فقال:

"الواقع أن اليهود كانوا يستخدمون مختلف القوى العالمية على ما بينها من تناقض وخلاف وتنافس لمعاضدتهم ومساندتهم من أجل احتلال فلسطين تمهيدًا للتوسع فيها على حساب سكانها العرب وليقيموا دولتهم التي يمنُّون نفوسهم في أن تضم ما بين الفرات والنيل. ومساعيهم في هذا السبيل قديمة... ويخطئ من يظن أن انتصار الدول الحليفة في الحرب العالمية الأولى هو الذي أدَّى إلى نكبة فلسطين لما رافقه من صدور وعد بلفور في أثنائه، لأن اليهود، في الوقت الذي كانوا فيه يفاوضون هذا الوزير البريطاني لكي يقطع لهم وعده المشهور... كانوا في الوقت نفسه يتَّصلون بالقيصر الألماني غليوم الثاني من أجل الغاية نفسها... وقد انتهز القيصر المذكور زيارة الصدر الأعظم طلعت باشا لبرلين في عام ١٩١٦م وعرض عليه مشروع إعطاء اليهود وطنًا قوميًّا في فلسطين، ولما عاد رئيس الوزارة العثمانية إلى الأستانة دعا نوَّاب القدس في مجلس المبعوثان لأخذ رأيهم فيه فرفضوه... وما يدرينا لو كانت ألمانيا هي المنتصرة في تلك الحرب... إلى أي حد ستضغط على

حليفتها الدولة العثمانية لتحقيق مثل هذا الوطن القومي الذي يحلم اليهود به.

عبد الحميد الثاني... ضحية ثأر اليهودية العالمية

وقال فارس الخوري:

" لم أندم في حياتي على شيء ندمي على (القصيدة) التي نظمتها إثر إعلان الدستور العثماني وهجوتُ بها السلطان عبد الحميد الثاني حيث تأكَّد لي فيما بعد بما لا يقبل الجدل أن هذا الخليفة الإسلامي قد راح ضحية ثأر اليهودية العالمية التي ساءها رفضه لاقتراح تيودور هرتسل واتخاذه مختلف الوسائل لمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين ووضعه قانون (الجواز الأحمر) الخاص بكل يهودي يدخلها للسياحة والزيارة، ومنعه إياهم من تملك الأراضي، مما أدَّى لحنقهم عليه، وشروع منظماتهم بالعمل مع الدول الاستعمارية على مناوأته شخصيًّا وعلى كيان الدولة العثمانية يوم اتخذوا من مدينة (سلانيك) وكرًا رئيسيًّا لدسائسهم ومؤامراتهم لأن هذه المدينة تضم عددًا كبيرًا من (الدونمة) اليهود الذين انتحلوا الإسلام وتظاهروا باعتناقه والعمل له وتغلغلوا بواسطة ذلك في مختلف وظائف الدولة العثمانية حتى تمكَّن فريق منهم بلوغ أعلى المناصب، فكان منهم الوزراء والنواب والصحفيون والكتَّاب والأساتذة والتجار... وكان أحد الثلاثة الذين انتدبهم مجلس المبعوثان العثماني لإبلاغ السلطان عبد الحميد الثاني قرار خلعه عن العرش، نائب يهودي

يُدعى (عمانوئيل قره صو أفندي) [1].

ثالثاً - أحمد الشقيري [١٩٠٨ – ١٩٨٠م]:

ولد في بلدة تبنين- جبل عامل- فلسطيني: محامي. دبلوماسي. سياسي. إعلامي.

- تولَّى إدارة مكتب الإعلام في واشنطن.

- عيَّنته الحكومة السورية عضوًا في بعثتها إلى الأمم المتحدة ما بين [١٩٤٩ – ١٩٥٠م]، ثم عُيِّن أمينًا عامًا مساعدًا للجامعة العربية بعد أن منحته الحكومة السورية الجنسية السورية وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٧م.

- عيَّنته الحكومة السعودية ممثِّلاً لها لدى الأمم المتحدة ما بين ١٩٥٧ – ١٩٦٣م.

- في سنة ١٩٦٤م أعلن عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، ثم انتُخب رئيساً للجنة التنفيذية، وتمَّ ذلك بدعم من جمال عبد الناصر الذي أراد أن يحارب الحاج أمين الحسيني بأمثال الشقيري.

- في سنة ١٩٦٧م استقال أو أُقيل، ولم يكن عبد الناصر بعيدًا عن هذا القرار، لأن الدور الذي جاء من أجله الشقيري قد انتهى، ولم يزاول أي عمل بعد هذه الاستقالة.

---

(١) انظر كتاب: فارس الخوري وأيام لا تُنسى لمؤلفه محمد الفرحاني.

كان والده أسعد الشقيري مفتيًا للجيش الرابع العثماني، وأحد أبرز رجالات الاتحاد والترقي، ومن خواص بطانة جمال باشا- السفاح- كما كان متَّهمًا بأنه وراء الإيقاع بعدد من كبار رجالات العرب.

الولد أحمد يقول عن أبيه:

"ولم أكن أكره الحاج أمين كما كان والدي" (١).

ولكن الذي يقرأ ما كتب عن الحاج أمين يتبيَّن له أنه كان يكرهه أكثر من والده إلا أنه يزيِّن عبارات النيل منه بغطاء شفاف خادع، فلو كان صادقًا في دفاعه عن القضية الفلسطينية لوجب عليه أن يكون محبًّا لرجل مثل الحاج أمين الذي لم يساوم ولم يبع ويشتر بالقضية الفلسطينية.

في صحوة ضمير لأحمد الشقيري يقارن بين حالنا أيام الخلافة والخليفة وحالنا اليوم، فيقول:

مذكرات عن المذكرات

في هذا الكتاب سيرة مواطن عربي عاش الحياة العربية العامة، فسار في موكبها وتمرَّس بأحداثها، وساهم في صنع وقائعها، عبر حقبة حافلة، امتدَّت قرابة أربعين عامًا، ويزيد...

وقد شاء طموحي في الحياة، وشاءت معه ظروف وأقدار أن يكون لي دور في

(١) الأعمال الكاملة لأحمد الشقيري. المذكرات ١/ ١٣١. مركز دراسات الوحدة العربية.

الحياة السياسية على الصعيديْن العربي والدولي، ومن هنا غدت هذه "المذكرات" سيرةَ جيل بكامله، لا سيرة مواطن فرد، أو إنسان واحد... وما هو أهم من ذلك أصبحت هذه "المذكرات" ملكَ التاريخ العربي، وعلى صعيد النضال القومي ملك الأجيال الصاعدة والأجيال التي تتصاعد بعدها...

وكذلك شاءت الأقدار أن يكون مولدي، ومولد جيلي معي، في أخريات الدولة العثمانية لنشهد بعدها عهد الاحتلال الأجنبي، ثم عهد الاستقلال الوطني... ويطغى على هذا وذاك عهد الخطر الصهيوني...

ولقد واكبتُ هذه العقود كلها طفلاً، فصبيًّا، فشابًّا، فرجلاً، فكهلاً... فأصبت بنصيب منها، فعشت أيامها البهيجة والشقية، وكان أبهجها مواكب الاستقلال، وأشقاها كارثة حزيران، بأسبابها وعواملها... ولا تزال قائمةً...

وكانت هذه العهود غنيةً بالعظات والعبر، عرفتها وعرفها جيلي معي، بالممارسة والمعاناة، لا بالتفكير والتدبير، فقد كنا في مطلع هذا القرن أمةً "مبتدئةً" في الحياة الدولية...وأحسب أننا لا نزال...

وها أنا أجلس الآن في مكتبي، فأتوغَّل على مدى عشرات السنين، في أخاديد ذاكرتي، وسراديب طفولتي الباكرة، فأرى كأني أرى الآن، وأسمع كأني أسمع الآن...

أرى العجائز الطيبات، وأنا بينهن، يجلسن القرفصاء، بملابسهن المهلهلة حول "الطبلية" المستديرة الكبيرة، وهنَّ ينتقين القمح من حَبِّ "الزوان" قبل إرساله إلى

المطحنة... ثم أستمع إليهن وهنَّ يتحدثن أحاديث الفراغ عن شؤون المدينة وأهلها، رجالها ونسائها... هذا تزوَّج، وتلك طُلقت... وهذا مات في سنة الكوليرا... وذاك وُلد سنة الحرية...

ومع الأيام تداولت "سنة الحرية" على سمعي، فما جرى حوار في بيتنا عن أعمار البنات والصبيان، إلا والعجائز الطيبات يحتكمن إلى "سنة الحرية" يؤكدن أن "فاطمة" وُلدت قبل الحرية بعام، وأن "محمدًا" وُلد بعد الحرية بعاميْن...

ومع الأيام كذلك تداولت سمعي إلى جانب "الحرية" تعابير أخرى: "المشروطية"، و "الدستور"، و "حزب الاتحاد والترقي"، و"حزب الائتلاف". وقد زاد من اهتمامي بهذه التعابير الغريبة على صباي، أنني وُلدت في سنة الحرية (١٩٠٨) كما تحدَّثت لي العجائز الطيبات عن الأيام الخوالي...

وتوالت الأيام بعد ذلك، ودارت في "ديوان" بيتنا الأحاديث، وكلها تدور حول هذه التعابير، فأخذتُ أفهم معناها ومداها...

وبدأتُ يومئذ أعرف التاريخ بالرواية والسماع، قبل أن أعرفه بالدرس والاطلاع، تمامًا كما يفعل الأسلاف من الآباء والأجداد.

وفي هذا "الديوان" عرفت أن رجال "تركيا الفتاة" من أمثال طلعت وأنور وجمال وجاويد قد قاموا بانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني فأعلنوا "الحرية" ووضعوا الدستور وأقاموا "الحكومة المشروطية" وأسَّسوا حزب "الاتحاد والترقي" ليكون شعارًا لاتحاد العنصريْن الكبيريْن في الدولة العثمانية: الترك

والعرب.

وعرفت في هذا الديوان كذلك أن والدي كان من الأعضاء البارزين في حزب "الاتحاد والترقي"، وأن فريقًا آخر من أعيان بلدي – عكا – كانوا ينتمون إلى حزب آخر يُعرف بحزب "الائتلاف"، وهو يهدف إلى مجرد ائتلاف بين الترك والعرب... وكان عبد الفتاح السعدي – عمي (حموي) فيما بعد – كبير الائتلافيين في عكا.

وانتهى عهد الدولة العثمانية بانتهاء الحرب العالمية الأولى، ودخلت في عهد القضية العربية دون أن أنتمي إلى حزب والدي ولا إلى حزب عمي، فقد كان الشعار الذي انطلق في بيوتنا وشوارعنا ونوادينا ومقاهينا: الاستقلال التام الناجز في إطار الوحدة العربية...

ولكن الحوار بين "الائتلاف" و"الاتحاد" بقي زمنًا طويلاً بعد زوال الحكم العثماني وسقوط الخلافة الإسلامية... ولقد شهدت هذا الحوار واشتركت في ندواته وحلقاته...

وكان هذا الحوار يدور حول السؤال الكبير: الوحدة الإسلامية أم الوحدة العربية؟ وكان والدي من أنصار الأولى، على حين كان عمي من أنصار الثانية، وهكذا انقسم رجال العرب في كل أقطار العرب...

وجاء عهد الانتدابات على ديار الشام وأطلت الحركة الصهيونية برأسها... وشهدتُ في "الديوان" الاتحاديين والائتلافيين يأتلفون ويتَّحدون في وجه الأجيال

الصاعدة، وأنا واحد منهم... وبدأ حوار جديد حول سؤال جديد: أيهما كان خيرًا للأمة العربية: البقاء مع الدولة العثمانية أم السير في ركاب الحلفاء؟

وراح بقايا الدولة العثمانية يندبون زوال دولة الخلافة الإسلامية، وينعون على الشريف حسين أمير مكة وأنصاره تحالفهم مع بريطانيا "عدوة العرب والإسلام".

وكنت أستمع إلى والدي في الديوان وهو يتحدَّث بحرارة المؤمن المنافح عن أيام "الباب العالي" في استنابول، وعن الموقف الشهير الذي وقفه السلطان عبد الحميد في رفضه استقبال "هرتسل" مؤسس الصهيونية، حتى جاء الآستانة يقدم العروض المالية المُغرية، سعيًا وراء تحقيق حلمه الرهيب...

وكنا نحن الأجيال الصاعدة نقف في الطرف الآخر من هذا الحوار... ونرى في حركة الشريف حسين عهدًا مباركًا... وأن الحلفاء لابد أن ينجزوا وعودهم، ولابد أن "يمنحونا" الاستقلال والحرية في ظلال الوحدة العربية...

وانطفأ هذا الحوار في ما بعد، فقد مات " العثمانيون " من جيل والدي، وضاع الحديث حوله في زحمة الأحداث، وغاص جيلنا إلى الأذقان في مكافحة الانتداب الأجنبي، ونشدان الاستقلال.

ولكن هذا الحوار عاد وأفاق مرة ثانية... لقد استيقظ في نفسي بعد أربعين عامًا، بعد هزيمة حزيران النكراء... وعاد السؤال القديم: أيهما أفضل، البقاء مع الدولة العثمانية، أم السير في ركاب الحلفاء؟

ورجعت إلى نفسي، إلى هذا السؤال القديم، وقررت، وأنا أستعرض مسيرة العدو الصهيوني في خلال خمسين سنة خلت، أن جيلنا كان على خطأ فادح، وأن الحكم العثماني بكل مخاطره التي أعرفها، أفضل من هذه "الاستقلالات" العربية، وهذه الدويلات المنكسرة، وقد هزمتها الصهيونية في حروب ثلاث، وهي الآن مركِّزة مدافعها على ضفاف النيل والأردن وسفوح الجولان، فاغرة أفواهها صوب العراق والكويت والسعودية ولبنان.

ولعلي ما كنت أرتضي لنفسي هذا الاعتراف، لو أني أرى "الوحدة العربية" أملاً قريبًا، فالصهيونية العالمية وفي طليعتها إسرائيل قوة ديناميكية هائلة، لا يمكن أن يقف أمامها إلا وحدة عربية، لها جيش واحد، على رأسه دولة اتحادية واحدة... دولة واحدة حول إسرائيل على الأقل... وبدلاً من أن نظل نردد أن شعار إسرائيل من النيل إلى الفرات، علينا أن نقيم دولة الوحدة من النيل إلى الفرات...

إنه اعتراف خطير من غير شك، يحتاج بحثه ومناقشته إلى كتاب مستقل... ولكن أنَّى للتاريخ أن يعود إلى الوراء...!

ولم تكن هذه المخاوف تساورنا في أوائل العشرينات، بعد أن فرض الانتداب على بلادنا في المشرق العربي، لأسباب عرضتها في مذكرات... بل إن جيلي كانت له أحلام كبار لعلها أقرب إلى الخيال... ولكنها كانت تراودنا على كل حال... ومن حق الأجيال الناشئة أن تعرفها، لتدرك في أي فلك كانت تسبح خواطرنا... وفي أي هوة سحيقة وقعنا بعد نصف قرن من الزمان...

كنا يومئذ طلابًا في المدارس نحفظ الشعر، وننشده بنبرات أصواتنا وإشارات أيدينا... وكان أساتذتنا يحرصون أن يكون للشعر الأندلسي وتاريخ الأندلس نصيب مما نحفظ ونروي... بل إن أساتذتنا قد حلَّقوا إلى آفاق رائعة جميلة، لابد أن تستردَّ الأندلس... إنها وطننا الذي مكثنا فيه ثمانية قرون، وأنشأنا حضارةً ومجدًا، و... و... فلابد أن "نحرر" الفردوس المفقود...

ولقد عشتُ هذه الأماني، ومعي جماهير الطلاب، بكل جوارحنا... ثم امتدت الأيام وتعاقبت الكوارث... وقُدِّر لي أن أعيش في خضم النكبات، فضاع الفردوس الموجود، ونحن نتعلل بالفردوس المفقود... وانقلبنا من تحرير الأندلس إلى تحرير فلسطين... ثم إلى تحرير سيناء والجولان.

أجل لقد عشتُ هذه الحقيقة كلها، وولدت مع مولدها. ونشأت مع نشوئها... وكبرت معها... وتمنيت أني ما ولدت فلا تولد... وما كبرت فلا تكبر.

لقد ولدت في وطني وكان اليهود لا يتجاوزون (٥٠) ألفًا وها أنا اليوم أكتب مذكراتي لأرى اليهود وقد تضاعفوا خمسين مرة... وأصبحوا ٢,٥ مليونًا، في نسبة فذَّة فريدة، لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لها.

لقد ولدت في وطني ولم يكن اليهود يملكون فيه أكثر من اثنين في المئة، اشتروها من مالكين غائبين خلال خمسين سنة خلت... وها إني أراهم اليوم وقد "ملكوا" فلسطين من البحر إلى النهر، وأضافوا أضعافها في سيناء والجولان...

لقد ولدت في وطني، والحكايات تملأ سمعي عن جبن اليهود، وكيف كانوا

يفرُّون من وجوهنا حين نسير في الشوارع والساحات... ثم امتدَّ بي العمر لأسمع الطائرات الإسرائيلية تقصف مدننا وقرانا، وتشتت شعبنا، وتنهب ثرواتنا، وتصادر كرومنا ومزارعنا، وتسرق كنيسة القيامة، وتمضي في الحفر تحت المسجد الأقصى.

وقبل أن يستفحل الخطر الداهم بسنين، كنا، أنا ووديع البستاني الشاعر اللبناني الفلسطيني، نتشاكى أيامنا المكفهرة في فلسطين، فانطلق ينشد عن نفسه:

غنَّى العروبة دهراً وعاش حتى رثاها

ولست أدري ما يقول "البستاني" لو أنه عاش ليرى ما أرى وليسمع ما أسمع...

ثم عشت عهد الحكم البريطاني الذي كرَّس نفسه ثلاثين عامًا لإقامة الوطن القومي اليهودي تمهيدًا لإنشاء إسرائيل... فشهدت أفواج الهجرة اليهودية تطغى على بلادنا... وشهدت جلاء الفلَّاحين العرب عن قراهم ومزارعهم... وشهدت المظاهرات الدامية يتساقط فيها الشهداء والجرحى... وخرجت من سجن إلى سجن، ومن معتقل إلى معتقل مع الآلاف من أبناء شعبنا... وعلى الجملة فقد عشت خمس عشرة ثورة خاضها شعبنا البطل بكل بسالة وإيمان...

وانتهت "مسيرتي" الفلسطينية في ١٩٤٨م، لأكون في الساحة العربية مستشارًا للوفد السوري، ولأشهد الحرب العربية الإسرائيلية التي أُعدَّت لهزيمة الأمة العربية...

وبحثت في أعماق نفسي عن أسبابها، وتجاوزت عما أُذيع ونُشر، فلم يكن السبب فساد السلاح... بل كان السبب ولا سبب سواه... فساد الخلق القومي في الحكم العربي... وتذكرت حينذاك حدثًا مررت به في يومه مرور الكرام.

تذكَّرت ونحن في شرخ الشباب، قد خرجنا من عكا في أوائل الثلاثينات إلى الحدود السورية لاستقبال السيد ياسين الهاشمي- الزعيم العراقي المعروف- وسرنا به في موكب فخيم إلى عكا، وسار معنا بهدوء ورصانة، وعلى رأسه "فيصلية" من القماش العراقي الخشن... وأذكر أنني خطبت بين يديه خطابًا توقعت بعده أن أسمع منه خطابًا وطنيًّا مليئًا... ولكن ياسين الهاشمي قد خيَّب ظني، فلم يهتز لروعة الاستقبال ولا لروعة الخطاب... ووقف ليقول: "لابد أن نبني الخلق القومي في الحكم العربي أولاً وقبل كل شيء... والسلام عليكم"...

كنا في ذلك العهد في عنفوان الشباب، قلوبنا قفزت من صدورنا واستقرت في رؤوسنا تتبوأ مكان عقولنا... فلم يعجبنا كلام الهاشمي.

غير أني فهمت كلام ياسين الهاشمي بعد خمسة عشر عامًا، حينما كنت في الساحة العربية على مقربة من الملوك والأمراء في زهراء أنشاص، ومع الرؤساء والوزراء والسفراء في ردهات الجامعة العربية وترحَّمت يومها على ياسين الهاشمي، فقد رأيت بعيني وسمعت بأذني كيف أن الحكم العربي لم يكن يتحلَّى بالخلق القومي فكانت الكارثة وكانت إسرائيل...

وعلى الساحة العربية شهدتُ مولد الجامعة العربية.. وقد أسهبت مذكراتي

كيف أنها وُلدتْ كبيرةً جدًّا ثم أصبحت صغيرةً جدًّا.. وكيف عشت فيها سبع سنوات ثم خرجت منها دون أنجز فيها إلا تعيين بعض الموظفين وإعداد بعض الدراسات... وها إني أراها اليوم تحتفل بعيد ميلادها الثاني والعشرين ولم تنجز شيئًا، فلا هي كونفدرالية ولا فدرالية ولا حتى "أمم متحدة"، فلم تستطع دولها أن توحِّد شيئًا، أو تنسِّق أمرًا... حتى شهور السنة قد حاولت توحيدها في بداية نشوئها، وها نحن بعد ربع قرن من الزمان لا نزال نكتب فبراير، وشباط، وذو الحجة... ولو سُئلنا عن السبب أوردنا ألف حجة وحجة...

وعلى الساحة العربية شهدت المحاولات "التعيسة" للوحدة العربية... كنت فيها في مؤتمر الاسكندرية ١٩٤٤م حين قدَّم الوفدان العراقي والسوري مشروعيْن لقيام دولة اتحادية... وكنت فيها عام ١٩٥٥م، يوم بُحث أمرها في إحدى ليالي مؤتمر باندونغ بين عبد الناصر وخالد العظم. وكنت على مقربة من قيام الوحدة بين سوريا ومصر، ثم وقفت منكِّسًا في ساحة الأمم المتحدة في نيويورك وأنا أرى العلم السوري يرتفع على ساريته، يوم الانفصال... على أني كنت بكيت فرحًا يوم ارتفع العلم السوري في ساحة المرجة، في نيسان ١٩٤٦م في يوم الاستقلال... وأنا أجلس قريبًا من صانعي الاستقلال: شكري القوتلي وجميل مردم وفارس الخوري وإخوانهم.

وليست الوحدة العربية عندي وعند أي مواطن عربي، خطبةً كما يفعل الملوك والرؤساء، ولا شعرًا كما ينشد الشعراء، ولا أغنيةً كما يغني المطربون... ولكنها

حقائق... تفرح لها أو تفجع، في أبسط مظاهرها...

وإني لأذكر تلك الأيام التي كنا نسافر فيها زمن الدولة العثمانية، في أرجاء الوطن العربي، فلا نحمل جوازًا، ولا يعترضنا أحد، ولا يفتش حقائبنا أحد... وجاء عهد الانتدابات الأجنبية في المشرق العربي، فأقام الاستعمار "أكشاكًا" خشبيةً على المخافر والحدود، استمرت قرابة ثلاثين عامًا في عهد الاحتلال. ثم جاء عهد الاستقلال، فانبرى الحكم العربي المعاصر، وراح يهدم الأكشاك الخشبية وأقام مقامها مباني من الحجارة الصَّماء... وأذكر أن وفدًا من أبناء فلسطين قد طلبوا إلي أن أُثير هذا الموضوع في مؤتمر القمة... فقد ذكروا لي أن المواطن القادم من الكويت إلى لبنان بالسيارة يتعرَّض للتفتيش تسع مرات... فقلت لهم: "تجنَّبوا السفر من الكويت إلى لبنان... سافروا في أوروبا كلها. بين لندن وأثينا"... شر البلية ما يضحك.

ومرة أخرى شكا إليَّ وفد عربي أن البريد بين هذه العاصمة العربية وتلك يستغرق ثلاثة أسابيع... بل لعله في المدينة الواحدة يستغرق بضعة أيام... لقد طلبوا إليَّ كذلك أن أثير هذا الموضوع في مؤتمر القمة، قلت لهم: "خير لكم أن تدعوا الله أن يبعث إليكم الظاهر بيبرس من مرقده"... قالوا: " لماذا؟" قلت: "الظاهر بيبرس جعل البريد أربعة أيام بين دمشق والقاهرة، ولم تكن عنده طائرات ولا وزارة مواصلات... ولا جامعة عربية، ولا مؤتمرات قمة"... ومرة أخرى ضحكوا، وشر البلية ما يضحك.

وعلى مدى عشرين عامًا (١٩٤٨ – ١٩٦٨) كانت قضية فلسطين القنبلة الصاروخية التي تساقطت شظاياها في عدد من العواصم العربية فأحدثت الثورات والانتفاضات، وبعضها انقلب بعضه على بعض... ولقد حققت هذه الثورات كثيرًا من الإنجازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكنها لم تحقق الإنجاز الكبير للقضية الكبرى التي قامت من أجلها، وهي قضية فلسطين... بل جاءت هزيمة حزيران ١٩٦٧م لتصيح بأعلى صوتها أن الأمة العربية لا تزال في حاجة إلى "الثورة الأم" الثورة العربية الشاملة، فتضم في أكنافها الثورات السابقة وتقدِّم للحياة العربية المعاصرة، الحكم العربي الجديد والمواطن العربي الجديد...

ومن الميدان العربي قفزتُ إلى الميدان الدولي، فدخلتُ الأمم المتحدة رئيسًا للوفد السوري، ثم رئيسًا للوفد السعودي، وامتدَّ عملي فيها خمسة عشر عامًا، وأنا أدافع مع الوفود العربية عن القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين... ودخلت في معارك ضارية أُجابه الاستعمار بلا هوادة... وتصديَّت للملك جورج السادس وللرؤساء ترومان وأيزنهاور وكينيدي وديغول، ووزرائهم وسفرائهم، في حوار قاسٍ عنيف، فلم يستريحوا منه ومني إلا يوم انتهى عملي في الأمم المتحدة عام ١٩٦٢م، لأسباب وظروف سيأتي إيضاحها.

وواكبت في هذه الفترة حركات التحرر في العالم، ورحتُ أبحث عن كل قضية حيثما وجدتها دفاعًا عن أوطان الشعوب، وثأرًا لوطني المغلوب...

وفي غمرة هذا العراك بكَّرت في التحالف مع الوفود الشيوعية وعلى رأسها

الوفد السوفياتي، في وقت كانت ترتجف أعصاب الحكام في العالم العربي إذا أعلن أي مندوب عربي تضامنه مع الوفد السوفياتي ولو على حق...

وختمتُ سيرتي في الأمم المتحدة باستقلال الجزائر، ووقفت على منبر الأمم المتحدة أشيد بانتصار الحرية، كما فعلت قبل ذلك بالنسبة إلى المغرب وتونس وليبيا.

وفي خريف ١٩٦٢م عدتُ إلى غير الوطن الصغير، إلى الوطن الكبير، وقلبي عامر بالبهجة والأسى، البهجة لما أديت من واجب تجاه القضايا العربية بأسرها، والأسى لأني فشلت في قضية فلسطين... ولو أن قومي أنطقتني رماحهم لما فشلت...

وحسبت أني بانتهاء "وظيفتي" في الأمم المتحدة سأخلد إلى القراءة والكتابة وهما نعم الحياة من المهد إلى اللحد... وبدأت أبحث عن جليس... وخير جليس في الزمان كتاب...

وهكذا رحت أجلس مع نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون، الذين حرَّروا فلسطين وسائر ديار الشام أثناء الحروب الصليبية...

ولكن الظروف حرمتني هؤلاء الجلساء لأكون جليس الملوك والرؤساء في مسيرة الهزيمة والنكبة، في مؤتمرات القمة، من القاهرة إلى الإسكندرية إلى الدار البيضاء إلى الخرطوم... إلى أن انسحبت واعتزلت هذه المجالسة، وتلك سيرة خطيرة ومسيرة مثيرة، ستكون موضوع كتابي الثاني، أرجو أن يرزقه الله فيضًا من الشجاعة لنشره... الشجاعة بالنسبة إلى غيري، فإنها بالنسبة إلى ذاتي متوفرة

والحمد لله...

هذه ملامح مذكراتي في صورتها العامة... إنها ليست مرجعًا تاريخيًّا، ولا دراسةً سياسيةً، ولا خطةً قوميةً، ولا كتابًا أدبيًّا إنسانيًّا، ولكنها مزيج من كل ذلك...

ولقد كتب الأمير الشاعر الفارس أسامة بن منقذ مذكراته في كتابه [الاعتبار]، في زمن الحروب الصليبية... فكان كذلك مزيجًا من كل ذلك، ولعل هذه طبيعة النفس البشرية وهي تتململ من الهزيمة لتتهيأ إلى النصر...

هذه المذكرات هي "ولدي" السابع... مع فارق واحد: أن أبنائي ساهمت في صنعهم عوامل الإرث والبيئة وأسرار أخرى لا نعرفها...

أما هذه المذكرات فقد صنعتها كما اخترت وأردت.

وأرجو أن يكون مكانها في مكتبة التحرير، في فلسطين، تمجيدًا لبطولات شعبنا البطل، وبسالات أمتنا الباسلة...

ونحن نعيش في هذه الأيام أروع هذه البطولات والبسالات... مع الفدائيين والفدائيات في كفاحهم المجيد من النهر إلى البحر...". أحمد الشقيري تموز/ يوليو سنة ١٩٦٩م.

النكبـــــة

ويل لسايكس وأخرى لبيكو

كنا قبل ثلاثين عامًا من النكبة بلدًا واحدًا، وكانت بيننا وشائج جوار وقربى. كانت القرى الشمالية الشرقية من فلسطين تبعد عن تسيل مسافةً لا تتجاوز ثلاثين ميلاً، والقرى الشمالية من الأردن لا تبعد عنا أكثر من عشرة أميال، بينما تبعد عنا دمشق- وهي أقرب المدن السورية إلينا- سبعين ميلاً، وحلب أكثر من مئتين وخمسين ميلاً، ودير الزور أكثر من ست مئة ميلاً. هذه واحدة.

أما الثانية، فلم يستوطن تسيل أحد من دمشق أو غيرها من المدن السورية، بينما استوطن فيها [1] فلسطينيون وأردنيون، وأذكر على سبيل المثال: أبو عودة، أبو شوشة، النابلسي وهم أكثر من عائلة وليسوا أقاربًا، القدسي، المشرقي. فملكوا الأرض وصاروا كغيرهم من أهل تسيل سواءً بسواء، أما اللهجة فواحدة لا يميِّزها إلا ابن المنطقة.

أما الثالثة، فلقد كانت فلسطين سوقًا جيدةً لليد العاملة من أهل حوران بسبب المشاريع الزراعية والمؤسسات الاقتصادية التي كان ينشئها الإنجليز واليهود بدعم من يهود العالم، وكانت اليد العاملة تكثُر عندما تمرُّ البلاد بسنوات قحط، وتقلُّ عندما تكثر الأمطار فينشغل الناس بزراعة أرضهم.

هذه الأسباب الآنفة الذكر وثَّقت المعرفة بين أبناء هذه المنطقة، فأهل قرية

(١) كان ذلك قبل عام ١٩٤٨م بأكثر من خمسين عامًا.

نمرين عندما لجأوا إلى تسيل كان لهم فيها أبناء عمومة، وقريب من هذا أهل لوبيا وسمخ وعرب الصبيح.

استقبل أهل تسيل هؤلاء جميعًا أحسن استقبال فوسَّعوا لهم في منازلهم، وقدَّموا لهم المستودعات والمخازن والمضافات [1]، وأقاموا لهم الولائم التي كان يتقدَّمها كبير أهل نمرين أبو زكي، ووجيه من وجهاء أهل لوبيا يُكنى بأبي نظمي، وهذا أصبح فيما بعد عنصرًا فعَّالاً في حركة فتح أو في منظمة التحرير، وأبو عبد الله الصبيحي، وهذا له ابن اسمه حسن رحمه الله كان متفوِّقًا في دراسته، وصار من علماء الذرَّة، وأستاذًا في كلية الهندسة بجامعة حلب، وكان أحد الدعاة إلى الله الذين أعدمهم النظام النصيري في مذابحه الذي اشتدَّ سعارها عام ١٩٨٠م فما بعد، وأسماء أخرى نسيتُها.

وكان لهؤلاء الفلسطينيين أبناء كرام درسوا معنا في مدرسة تسيل، وبعضهم رافقنا كذلك في متوسطة ذرعا، ثم انضم إلينا في هذه المتوسطة آخرون من جميع قرى حوران، وكان بعضهم متفوِّقًا في دراسته، وعلى وجه العموم كانوا أفضل منا في مادة اللغة الإنجليزية، لأنهم تعلموها في فلسطين منذ سنٍّ مبكرة.

ومن الجدير بالذكر أن الفلسطينيين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وجدوا أنفسهم قد خسروا أرضهم وتجارتهم ووظائفهم، فربطوا مستقبل حياتهم بتعليم أبنائهم في جميع مراحل التعليم، ولهذا كانوا يبذلون ما تبقَّى من غالٍ ونفيس،

(١) ليتخذوها سكنًا لعوائلهم.

ثم يعملون أعمالاً شاقَّةً، وكل ذلك ينفقونه من أجل تدريس أبنائهم، وتحت ضغط الآباء كنا أيام الدراسة نكاد لا نرى الطالب الفلسطيني إلا والكتاب في يده. ولهذا فقد نالوا بجهدهم واجتهادهم أعلى الشهادات.

وبعد مرور عشرين عامًا على النكبة صار عند الفلسطينيين طاقات من المتعلمين ليس لها نظير في البلاد العربية- وهي بحق ثروة- فأنقذوا أُسرهم، وكانوا روَّادًا في تعليم أهل الخليج والجزائر وسورية والأردن، ولم ينسوا قضية تحرير فلسطين، ومن الخليج انطلقت حركة فتح أولاً ثم حركة حماس ثانيًا.

أجل انطلقت هاتان الحركتان من الخليج وليس من غزة أو الضفة الغربية أو عمان أو دمشق، ولم يَشغل أبناءَ فلسطين في الخليج جمعُ المال أو البحث عن الثراء، بل أنفقوا ما جمعوه في هذا السبيل.

نعود إلى القرية: فالذين لم يكن لهم شأن بالزراعة غادروا القرية منذ وقت مبكر وسكنوا المدن يبحثون عن وسيلة من وسائل الرزق، ومن تبقَّى منهم شاركونا في زراعة الأرض، وفي عادات وتقاليد القرية مع محافظتهم على عاداتهم في القرى التي غادروها، وقامت روابط المصاهرة بينهم وبين أهل القرية، وصارت القرية بأسرها تحميهم وتدافع عنهم، فلو أن أحد أفراد عشيرة تعرَّض لاعتداء، لهبَّت عشيرته وحدها تدافع عنه وتثأر له، أما الفلسطيني فكل القرية تدافع عنه وتثأر له.

مثال: ومما رأيته بعينيْ رأسي أن أبا ماجد له سحرة يزرع فيها بعض الخضار الموسمية، وكانت هي مورد رزقه، ومرَّ بها مجموعة من قرية أخرى وأرادوا أن

يأخذوا منها ما يريدون فحاول منعهم، فما كان منهم إلا أن عبثوا بسحرته بعد أن أشبعوه ضربًا. فهرع أبو ماجد يصرخ ويستغيث، وسارع شباب أشدَّاء إلى تلبية استغاثته، وفي السحرة نفسها نصبوا كمينًا للمعتدين الذين لابدَّ سيمرُّون من الطريق نفسه، وعندما ظنوا أن بوسعهم استباحة حمى أبي ماجد أمسك بهم الشباب المختبئون وأوسعوهم ضربًا حتى راحوا يعاهدون الله أن لا يعودوا لمثلها، فخلّوا سبيلهم وأوصوهم أن يخبروا أهل قريتهم أن تسيل كلها تحمي أبا ماجد.

لقد ترك هذا المشهد أثرًا طيبًا في نفسي لا أنساه. إنه بقية من أخلاق العرب التي أقرَّها الإسلام، وتربَّت عليها أجيال بعد أجيال، وليس هذا ميزةً من ميزات تسيل وحدها، بل هي من مزايا أهل القرى التي حولنا: إقراء الضيف، وإغاثة الملهوف، بل وليست هذه المزايا قاصرةً على الفلسطينيين الذين لجأوا إلى قريتنا بل تشمل كل غريب يسكنها. وأشهد أني رأيت الناس يحيطون بعنايتهم عائلتين من نصارى ماردين سكنوا القرية حينًا من الزمن وكانوا يعملون في صناعة نسيج البُسط.

مرَّت سنوات متتابعة أمحلت فيها الأرض، فاضطر الناس إلى البحث عن موارد الرزق خارج القرية، ومن هؤلاء الناس عدد من أُسر اللاجئين سكنوا دمشق وهاجر بعضهم إلى الخليج، لكنهم لم ينسوا وطنهم الثاني تسيل، فكانوا يتردَّدون عليها بين الحين والحين ويتفقَّدون أهلها، وكان أهل القرية يزورونهم في مواطنهم الجديدة.

كنا نعيش في تلك الأيام الخوالي إخوةً متحابين، نقتسم لقمة العيش، ويعطف

غنينا على فقيرنا، ونكرم الضيف ونغيث الملهوف، ونحترم الغريب الوافد أيما احترام. وليس هذا شأننا مع اللاجئين الفلسطينيين وحدهم فهم من أهل الشام وبلجوئهم انتقلوا من مكان إلى مكان آخر داخل وطنهم، ولكن هذه هي عاداتنا العربية الأصيلة: مع الجزائريين وسائر المغاربة، ومع أهل نجد الذين كان يطلق عليهم اسم [العقيلات]، ومع الألبان، والشركس، والشيشان، وأهل جزيرة القرم، والبوسنويين، وليس مثل سورية في هذه الصفات بلد عربي آخر، فالزعيم الأمير عبد القادر الجزائري كان في سورية بعد لجوئه إليها أكبر من رئيس الجمهورية، وقريب من هذا كان أبناؤه وأحفاده، والمغربي بدر الدين الحسني كان يُلقَّب بشيخ شيوخ الشام، وهذا يعني أنه كان سلطان العلماء في سورية، فلا يُقدَّم عليه عالِم آخر، وعندما قام بزيارته المشهورة للمدن السورية كان أهل المدينة يخرجون لاستقباله والاحتفاء بزيارته [1]، وصار ابنه تاج الدين رئيسًا للوزراء، ثم رئيسًا للجمهورية، والمغربي مكي الكتّاني تولَّى رئاسة رابطة العلماء، والفلسطيني سعيد الغزي تولَّى رئاسة الوزراء، وتولاها من قبله قريبه فوزي الغزي.

في عام ١٩٨٦م كنت في سفر بين مدينة وأخرى من مدن أوروبا، وفي محطة القطار سلَّم علي شاب وعرَّف بنفسه فقال: فلان [نسيت الاسم] من القدس، فرحبتُ به وعرَّفته بنفسي، وعندما قلت له من سورية قطَّب جبينه واكفهرَّ وجهه، وحاول أن يفارقني، فأمسكتُ يده بقوة وقلت: أنت في سنِّ أبنائي ولي معك

(١) كان ذلك في سنة ١٩٢٥م، وكان العلماء يهيئون الناس للثورة ضد الاستعمار الفرنسي.

حديث فاسمعه، ثم افعل بعد ذلك ما تشاء، واستمع لي رغبةً أو رهبةً، عرضت عليه ما ذكرته آنفًا، ثم قلت معقِّبًا: لم يجد الفلسطينيون في لجوئهم مثل سورية في حسن استقبالهم، ولا فضل لهم في ذلك- كما أسلفت.

أخي: اتفاقية (سايكس- بيكو) كانت بالأمس مؤامرةً خطيرةً، وعندما علمت شعوبنا بعض ما قيل عنها غضبت غضبةً مضريَّةً، فسارعت بريطانيا إلى تكذيب الخبر، والكذب سمة من سمات الإنجليز، وعندما أصبحت أمرًا واقعًا هتفنا في مظاهراتنا ضدها حتى بُحَّت حناجرنا، وأرسلنا برقيات الاستنكار حتى امتلأت رفوف محفوظات الأمم المتحدة بعد أن كتب عليها أمين عام الأمم المتحدة "للحفظ"!! واليوم نحن نفكر بعقلية سايكس- بيكو، وتقع الحروب الطاحنة بيننا على أمتار من الأرض حدَّدتها اتفاقية سايكس- بيكو.

قال: كيف؟ وما تعني؟!

قلت له: أنت أقبلتَ تسلِّم علي لأنني ألبس لباسًا عربيًّا، وليس أوروبيًّا، وأعرضت عني وقطّب جبينك بوجهي عندما أخبرتك بأنني سوري، ولا تدري بأنك سوري مثلي، وإن أغضبتك كلمة سوري، فأنا وإياك من أهل الشام، ومن الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى. ألا ترى أنك تفكِّر بعقلية سايكس- بيكو، وتربيت كما تربَّت أجيال على هذه العقلية؟! فلسطين والأردن أقرب إلى بلدتنا من معظم المحافظات السورية.

حاول صاحبي أن يضبط أعصابه، لكنه لم يستطع، وقال بشيء من الألم والحدة:

دعني من سايكس- بيكو، وقل لي: ما هذا الذي يجري في مخيمات الفلسطينيين في لبنان، ولماذا يَمُدُّ الجيش السوري حركة أمل الشيعية بالأسلحة والمال والخبراء، بل ويقاتل في صفِّها؟! ومن قبل كان يقاتل في صفوف الموارنة النصارى؟! إن المستفيد من ذلك إسرائيل وحدها، ثم أمريكا، ثم هؤلاء الذين يقاتلوننا في لبنان بالوكالة عن إسرائيل وأمريكا.

قلت: صدقت وبالحق الصريح نطقت، ولكن تعال معي نفهم هذا الذي يجري بشيء من الهدوء. السوري يا أخي: قاتل إسرائيل مع الفلسطينيين، وعندما وقعت النكبة قدَّم الكثير لأهل فلسطين اللاجئين، وعشنا سويًّا إخواناً متحابِّين. السوري لا يقاتل الفلسطيني، لكن هؤلاء الذين يقاتلون الفلسطينيين في لبنان قاتلوا أهل السنة في لبنان، وقاتلوا السوريين السنة في سورية. أنتم أخرجكم اليهود من دياركم وأموالكم، ونحن كذلك، وأنا الذي أكلمك ضحية من ضحاياهم. لقد أخرجونا من ديارنا وصادروا أملاكنا، ولهذا لجأت إلى أوروبا، وحُرمتُ من وطني وأهلي.

هؤلاء هم أبناء الطائفة النصيرية، وهي طائفة باطنية تُظهر خلاف ما تبطن، ففي ظاهر أمرها ركبت حمارًا اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي، ورفعت شعار: الوحدة والحرية والاشتراكية، ومن هذا الطريق وصلت إلى الحكم، وزعمت أنها تهدف إلى تحرير فلسطين، وغسل صفحة العار التي ألصقتها الرجعية بأمة العرب، حتى إذا صدَّق الناس مقولتهم وأمِنوا جانبهم بطشوا بحلفائهم القوميين، وكانت هذه هي المحطة الأولى في سلسلة جرائمهم، ثم بطشوا بزملائهم

وأساتذتهم البعثيين مستعينين بزملائهم من الأقليات، وكانت هذه هي المحطة الثانية في غدرهم، وأخيرًا بطشوا بزملائهم في الحزب [من أبناء الأقليات كالدروز والنصارى والإسماعليين] وانفردوا بحكم سورية، وعلى المستوى الإقليمي تحالفوا مع الروافض، ولا يزال هذا الحلف الدنس راسخًا منذ عام ١٩٧١م وحتى يومنا هذا.

هؤلاء [النصيريون والروافض] هم الذين ارتكبوا أبشع المجازر بأهل السنة، سواءً كانوا إيرانيين أو عراقيين أو سوريين أو لبنانيين أو فلسطينيين، وإن الوحوش المفترسة في آجامها تعف عن مثل وحشية هؤلاء [1]. لقد قتلوا مئات الآلاف في هذه البلدان خلال العقديْن الماضييْن، كان من بينهم: الأطفال الرضَّع، والشيوخ الرُّكع، والحوامل من حرائر نسائنا، ومن سلم من بطشهم منعوا عنه الطعام والشراب والدواء، ومن قبل قتلوا في إيران والعراق بضعة ملايين خلال المدِّ الصفوي.

أخي: هؤلاء حلفاء لليهود والأمريكان والروس ووكلاء لهم في بلادنا. وبعد ذلك لا يزالون يقولون: إنهم يريدون تحرير فلسطين، وهم دول الصمود والتصدي ثم دول الممانعة وما زلنا نجد من بيننا من يصدِّق أقوالهم ويحسن الظن بهم.

أي صمود وتصدٍّ وممانعة هذه التي يتحدثون عنها؟!

---

(١) فصَّلت القول في الحديث عن مجازرهم في كتابي "مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان"، وكتابي "الشيعة في لبنان، حركة أمل أنموذجاً" فليراجعها من شاء.

فليس بين أبناء شعبنا المقهور من لا يحفظ عبارتهم: لن يستدرجنا العدو إلى معركة هو الذي يحدِّدها، سنرد على ضرباته في الزمان والمكان الذي نختاره نحن وليس هو!! وأبشر بطول سلامة يا مِربع.

أما الجيش فعدوُّه هذا الشعب، وهو وحده الذي يحقق عليه انتصارات باهرة. وانظر بعد ذلك في ادِّعائهم بأنهم يهدفون إلى تحرير فلسطين!! تحرير فلسطين، ويقتلون الفلسطينيين، ويمنعون عنهم الطعام والشراب! وإذا افترضنا جدلاً بأنهم حرَّروا فلسطين، فهل يريدون إسكان غير الفلسطينيين بها؟!

وبينما كنتُ مسترسلاً بحديثي لاحظت أن صاحبي قد صمت ولا أدري ماذا وراء صمته، هل اقتنع بما سمعه مني؟! أم لأنه قال ما يريد، ويريد أن يودِّعني بغير الطريقة التي استقبلني فيها.

الخاتمـــــة

أيها الفلسطينيون، تعالوا نستقرئ تاريخ هذه الأرض التي باركها الله من فوق سبع سموات:

- لقد فتحها جيش الصحابة بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه وعنهم أجمعين، وحرَّرها من دنس الرومان وطغيانهم.

- وثيقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي منحها لنصارى القدس، مفخرة من مفاخر تاريخنا الإسلامي وردٌّ مفحم لكل من يسأل: ماذا ستفعلون بالأقليات عندما تتسلمون مقاليد الحكم؟!

- الصليبيون الذين هزمهم عمرو بن العاص عادوا مرةً أخرى فيما سُمي بالحروب الصليبية، وكانت خيولهم تجري إلى الركب بدماء المسلمين في عرصات قدسنا، واستمرَّ احتلالهم أكثر من قرن ونصف القرن، وأصيبت الأمة بداءين: الأول: الهوان، والثاني: الفرقة، ففي البلد الواحد صار أمراء للمؤمنين ومنابر، وكل أمير يغزو الأمير الآخر، والعدو ينظر إليهم بعين الشماتة، ويظن أنه باق في قدسنا أمد الدهر، وأن الميدان قد أقفر من أبطاله، فجاءه الله من حيث لا يحتسب، وقاد الأمة بطل الأبطال نور الدين محمود زنكي، وفي بلاطه نشأ الفتى صلاح الدين الأيوبي، الذي وحَّد مصر مع الشام بعد قضائه على الدولة العبيدية المجوسية [الفاطمية] في مصر، ثم ضمَّ إلى مملكته فيما بعد الحجاز وتهامة والعراق، وكان له

شرف احتلال القدس وتحريرها من رجس الصليبيين، ثم أمر بترميم المحراب العمري القديم، وحُمل المنبر الذي كان نور الدين زنكي قد أمر نجَّارًا ماهرًا بحلب بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى متى فُتحت بيت المقدس.

- في القرن السابع الهجري انطلق التتار من معاقلهم كجراد منتشر، وكان عدد جيشهم قريبًا من عدد الرمال، وكانت الحصون المنيعة تتهاوى أمام قواتهم حصنًا بعد الآخر، فبعد بغداد احتلوا حلب ثم دمشق، ومنها أرسل قائدهم هولاكو رسالةً لسلطان مصر سيف الدين قطز واسمه الحقيقي محمود بن ممدود بن خوارزم شاه يأمره فيها بالاستسلام. وقطز هذا هو صاحب سلطان العلماء العز بن عبد السلام. جمع قطز أمراء البلاد وقواد جيشه، وأطلعهم على الرسالة، وكان رأي الكثير منهم الاستسلام وتجنب ويلات الحرب، لكنه أبى، وقال لهم: من أراد الجهاد فليتبعني. وهزم التتار شر هزيمة في معركة عين جالوت، وكان- رحمه الله- إذا حمي وطيس الحرب يتقدَّم الصفوف وهو يصيح: "واإسلاماه"، فما يزداد جنده إلا ثباتًا واستبسالاً، ولولا هذا النصر المظفَّر لأتمَّ التتار احتلال فلسطين ثم مصر.

- ثم كان شرف حماية القدس وفلسطين وبلاد العرب كلها للعثمانيين الذين استمرَّت سلطنتهم حوالي ستة قرون، وكان جيشهم من أقوى جيوش العالم، واستطاعوا احتلال جزء لا بأس به من بلاد أوروبا، وكان السلطان عبد الحميد الثاني آخر الخلفاء الأقوياء من بني عثمان، وقد رأينا فيما مضى من هذا البحث

كيف واجه مكر النصارى ثم اليهود، ورفض جميع العروض والمغريات. وحسبه عند الله ثم عند الناس هذا الموقف المشرِّف.

- بعد خلع السلطان عبد الحميد شرع اليهود والصليبيون في تنفيذ مخططاتهم التي أحكموا رسمها، وكان من أدواتهم التي استخدموها: الماسونيون سواءً كانوا من الأتراك أو العرب، والعجيب في هذه المسألة عدم ثقة المخططين بالعرب الماسونيين، واختراق تنظيماتهم من قبل الماسونيين الأتراك. وبعد الماسونيين يأتي دور ثوَّار لورانس وثوَّار أتاتورك الذين جعلوا بأس الأمة الإسلامية بينها، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل استكانت الأمة العربية والإسلامية لما يريده العدو؟! حاشا لله، فهذا ما كان ولن يكون- إن شاء الله- في أمة محمد ﷺ.

لقد عرفت بلاد الشام منذ مطلع القرن العشرين علماء أعلامًا قادوا الأمة في جهادها، وكانوا في رسوخ عقيدتهم أشدَّ رسوخًا من الجبال الرواسي، وكان من أشهر هؤلاء وأبعدهم أثرًا في شعوبهم:

الشيخ محمد كامل القصَّاب: فمن شاء أن يذكر عشرة زعماء لبلاد الشام فإن اسمه لابد أن يكون في طليعتهم، وكان إذا أراد أن ينكر منكرًا في شكل مظاهرة كانت تنقاد له دمشق بأسرها ولا يستطيع غيره قيادتها، وقد اعتزل الوظائف الرسمية مهما علا شأنها وكثرت مغرياتها. وعندما اضطر إلى مغادرة دمشق أمام ملاحقة المستعمر الفرنسي له، وأقام في حيفا بنى جامع الاستقلال ومدرسة الاستقلال، وكان مسؤولاً عن اللجنة الفلسطينية التي تعمل لقضية فلسطين على

مستوى البلاد العربية. وعندما عاد إلى سورية في أوائل النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي أسَّس جمعية العلماء التي لعبت دورًا مهمًّا في تاريخ سورية.

الشيخ عزالدين القسَّام: كان من أوائل الذين حملوا السلاح بوجه المستعمر الفرنسي عام ١٩٢٠م، وعندما أصدرت فرنسا عليه حكمًا بالإعدام لجأ إلى حيفا، وكان خطيبًا لجامع الاستقلال الذي بناه زميله الشيخ محمد كامل القصَّاب، ومن هذا الجامع قاد ثورةً ضد الإنجليز واليهود، وكان تنظيمه سريًّا ومنظمًا تنظيمًا دقيقًا، واستمرَّت عملياته أكثر من خمس سنين والعدو لا يعرف مَن وراء هذه العمليات التي كانت تستهدفه، حتى كانت معركة (يعبد) التي استشهد فيها، فكان موته رحمه الله حياةً للقضية الفلسطينية.

الشيخ الحاج محمد أمين الحسيني: المفتي العام للقدس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس اللجنة العربية العليا. وهذه الوظائف المهمة التي جعلته الرجل الأول في فلسطين جاءت نتيجة اختيار شعبي، وليس منَّةً من هذه الجهة أو تلك، وكان من المتسابقين في هذه الانتخابات رجال مخضرمون مثل أسعد الشقيري، والنشاشيبي، وغيرهما، في حين كان الحاج أمين لم يبلغ الثلاثين من سني عمره.

زعم خصوم الحاج أمين، وما أكثر من يخاصم أمثال هؤلاء الرجال الكبار، أنه- الحاج أمين- تنكَّر لثورة عز الدين القسَّام أو وقف بوجهها. وقد قالوا قولاً زورًا، فليس الحاج أمين بالرجل الذي يتنكَّر لثورة شيخ جليل أراد أن يحرر أمته،

ولكن وظائفه الرسمية ما كانت تسمح له بالإعلان الصريح عن دعمه وتأييده لحركة القسَّام، وتحت غطاء التجارة كان الشيخ كامل القصَّاب يكثر من التردد على القدس والالتقاء بصديقه- الذي كان في مقام تلميذه- الحاج أمين الحسيني، وينسق بينه وبين صديقه الصدوق الشيخ عز الدين القسَّام، فينقل إلى الحاج أمين أخبار الثورة ومتطلباتها، ويتلقَّى منه المال اللازم لشراء السلاح ودفع نفقات الجند، وكان ذلك كله يتم بمنتهى السرية، ولم تكن هناك لقاءات علنية بين القسَّام والحسيني، ولهذا فقد ردَّد الخصوم أن بينهما جفاءً أو معارضةً من الحسيني لهذه الثورة.

جعجعة الشقيري والنشاشيبي وغيرهما انطلت على خلية التنظيم السري، فاختاروا: نافذ الحسيني، وعبد القادر الحسيني، وصالح الريماوي، وجميل الفارس، وأميل الغوري، للاتصال بالحاج أمين ومصارحته بما في نفوسهم، يقول الغوري عضو الوفد:

"انتصب المفتي بقامته المهيبة، وأبرقت عيناه بقبس العزم والتصميم، فقال: اسمعوا يا إخوان... إني أربأ بكم أن تصدِّقوا هذه الأقاويل... وإنكم تعلمون أني كنت أول شخص قاتل الإنجليز مباشرةً عام ١٩٢٠م... وأنا لست من الذين يبدِّلون اتجاههم أو يغيِّرون مواقفهم، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها... وليس من مصلحة الشعب والبلاد أن يقوم اصطدام جدي مع الإنجليز قبل أن تتم التهيئة الكاملة له. وهناك أمور وأشياء ستعلمونها في الوقت المناسب... وأودُّ أن أحيطكم

علمًا بأني عالم بما تفعلون وتدبِّرون... وأن نجاحكم في مهمتكم هو أمنيتي الغالية، ويمكنكم الاعتماد عليَّ لمعاونتكم، ضمن المستطاع، دون معرفة أحد غيركم، وسيأتي الوقت- وأظنه قريبًا- الذي يُطلب فيه منكم التعاون وتنسيق العمل مع آخرين ما انفكُّوا يعملون، بهدوء وسكون، لمثل ما تعملون له بل أكثر".

وأضاف إميل الغوري:

"خرجنا من هذا الاجتماع ونحن نشعر بشيء من الخجل لما أدلينا به من أحاديث وملاحظات... ولمنا أنفسنا لأننا انحدرنا إلى درك التأثر بدعايات المغرضين وأباطيل المضللين".

لقد شكَّل المفتي منظمة الجوَّال المسلم التي ضمَّت نيفًا وألفي عضو من الشباب الذين يؤمنون بالجهاد، كما شكَّل جمعيات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألَّف لجانًا سريةً لشراء السلاح من داخل فلسطين ومن خارجها، ثم كلَّف مجموعةً من أقرب الناس إليه، فقامت بتخزين السلاح في أماكن سرية في مختلف أنحاء البلاد. وأقامت هذه المجموعة مراكز سريةً لتدريب الشبان المؤهلين على استعمال السلاح وحرب العصابات.

وجملة القول: لقد كان للمفتي صلات مع جميع الجماعات المسلَّحة، وكان أخطرها وأقواها منظمة القسَّام [1]،وفضلاً عن ذلك، فلقد كان للمفتي جهد كبير

(١) انظر كتاب: فلسطين عبر ستين عامًا لإميل الغوري، دار النهار للنشر، بيروت. وقرأت

في خدمة القضية الفلسطينية على مستوى العالم الإسلامي، وهذا كان أشد ما تخشاه بريطانيا. وجدير بالذكر أنه كان من أقوى الشخصيات التي فجَّرت ما صار يُعرف بثورة الكيلاني في العراق. ومما ينبغي التأكيد عليه أنه ما من ثورة أو حركة جادة إلا وهي متأثرة بسِيَرِ هؤلاء العلماء الأفاضل.

حركة فتح: جاءت بعد ركود دام أكثر من عقد، وبدأ كفاحها المسلَّح في منتصف الستينيات، وإن كان تأسيسها سبق ذلك التاريخ، وكان أبرز الذين أسَّسوها من أبناء رجال القسَّام أو ممن لهم صلات تعاون وتأييد لجماعة الإخوان المسلمين.

لعبت فتح دورًا مهمًّا في إحياء القضية الفلسطينية دام أكثر من ثلاثين عامًا وترأسَّت خلال هذه الفترة منظمة التحرير الفلسطينية، وأمام تكالب إسرائيل عليها وتوجيه ضربات مؤلمة لها أجبرتها على مغادرة لبنان والإقامة في تونس، ثم أمام اعتداءات قوات التحالف الرافضي النصيري الموغلة في الوحشية أصابها الترهل، وغرقت في أوحال السياسة، لاسيما بعد اغتيال عدد من قادتها، فوقَّعت مع إسرائيل اتفاقية أوسلو، واعترفت بموجبها بوجود إسرائيل، وأعلنت حقها في العيش بأمن وسلام، كما أكَّدت الاتفاقية التزام فتح بالعمل السلمي، لكن متى كانت إسرائيل تحترم اتفاقياتها أو تقيم وزنًا لنشاط عدوِّها السلمي؟!

كتابًا جيدًا لأحد الباحثين الذي أجرى مقابلات مع عدد من أصحاب القسَّام الذين أكَّدوا صلة المفتي بهذه الثورة.

حركة المقاومة الإسلامية [حماس]: تأسست عام ١٩٨٧م، وصدر ميثاق الحركة عام ١٩٨٨م، ولا تؤمن الحركة بأي حق لليهود الذين أعلنوا دولتهم عام ١٩٤٨م في فلسطين، وتعتبر صراعها مع الاحتلال الإسرائيلي صراع وجود وليس صراع حدود، وتنظر إلى إسرائيل على أنها جزء من مشروع استعماري غربي صهيوني يهدف إلى تمزيق العالم الإسلامي وتهجير الفلسطينيين من ديارهم، وتردِّدُ أن مفاوضات السلام مع الإسرائليين مضيعة للوقت ووسيلة للتفريط في الحقوق.

وتمثِّل كتائب عز الدين القسَّام الجناح العسكري لحركة حماس، وقد قامت- ولا تزال- بعمليات فدائية أرعبت إسرائيل، وزاد من رعبها عندما امتلكت حماس صواريخ القسَّام. هذا، ويمثِّل العمل العسكري لدى حركة حماس توجُّهًا استراتيجيًّا لمواجهة المشروع الصهيوني التوسعي.

وقفات مع مشروع حماس: كانت حماس حركةً مباركةً، وجاءت في وقت كان يعربد في الساحات من ليس من أهل الجهاد، ويتاجر في قضية فلسطين من يتآمر على الفلسطينيين، ويرتكب بأهل مخيماتهم البائسة أفعالاً لا تختلف عما يفعله اليهود إن لم يكن أشدَّ، ولهذا فمن حقهم علينا أن ننصحهم بما يلي:

١-عندما أطلقوا على كتائبهم العسكرية اسم عز الدين القسَّام فهل كانوا يدرون بأنه كان سلفيَّ الاعتقاد؟! ولم يمنعه الجهاد والإعداد له من التصدي للمبتدعين في دين الله.

وهل كان القسَّام يعلم وهو يلفظ روحه الطاهرة في أحراش يعبد أنه بعد

خمسين عامًا ستظهر مجموعة مجاهدة ترعب اليهود، وتختار القسَّام اسمًا لكتائبها؟! أجل! كان يعلم أن موته حياةً لفلسطين وأهلها، وأنه لا مقام لبني صهيون في فلسطيننا طال الزمن أو قصر، وأن الله سيهيىء لهذه الأمة من يحرر فلسطين وسائر بلاد المسلمين من كل مستعمر أثيم. ألا فلينتظر اليهود كتائب أخرى باسم: ياسين، والرنتيسي، والمهندس.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣ – ٣٤].

أولئك هم المؤمنون بتوحيد الله والإخلاص له جلَّ وعلا، والمجاهدون في سبيل نصرة دينه. وقال ﷺ: **"مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره"** (١).

٢- نشأت حماس في الكويت، وكذلك نشأت فتح في الكويت، وكان رجالها المؤسسون شبابًا دون الثلاثين من سني أعمارهم، ولا أقلِّل من دور الشيخ أحمد ياسين في غزة، فقد كان يحمل روح الشباب لكني أجزم بأن المؤسسين شباب، وكان كبار السن من إخوانهم في كل من الأردن وفلسطين متردّدين لأن الوضع العربي العام لا يسمح بتأسيس منظمة جهادية إسلامية، ولهم في ذلك حساباتهم التي لا يشاركهم في جمعها وطرحها جيل الشباب.

---

(١) انظر صحيح الجامع الصغير. الحديث رقم [٥٧٣٠].

وكان المؤسس الفعلي لحماس **الشيخ عمر بن سليمان الأشقر** رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى، فهو الذي احتضن المؤسسين منذ كانوا طلابًا في ثانوية عبد الله السالم.

سألتُ الشيخ بعد صدور مذكراته وقبل وفاته: لماذا لم تتحدث عن دورك في حركة حماس، ثم عن اهتمامك بالقضية الفلسطينية؟!

فأجاب: تركتُ لأبنائي شيئًا حول هذه المسألة وأرجو أن يُنشرَ بعد وفاتي، وفي خيمة العزاء بمناسبة وفاة الشيخ عمر رحمه الله، استمعت إلى كلمة للأخ خالد مشعل بيَّن فيها دور الشيخ في تأسيس حماس، وكيف اشترط على الإخوان عندما عمل معهم أو انتسب إليهم أن لا يدرِّس شيئًا يخالف منهجه السلفي، وقد قبلوا ذلك بعد جهد بذله الأستاذ سليمان الحمد، وقد تحدثت مع الأخ مشعل في هذا الشأن فأجاب: سنكتب عن دور شيخنا في تربيتنا وتعليمنا. رحم الله الشيخ عمر، فقد كان من كبار المربِّين، ومن أعلام الدعاة السلفيين في العصر الحاضر، ومن كبار علماء الأمة، وكان ينأى بنفسه عن الشهرة ومواطن الشبهات، ولا يزاحم أحدًا على المناصب والوجاهات.

٣- إذًا: فليتذكر إخواننا في حماس هذه الكوكبة الطاهرة: **الشيخ كامل القصَّاب، والشيخ عز الدين القسَّام، والشيخ الحاج أمين الحسيني، والشيخ عمر الأشقر**، وجميعهم من أعلام الدعوة السلفية الذين خدموا قضية فلسطين ومختلف قضايا الأمة.

ثم ليتذكَّروا دور رافضة إيران الهدَّام، وماذا فعلوا بمخيمات الفلسطينيين في كل من سورية ولبنان والعراق، ليتذكَّروا الحصار الذي فرضوه على مخيم اليرموك بدمشق حيث صار الناس يعيشون على القمامة ونباتات الأرض. فإن كان بعض أهل حماس [ولا أدري عدد هؤلاء البعض] ما زالوا يقولون: لقد وجدنا أنفسنا مضطرين إلى ركوب هذا المركب:

قلنا: إنه الهوى وليس الضرورة، فلا تزيِّنوا لأنفسكم هذا الجنوح. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١٣].

يا أبناء فلسطين، ويا أمة التوحيد:

ها قد استنطقنا التاريخ منذ أيام عمر بن الخطاب وحتى يومنا هذا، فشهد شهادة حق ليس فيها أدنى شك بأن الذين فتحوا فلسطين ثم أعادوا فتحها بعد احتلال الصليبيين لها رجال لا يعصون لله أمرًا، ولا تشغلهم بيع ولا تجارة عن ذكر الله وتوحيده واتباع سنة المصطفى ﷺ ... إن الذين فتحوا فلسطين يعتقدون أن صراعنا مع اليهود وأشباه اليهود صراع بين التوحيد والشرك.. بين الإيمان والكفر.

يقول رئيس وزراء الأردن الأسبق سعد جمعة رحمه الله: "لقد قلتُ مرةً لأحد ملوك العرب: إنني استمعت بأذني إلى تسجيل حي لهتاف الجماهير اليهودية حينما وصلت إلى حائط المبكى بعد احتلال القدس سنة ١٩٦٧م، سمعتها تصيح بهوس

وجنون: محمد مات وخلَّف بنات... اليوم انتهى محمد... اليوم قُضي على الإسلام...

قلت للملك: لم تهتف تلك الجماهير ضدك أو ضد فلان وفلان من ملوك العرب ورؤسائهم، بل انصبَّ هتافها المزمجر على محمد ودين محمد لأن محمدًا هو هدف المؤامرة كان ولا يزال" [١].

لم يقاتلنا اليهود في فلسطين وحدها، بل قاتلونا إلى جانب الهندوس ضد باكستان، يقول سعد جمعة: "إن قنصل إسرائيل في نيودلهي ياكوف موريس أدلى بحديث في شانديغار في الهند قال فيه: إن إسرائيل زوَّدت الهند بمدافع ثقيلة أثناء حربها مع باكستان سنة ١٩٦٥م"[٢].

وقاتلنا اليهود بشكل أو بآخر في: أرتيريا، وجنوب السودان، وإفريقيا، ولبنان، وإيران، وقاتلنا أشباه اليهود في كل مكان. يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. "وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم، بوصفها الهدف الثابت المستقرّ لأعدائهم... إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين في كل حين، إن الإسلام بذاته يؤذيهم

(١) كتاب : أبناء الأفاعي، لسعد جمعة، ص ٢٤.

(٢) كتاب : مجتمع الكراهية، سعد جمعة، ص ٩٣.

ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة والمتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم... إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد" [١].

إن الذين سيطروا على مقاليد الأمور في بلادنا خلال القرن الماضي علمانيون، وسواءً كانوا رأسماليين أو اشتراكيين أو قوميين، فقد كانوا يعتقدون أنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، في حين يعتقد علماؤنا أن كل ما يعارض الدين ليس من السياسة.

وهؤلاء الحكام هم الذين مكَّنوا لإسرائيل في فلسطين، لأنهم يعتقدون أن الأمريكان والإنجليز لا يرضون إلا إذا رضيت إسرائيل، وقد ضربنا فيما مضى بعض الأمثلة على ذلك، وما نُشر من وثائق يؤكِّد أن معظمهم كانت له صلة بإسرائيل، سواءً كانت هذه الصلة مباشرةً أو غير مباشرة، وفضلاً عن ذلك فلقد كان شغلهم الشاغل اضطهاد الدعاة والجماعات الإسلامية حقدًا من عند أنفسهم وتقرُّبًا لأسيادهم.

فمنهم من وسَّع سجونه، واستورد خبراء التعذيب فبرع هؤلاء الخبراء في ابتكار وسائل في غاية الوحشية. ومنهم من برع في الترغيب والترهيب، فتارةً يقدِّم هذه الجهة وتارةً يبعدها ويتنكَّر لها، وما أكثر الذين يبيعون ضمائرهم ويرضون العبودية في سوق شديدة الشبه بأسواق النخاسة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب مع شيء من الاختصار، دار الشروق، مصر.

أما الرافضة وأشباههم، فالتاريخ [١] يشهد أن غالبيتهم العظمى كانت عونًا لكل مستعمر يستبيح بيضتنا، كانوا يسيرون أمام الغزاة، ويرشدونهم إلى نقاط الضعف في قلاعنا وحصوننا، ويوجِّهون سهام الغدر إلى أبناء السنة وحدهم. لقد حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي وكان ذلك غاية ما يتمناه الصليبيون، وهو- رحمه الله- كان يرى أن الأمور لن تستقر في فلسطين إلا بعد القضاء على الدولة العبيدية.

هذا شأننا معهم طوال مراحل التاريخ، ولكنهم اليوم وبعد ثورة آياتهم في طهران وقم [سنة ١٩٧٩م] التي قادها خميني، خرجوا علينا بوجه آخر غير الوجه الذي تعرفه الخاصَّة والعامة في بلادنا، قالوا: إن من أهم أهداف ثورتهم تحرير فلسطين. وهذا هو السراب الخادع الذي استغله أصحاب الأهواء والضلالة منذ نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م وحتى يومنا هذا.

وجد ثوَّار الخميني من يصفِّق لهم ويصدِّق مقولتهم، وما أكثر السذَّج المغفَّلين من أبناء السنة الذين يستجيبون لكل ناعق. قال هؤلاء السذَّج: شيعة الخميني غير شيعة الأمس، قلنا: لننتظر وننظر ماذا يفعلون، فلعلهم يصدقون ولو مرةً واحدة.

ولم يطل الانتظار حتى جاءنا الخبر اليقين بأن لؤم وكيد القرامطة والبويهيين والعبيديين والصفويين اجتمع في آيات قم وطهران اليوم.

---

(١) من مؤلفاتي في هذا الشأن: كتاب: وجاء دور المجوس، وكتاب: مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان، وكتاب: الشيعة في لبنان- حركة أمل أنموذجاً -، وقد سبق لي الإشارة إليها.

وإذا كنا ندرك مبلغ كرههم لأهل السنة، فإن أشد ما يكرهون منهم هم أبناء فلسطين. لقد اجتاحوا مخيماتهم في كل من لبنان وسورية والعراق، وارتكبوا أبشع المجازر: فبقروا بطون الحوامل من الحرائر، وهدموا المساجد على رؤوس الركَّع السجود، وقتلوا الأطفال الرضَّع والمسنِّين من الشيوخ، واضطر كثير من الأحياء إلى أكل القمامة إن وجدها وإلا فمما تنبت الأرض، وشرب البول.وبلغ عدد ضحاياهم عشرات الآلاف، والجرحى أضعاف هذا العدد. ومثل هذه المجازر لم يرتكبها اليهود ولا غيرهم من الأعداء.

وها هنا، أي بعد فوات الأوان صحا كثير من السذَّج من غفلتهم وراحوا يتساءلون بمرارة: يا لهول ما فعلوه بنا، ورغم ذلك ما زالوا مستمرين في ادِّعائهم: يريدون تحرير فلسطين، فهل يريدون تحريرها لتكون موطنًا للرافضة؟!

ومن ثم كيف يدَّعون أنهم ألدُّ أعداء إسرائيل وهم يقيمون معها أوثق العلاقات في السر؟!

وإذا كان بعض مغفَّلينا قد صحا من حلمه الوردي، فإن البعض الآخر ما يزال في غيِّه وينتظر السراب، فنسأل الله أن يثوب إلى رشده قبل أن يهلك.

يا أبناء فلسطين، ويا أمة التوحيد:

دعكم من الجري وراء كل سراب، وكفانا ضياعًا وتخبُّطًا وغفلةً، فمن هدي رسولنا ﷺ أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فجيل تحرير فلسطين اليوم، يجب أن يتأسَّى بما كان عليه جيل: عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص،

ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وعبد الحميد الثاني، وعزالدين القسَّام، ومحمد أمين الحسيني.

فهل نحن اليوم في مستوى تلك الأجيال؟!

يعتصرني الألم عندما أقول: إننا وحتى اليوم لم نخطُ الخطوة الأولى في الطريق، ولستُ والله مثبِّطًا ولكن هذه هي الحقيقة المرَّة. لقد أمرنا الله أن نعتصم بحبله المتين، والأمر هنا يقتضي الوجوب، فهل امتثلنا لأمره؟! وحذَّرنا سبحانه من الاختلاف، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فحبل الله المتين الذي اعتصم به جيل التحرير هو: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، وقد ضُمنت لهم العصمة من الخطأ، عند اتفاقهم [1].

والذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات هم: اليهود، والنصارى،

---

(١) هذا قول ابن كثير.

والكفار، وأهل البدع، كما يقول أهل الأثر.

وللمرة الثانية أقول: دعونا نصارح أنفسنا: لقد عجز الدعاة والجماعات الإسلامية عن تحقيق وحدة كتلك الوحدة اليهودية التي حققها هرتزل، ووايزمن، وبن غوريون. وعجزوا عن تحقيق وحدة كتلك الوحدة التي حققها النصارى ممثَّلةً بالفاتيكان، ودول أوروبا، وعلاقة الولايات المتحدة الأمريكية بالدول الأوروبية. وعجزوا عن تحقيق وحدة كتلك الوحدة التي حققتها إيران ورافضة العالم.

ثم نقول ويقول معنا الدعاة والجماعات الإسلامية السنية: نحن أهل الحق، وهم أهل باطل، فلماذا يوحِّدهم باطلهم، ولا يوحِّدنا ديننا الذي حفظه الله من التغيير والتبديل والتحريف.

إذًا: العيب فينا وليس في ديننا، ولا يقول مسلم مؤمن بالله خلاف ذلك. فلنحذر أشد الحذر من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾، وشيعًا: فرقًا وأحزابًا، وكل حزب بما لديهم فرحون، ويظنون أنهم بحزبهم ناجون من وعيد الله.

وعندما نخطو الخطوة الأولى في هذا الطريق سنكون أقدر على مواجهة عدوِّنا بكافة أنواع الاستعدادات لمعركتنا معه سياسيًّا وعسكرياً وفكريًّا وروحيًّا. وأحسب أن الأيام التي كان عدوُّنا يستطيع منعنا من امتلاك الأسلحة التي تحسم معاركنا معه قد ولَّت، فنحن نملك عقولاً وخبراء وإرادة، ولكن الظالمين الذين

يتولوْن زمام الأمور في بلادنا أرادوا أن تكون معطَّلةً.

إن إسرائيل وأعوانها من الدول الكبرى يخشوْن أشدَّ الخشية من الأيام القادمة التي يكون العمق الإسرائيلي هدفًا لضرباتنا المدمِّرة، ويعلمون حق العلم أن المارد سوف ينطلق من عقاله، ولن تستطيع إسرائيل حسم المعركة خلال ساعات أو أيام قليلة.

وعندما نخطو الخطوة الأولى سوف نستخدم كافة الطاقات المشتَّتة، وحينئذ لن يستطيع عدوُّنا زرع جماعات الضرار بيننا لأن أجهزة الرصد التي نمتلكها سوف تكشف هذا الجسم الغريب منذ بداية ظهوره وتنبذه، ولن يغترَّ به أحد، وإن رفع شعارنا وزعم أنه أغير على الإسلام منا.

يا أبناء فلسطين، ويا أمة التوحيد:

إسرائيل جسم غريب حلَّ في فلسطيننا، وهو إلى زوال طال الزمن أو قصر، وما أُخذ بالقوة لن يستردَّ إلا بالقوة. وقد تمرُّ بنا أحوال نعجز فيها عن استرداد حقنا بالقوة، وقد نضعف أو نُهزم، فنترك قضية فلسطين لجيل آخر، هذا ممكن، أما أن يمنح بعضنا اليهود الحق في ملكية أرض ١٩٤٨م مقابل التخلي عن الأرض التي احتلتها سنة ١٩٦٧م فهذا لا يجوز، وليس من حق أحد أن يفعله.

المرحلة الإعدادية

المرحلة الإعدادية

"وفي نهاية العطلة الصيفية بدأنا نستعد للانتقال من عالم القرية إلى عالم المدينة للدراسة في الإعدادية الوحيدة في حوران، ومن هذا الإعداد شراء بنطال وجاكيت، وهذا بحدِّ ذاته له ذكريات لا تخلو من طرائف مضحكة، ولابد أثناء الدراسة الجديدة من خلع اللباس التقليدي كالثوب والسروال الأسود والغترة أي [الشورة] البيضاء، وأحيانًا كنا نلبس الشماغ ونسميه [سلك].

وأصبحنا بهذا اللباس الجديد نتميَّز عن أهل القرية، حيث لم يكن أحد في حوران يلبس البنطال إلا من كان طالبًا في المرحلة الإعدادية فما فوق، وأصبح اليوم الجميع يلبسُه، ولا أدري ما علاقة اللباس الجديد بالدراسة والعلم".

وفي بداية العام الدراسي [١٩٥١ – ١٩٥٢م]، كنت طالبًا بالسنة الأولى في الإعدادية، وكان البناء الذي التحقنا به يُسمَّى التجهيز، ويقع في أقصى المحطة من جهة الشرق على طريق بُصرى الشام، وكانت الفصول مكتظةً بالطلبة. داومنا أيامًا في هذه المدرسة لكن الوضع لم يكن مستقرًّا، ثم نقلوا بعضنا- وكنت أحدهم- إلى مدرسة الراهبات، وهي في أقصى غرب المحطة، ويبدو أنها كانت مدرسةً للراهبات أيام الاستعمار الفرنسي، ثم رحلن مع رحيل الاستعمار لأن المدينة لم يكن فيها نصارى.

لنقل، تجاوزًا: إن ذرعا كانت في تلك الأيام مدينةً، لكنها من المدن الصغرى، وهي ثلاثة أقسام:

المحطة: وتضم الدوائر الحكومية التي تدير شؤون المحافظة كلها بما فيها مكتب المحافظ في بناء واحد يُسمَّى السرايا. وتضم أيضًا مركزًا مهمًّا لسكة الحديد التي تربط سورية بفلسطين والأردن، وكانت من قبل تربطها بالمدينة المنورة، وهي هي الخط الحديدي الحجازي الذي يُعدُّ من أهم إنجازات السلطان عبد الحميد رحمه الله، ونسفه ضابط الاستخبارات الإنجليزية بمساعدة قوات فيصل بن الحسين والمرتزقة من البدو. وفي المحطة سوق تجاري يملك معظمه تجار دمشقيون، وأحياء سكنية يقطنها خليط من هؤلاء الناس.

الكرك: هضبة قليلة الارتفاع، وبينها وبين المحطة مساحة من الأرض غير مسكونة، وسكانها من أهل ذرعا ومن قرى حورانية استوطنوا المدينة.

البلدة: تتصل بالكرك من جهة الشمال، وتمتدُّ حتى قرب الحدود الأردنية التي لا تبعد عنها كثيرًا، وهم أهل البلدة، ومن أهم العشائر فيها: الأبازيد، المحاميد، المسالمة، وليس لها امتداد في قرى حوران، اللهم إلا في القرى الصغيرة القريبة جدًّا من المدينة.

ليس سهلاً أن يجتمع أبناء المحافظة كلها في مدرسة واحدة، وأن يجد الدارس طلابًا ومدرسين لم يعرفهم من قبل... وليس سهلاً أن يتعرف عليهم؟!

لم يعُد أحدنا يعيش في جو قريته، فالآفاق تتسع، والمعارف تزداد، والطبائع تختلف، ولابد أن تختلف معها طبيعة الأخذ والعطاء.

كان أولَ من تعرَّفتُ عليه فوَّاز بردان من بلدة طفس، وكنا نقتسم مقعدًا

واحدًا. كان فوَّاز سليم الفطرة، طاهر السريرة، حلو النكتة، صادق اللهجة، لا يَملُّ منه جليسه.

تطوَّرت المحبة وأصبحنا أصحابَ اتجاه إسلامي واحد نعمل لما يرضي الله سبحانه وتعالى ونتواصى بالحق والصبر. كانت تبعدنا عن بعضنا شؤون العمل وشؤون أخرى ثم نلتقي وكأننا ما زلنا نقتسم مقعدًا واحدًا.

فوَّاز انتقل إلى رحمة الله قبل بضع سنين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، واللهَ أسأل أن يسكنه الفردوس الأعلى.

ومع مرور الأيام بدأت آلف جو المدرسة، أما خارج المدرسة فالوضع يختلف، لقد استأجرنا غرفةً، وكنا ثلاثةً من أبناء تسيل، فكانت الغرفة مكان نومنا، ومطبخنا، ومكان الاستقبال عندما يأتينا ضيوف من القرية أو من زملائنا الطلبة.

كانت طبائع الشركاء تختلف، وهذا من المُسلَّمات، فالناس ليسوا نسخةً طبق الأصل، فهذا مثلاً يحرص على نظافة الغرفة، والآخر مهمل، وهكذا، ولقد كانت وسيلة الإضاءة هي القنديل، فالكهرباء كانت في بعض البيوت والأحياء دون الأخرى، وعند الطبخ- هذا إذا أردنا الطبخ- نستخدم [البابور، ويُسمَّى في بلدان أخرى بالدافور]، وخارج الغرفة فضاء، وفي المقابل أو في الغرفة المجاورة طلاب مثلنا من غباغب أو دير البخت أو خسفين أو... فكل من حولنا غريب ولا يخلو من وحشة. وأين من هذا دارنا في القرية الواسعة، والوالدة التي كانت تستقبلنا بشوق وحنان، وتقدِّم لنا ما تقدر عليه من طعام أو شراب، والأشقاء الذين كانوا

يتراكضون حولنا! فسبحان الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر!

ومن جهة أخرى، فللقارىء الكريم أن يتصور مئات الطلبة حلّوا فجأةً في بلد، وكل ثلاثة أو أربعة منهم تقاسموا غرفةً، وأعمار هؤلاء الطلبة بين [١٣ – ١٥ عامًا] وليس عليهم حسيب أو رقيب.

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء

سيبتل بالماء- إلا ما رحم ربي- لأن أهله لم يأخذوا بالأسباب. ولقد فشل كثير من الطلبة في دراستهم، وكان همُّ بعضهم الحصول على الشهادة المتوسطة (الكفاءة)، والبعض الآخر اكتفى بشهادة الابتدائية، وتطوّع في الجيش وأمنيته بعد هذا الفشل الذريع أن يصبح رقيبًا أو مساعد ضابط.

وفيما بعد أدركتُ الفرق بيننا- أهل الريف- وأهل المدن. وإذا كان الشيطان لا يفرِّق بين مدينة وقرية، فإن الأخذ بالأسباب ليس فيه شك عند ذوي الطلبة في المدن، فعندما يعود الطلبة إلى منازلهم يجدون الحاضنة الأسرية، والإشراف على كتابة الواجبات المدرسية، ومراجعة الدروس. ومن جهة ثانية، ففي المدن مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومعاهد شرعية، ودروس للعلماء في المساجد، ويحرص الآباء إلى اصطحاب أبنائهم معهم إلى المساجد، وقد يكون الآباء من طلاب العلم وأول ما يهتمون به تعليم أبنائهم في منازلهم، وهذا كله غير متوفر لنا في القرية ولا في ذرعا، ولهذه كانت وسائل الهداية في المدينة أفضل منها في القرية.

كان من أساتذتنا في المرحلة الإعدادية الذين تركوا أثرًا طيبًا: الشيخ عبد العزيز

أبا زيد الذي درَّسنا مادة التربية الإسلامية، وكنا نشهد خطبته يوم الجمعة في المسجد العمري، وحديث الثلاثاء في مركز الإخوان المسلمين، حيث كان يتولَّى قيادة الإخوان في حوران، وكنا نتردد على منزله في الكرك. رحم الله الشيخ عبد العزيز أبا زيد، فقد كان شيخنا الأول واستفدنا منه كثيرًا.

والأستاذ محمد بن لطفي الصباغ جاءنا سنة ١٩٥٤م وكان شعلةً من النشاط، يشارك في حديث الثلاثاء بمركز الإخوان المسلمين، ونصحبه أحيانًا في زيارته للقرى، فكان يخطب الجمعة، ويخصنا بنصائح ووصايا، وقد استمرَّت صحبتي له طوال هذا العمر والحمد لله. التقينا في دمشق، ثم في المملكة العربية السعودية حيث كان أستاذًا في الكليات [أصبحت جامعة الإمام محمد بن سعود]، ثم أصبح أستاذًا في جامعة سعود في الرياض، وكنت أستاذًا في المعاهد العلمية. وبعد خروجي من السعودية كنا نلتقي، ولقد استفدت من أبي لطفي كثيرًا، فهو عالم متمكن ولا يُضيِّع وقته، ولهذا كان علمه في ازدياد، وكنت معه دائماً في مقام التلميذ من الأستاذ حتى يومنا هذا.

والأستاذ أحمد الجنادي كان أستاذنا في مادة اللغة العربية، ولم تكن له دروس حيث شُغِل بعمل إداري، ثم صرت أسمع بعد خروجي من سورية أنه كان يخطب الجمعة في مسجد من مساجد دمشق. رحم الله أستاذنا الشيخ أحمد الجنادي.

والأستاذ محمد راتب النفَّاخ، الذي أحببناه وصحبناه ثم استمرَّت صحبتي له عندما انتقلتُ إلى دمشق، وأصبح هو من كبار أساتذة جامعة دمشق في علوم اللغة

العربية، ثم مرجعًا لهذه العلوم على مستوى البلاد العربية. فالأستاذ محمود محمد شاكر معتدٌّ بنفسه وبعلمه- وحق له ذلك- ورغم ذلك فقد قرأتُ له في مقدمة أحد كتبه: "وهذه المخطوطة أهداها إليَّ تلميذي ثم زميلي ثم أستاذي أحمد راتب النفَّاخ". رحم الله الأستاذ النفّاخ.

والأستاذ محمد علي الخصواني، وسيأتي الحديث عنه.

والأستاذ الشيخ عبد الله القلقيلي الذي أصبح فيما بعد مفتيًا عامًّا للمملكة الأردنية الهاشمية.

والأستاذ عبد الرحمن النحلاوي، وأصبح فيما بعد أستاذًا جامعيًّا، ومن كبار المربِّين.

هذه الكوكبة الطيبة كانوا أساتذتنا في إعدادية ذرعا. وإن كان البعض منهم لم يدرِّس الفصل الذي كنت طالبًا فيه، لكننا التقينا بهم واستفدنا منهم.

وفي المقابل كانت أكثرية المدرسين من أصحاب الاتجاهات العلمانية الذين لا يدَّخرون وسعًا في بثِّ سمومهم، ولا يوادُّون أصحاب الاتجاهات الإسلامية من الطلبة، ومن أشهر هؤلاء:

يسار عسكري: من نشطاء حزب البعث العربي الاشتراكي وأصبح فيما بعد عضوًا في قيادة الحزب القومية.

وخالد الفاهوم: أصبح فيما بعد رئيسًا للمجلس الوطني الفلسطيني، وفي

مذكراته عبَّر عن ميله لحزب البعث وللطلبة الذين ينتمون إليه، وعن نفوره من أصحاب الاتجاهات الإسلامية، ونحن أصحاب هذا الاتجاه ما كنا نكنُّ ودًّا ولا كراهيةً له، ونشهد أنه كان لطيفًا في تدريسه وإدارته.

مجموعة من الأساتذة الفلسطينيين وجاء ذكرهم في مذكرات الفاهوم، ومما أذكره أن من أسماء عائلاتهم حسون، وقصراوي، ورمحي، وحجو، ويبدو أنهم لا يختلفون عن الفاهوم، وما كنا نراهم في المساجد.

مجموعة من المدرسين من نصارى حوران. وهؤلاء كانوا يُظهرون خلاف ما يُبطنون، ويقفون دائمًا في صف خصومنا، دون أن ينفردوا بعداوتنا.

وكان لي زملاء من الطلبة صاحبتهم في المرحلة الإعدادية، ثم في رحلة العمر، أحببتهم في الله لا لنسب ولا لجاه أو مال، وما أصعب على النفس أن تختزل رحلة الحياة معهم ببضعة أسطر، فعندما وصلتُ في المذكرات إلى الحديث عنهم تذكَّرتُ مراحل الحياة معهم في الإعدادية، ثم في الثانوية، ثم في الجامعة، وما بعد ذلك من مراحل، فشعرتُ بشوق شديد إلى مجالسنا العامرة، فأبعدت القلم والأوراق وجلست أستحضرهم واحدًا واحدًا، ثم تساءلت ماذا أكتب؟! إنني لو أفردت الحديث عنهم بكتاب لا أشعر بأنني وفَّيتهم حقهم، ولكن لابد من المقولة: ما لا يُدرك كله لا يهمل جله، ومن أشهر هؤلاء الأحبة:

فوَّاز بردان وقد مرَّ الحديث عنه، رحمه الله.

غسان بن عطا أبا زيد: لطيف المعشر، دمث الأخلاق، يأسر جليسه حتى ولو

كان من خصومه فلا يملك إلا احترامه، وكأن الله جلَّ وعلا قد خلقه لقضاء حاجات الناس. وصل في الجيش إلى رتبة مقدَّم، ثم سُرِّح عام ١٩٦٣م مع بداية انقلاب الحكم الطائفي، ثم أُعيد احتياطًا، ثم درس الحقوق وأصبح محاميًا.

اعتُقل غسان بعد أحداث ١٩٨٠م مع مجموعة كبيرة من ضباط الجيش السوري من رتبة ملازم أول وحتى رتبة لواء، ووُجِّهت إليهم تهمة القيام بانقلاب عسكري، كيف كُشف هذا التنظيم، ومن وشى بهم ومن يتحمَّل هذا الوزر من الإسلاميين؟! سأتحدث عن هذه المسألة في حينها إن كان في العمر بقية.

أخبرنا الذين خرجوا من السجن سواءً كانوا ضباطًا أو مدنيين أنهم قتلوا غسان- قتلهم الله- سواء كان ذلك إعدامًا أو تحت التعذيب، وخسرت الأمة رجلاً يعادل ألف رجل، رحم الله غسان ونحتسبه شهيدًا في سبيل الله، وأسأله تعالى أن يسكنه الفردوس الأعلى.

بحثتُ عن ابن غسان عبيدة- حفظه الله- وزوَّجتُه ابنتي أسماء وفاءً مني لأبيه، وله منها ولدان وابنتان، وسمَّى ابنه الكبير غسان تيمُّنًا بأبيه. أسأل الله أن يجعله مثل غسان وزيادة.

محمد حامد الناصر: من مدينة انخل، لطيف المعشر، سليم الطوية، يؤثر البساطة في حياته، ويبتعد عن الأضواء والمظاهر، يكره الذين يتاجرون في الدين ويبتعد عن مجالسهم. يعمل في ميدان التربية ولكن بصمت، ومن لا يعرفه يظن أنه غير قادر على فعل أي شيء، ومن ثمار هذه التربية أن معظم أبنائه- حفظهم الله-

يحفظون كتاب الله، ناهيك عن دوره في تربية وإعداد جيل.

تعزَّزت صلتي بمحمد الناصر أثناء الدراسة في جامعة دمشق، واشتركنا في بعض الأنشطة الإسلامية في كل من حوران ودمشق، ثم التقينا خارج سورية، وكان منزله العامر محطةً لنا أيام لم نكن فيها نعرف الفنادق ونجومها، وكانت زوجته الفاضلة تقوم على خدمتنا، رغم عملها في مجال التدريس، جزاه وجزاها الله كل خير.

انقطعتُ عنه لأمر لا يد لي فيه، وكنت أسأل عنه، فيأتيني الجواب: إنه مريض، فظننت أن هذا المرض لا يعدو أن يكون وعكةً صحيةً، ثم يعود إلى نشاطه، ولكنه لم يكن كذلك فجاءنا خبر نعيه، وكان يعلم أنه أُصيب بذاك المرض، وأحبَّ أن يموت كما عاش بهدوء، ودون ضجيج، رحم الله أخانا الحبيب وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فاروق عرب: عرب ليس اسم عشيرته، ولكن والده رحمه الله كان متفانيًا في خدمة قضايا العرب ولهذا اختار هذا الاسم بدلاً من اسم عشيرته.

محمد عرب والد فاروق من أعيان فلسطين، وممن شارك في ثورة فلسطين، وثورة سورية، وكان قاضيًا في محكمة ذرعا، ثم انتقل فاروق ليتمَّ دراسته في اللاذقية، ثم التقينا في دمشق خلال مرحلتيْ الوحدة والانفصال، وكان النشاط السياسي في أوجه.

فاروق صادق اللهجة، واضح وصريح، يكره الخداع والمراوغة. شقَّ طريقه

بصعوبة بالغة، لم يكن والده يريد له هذا الاتجاه، ولكنه تغلَّب على كل العقبات التي واجهته.

ومما لازلت أذكره لقاءٌ لي مع والده قبل وفاته بزمن يسير. شكا لي من زملائه في العمل الوطني الذين يندر فيهم الوفاء، وأضاف: أنا معجب بكم أنتم مجموعة فاروق، وهذا هو الطريق الصحيح.

بعد غياب طويل التقيت فاروق في قطر، وعدنا نلتقي كما كنا، ومعنا ذكريات الشباب، ومعنا أيضًا ما قال عنه الشاعر:

وقد جعلتُ إذا ما قمت يثقلني ثوبي فأنهض نهض الشارب السكِر

وكنت أمشي على اثنتين معتدلاً فصرتُ أمشي على أخرى من الشجر

كل منا يحمل عصاه أو[عكازته]، ولكل مرحلة من مراحل العمر ميزة خاصة، فلا الشباب يعود، ولا الشيخوخة مذمومة إذا كانت في طاعة الله سبحانه وتعالى. حفظ الله فاروق، وجعل الحياة زيادةً لنا وله في كل خير.

ومن هؤلاء الزملاء وبمثل تلك المزايا آنفة الذكر المحامي عدنان أبو قويدر، ومدرس الرياضيات عبد الغني علوه، رحمهما الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله". ومن هؤلاء السبعة: "رجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه". متفق عليه.

اللهم إنك تعلم أننا تحابينا في الله، وعليه كان اجتماعنا، وعليه كان تفرُّقنا، اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك، وأجلسنا على منابر من نور، إنك على كل شيء قدير.

بدأت أتعرَّف على طلبة الإعدادية من أبناء عشيرتنا آل الحريري، وكان ذلك بمبادرة من والدي الذي جمعني بمحمد بن أحمد عبد الغني الحريري من قرية إبطع، وهو يكبرني بخمس سنين تقريباً، وكنا نسميه محمد الطويل، وكان طويلاً ونَصِفه بهذه الصفة لنميِّزه عن محمد آخر كنا نسميه محمد الصغير وهو من قرية داعل.

محمد أحمد عبد الغني كان طالبًا بالصف التاسع، دمث الأخلاق، راجح العقل، وكنا نعتبره كبير أبناء العشيرة وهو الذي عرَّفني على بقية الطلبة من أبناء عمومتنا. كنا نجتمع بين الحين والحين الآخر، ونوثِّق المعرفة بيننا. ومما يجدر ذكره أن تركيبة المجتمع الحوراني قبلية، وخاصة في تلك الأيام، ويصدق في المجتمع القبلي قول الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وقول شاعر آخر:

وما أنا إلا من غزيَّة إن غوت غويتُ وإن ترشُدْ غزيَّة أرشُدِ

وقول المثل: "أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب".

رأي في رابطة العشيرة

وأنا في حياتي مررت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: كنت أحمل فيها عقليةً قبليةً، هكذا وُلدت وهكذا نشأت وتربيت، فإذا وقع صدام بين عشيرتي وعشيرة أخرى، لا أهتم ولا أسأل عن الأسباب ومع من يكون الحق؟ هذا لم يكن واردًا، بل كنت أقف إلى جانب قومي.

هل سبب ذلك صغر سني؟ مهما كان السبب فهذا كان مني خطأ، ويجب أن تتربَّى الأجيال على المنهج الحق الذي ارتضاه الله لنا وليس على الجاهلية، كما يجب علينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر: "إنك امرؤ فيك جاهلية" [(١)]، أي فيك خُلُق من أخلاق الجاهلية، وسبب ذلك أنه قد سابَّ رجلاً فعيَّره بأمه، فكان بعد ذلك يُلبس خادمه مما يلبس، ويُطعمه مما يأكل، ولا يكلفه أكثر من طاقته.

المجتمع القبلي فيه كثير من خصال الجاهلية، ويفتقد العدل والاستقامة، لأن الهيمنة والسؤدد للقبيلة الأقوى، وتكون المسؤوليات وقفًا على رجالها، ويُحْرم الرجل المناسب من المكان المناسب.

ظلم وطغيان النظام القبلي كان من أسباب الانقلابات العسكرية التي تولَّى وزرها من استغل الظلم الواقع بالأمة، فرفع عقيرته مناديًا بالعدل والمساواة، وهم

---

(١) متفق عليه.

من أبعد الناس عن العدل وأهله، فكان مثلهم كمن يطفئ النار بالنار لا يزيدها إلا اشتعالاً.

المرحلة الثانية: بينما كان جيلنا في أوج نشاطه الدعوي من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، انتشرت بيننا المقولة: "جنسية المسلم عقيدته"، فأصبح أكثر أبناء جيلنا لا يعترف بعقلية العشيرة ولا يقيم لها وزنًا، وحول مصطلح جديد أيضًا: "مسلم فحسب"، كُتِبت المقالات ونُظِمت قصائد شعرية، وأناشيد يتغنَّى بها الشباب. ولا أنكر أنه أصابني رذاذ، وأشدِّد رذاذ، ليس أكثر من هذه البدعة الجديدة، وكان هذا مني خطأ.

ولا أدري هل مقولة: "جنسية المسلم عقيدته" خاطئة أو كان فهمنا لها هو الخطأ؟! فالعقيدة عند المسلم لا يُقدَّم عليها شيءٌ في حياته، ومن أجل عبادة الله وحده لا شريك له أرسل جلَّ وعلا الرسل، ولكن لا أدري ما علاقة الجنسية بالعقيدة؟! فالعربي مثل التركي أو الكردي والباكستاني، وسائر جنسيات أهل الأرض إذا كانوا مسلمين.

كما أنني لا أدري لماذا مقولة: "أنا مسلم فحسب"؟ وماذا نفعل بحديث رسول الله ﷺ: "أنا خيار من خيار من خيار"، فهو من بني هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، وقول علمائنا: العرب في مجموعهم خير من العجم في مجموعهم، ولا يقتضي ذلك تفضيل مطلق للعرب، فقد يكون العجمي خيرًا من العربي.

هذه الفهوم السقيمة يزدهر سوقها إذا قلَّ العلماء العاملون وتولَّى أمر التربية من لا علم عنده.

المرحلة الثالثة: استقرَّت قناعتي بعد هذه التجارب الطويلة على أمور أنصح بها شباب الدعوة:

١ - أن نبدأ بما أمر الله خاتم رسله ﷺ أن يبدأ به، قال جلَّ من قائل: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤ - ٢١٦]، وفي رواية مسلم في صحيحه قال ﷺ: "يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم". وفي رواية البخاري ومسلم وآخرين أنه صعد الصفا ونادى فاجتمع الناس فقال: "يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد: ١].

والبدء بالعشيرة اليوم وغدًا لا يعني أن ينصرف الداعية لها وحدها، بل يعني أن يهتم بها ويعطيها جزءً من وقته وعلمه.

٢- هذا الإنذار لن يُبقي العشيرة كما كانت قبله، بل سيقسمها إلى قسمين، ولكل قسم تبعاته، وهذا واضح بيِّن في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾. فمن آمن منهم معه فعليه أن يقرِّبهم منه، ويعطيهم حقهم من التربية والإعداد، ويلحقهم بركب السابقين الأولين من خير أمة أُخرجت للناس.

والذين عصوه صنفان: أبو لهب ومن كان على شاكلته، فعليه أن يتبرأ منه ومن عمله، وأبو لهب هو عم الرسول ﷺ، ومع ذلك فقد أنزل الله به وبزوجته قرآنًا يُتلى ومصيرهما جهنم وبئس المصير.

وأبو طالب عمُّ رسول الله ﷺ، لم يستجب للإنذار، ولكنه أحسن لرسول الله ﷺ وآزره، ووقف إلى جانبه في السراء والضراء، ومع ذلك فقد أصرَّ على عقيدة آبائه وأجداده، فكان مصيره جهنم ولكن عذابه فيها أخفُّ كثيرًا من عذاب أبي لهب، ومدار أمور العقيدة على الإيمان وليس على القرابة من رسول الله ﷺ.

وفي رواية للحافظ أبي بكر البيهقي في "دلائل النبوة" في سنده عن ابن إسحاق، أن رسول الله ﷺ تردد بعض الشيء قبل الإنذار لأنه سيرى منهم ما يكره، ولكنه امتثل لأمر الله بعد هذا التردد.

عشيرة رسول الله ﷺ كانت مشركةً وكذلك كانت البشرية، أما عشائرنا اليوم فهي مسلمة، ولكنهم أنواع، فمنهم من هو من أهل الصلاح والتقوى، ومنهم من هو من أهل النفاق والشقاق، ومنهم من هو من أهل الأهواء ولا يعمل إلا بما يمليه عليه هواه، ومنهم صاحب الفطرة الطيبة.

فإذا كان الداعية عالمًا عاملاً متجرِّدًا في إنذاره، استجابت له مجموعة من أهل الخير والفضل وسلامة الفطرة، وناوأته مجموعة أخرى من أهل الشقاق والنفاق أو من الحاسدين، والحسد يقتل صاحبه، فقد يكون صوَّامًا قوَّامًا، ولكنه يكيد أشدَّ الكيد لمن يُقبل الناس عليه ويكتب الله له المحبة في قلوب الناس.

والبقية من أبناء العشيرة قد تتأخر في الاستجابة للدعاة، وقد لا تستجيب لكنها لا تعادي أهل الخير، وهذا هو حال الناس في كل عشيرة.

فعلى الداعية أن يصطفي أهل الخير والفضل ويُلحقهم بركب الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهذا الركب المبارك يجب أن يتولى فيه التوجيه والتربية والإعداد رجال تتوفَّر فيهم أعلى صفات المسؤولية، ومن هذه الصفات:

- التقوى: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى مراعاة حدود الله أمرًا ونهيًا، والاتصاف بما أمرك الله أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه [١]، وكان رسول الله ﷺ أكرم البشر على الله تعالى. قال ﷺ: "إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي" [٢].

---

(١) انظر تفسير الطبري في تفسير الآية.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها.

- أن يكـون حفيظًـا علـيمًا: قـال تعـالى: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ ﴾ [يوسف: ٥٥].

- أن يكون قويًّا أمينًا: قـال تعـالى: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ ﴾ [القصص: ٢٦].

هذه هي أهم الصفات التي يجب أن تجتمع في قادة الأمة والجماعات الإسلامية، وليس النسب من هذه الصفات. ولعل سبب تخلف دولنا وهيئاتنا سوء اختيار القادة، والأسوأ أن يفرض القادة أنفسَهم بقوة السلاح ودون أن يكون هناك مجال للاختيار.

٣- ومما أنصح به الداعية أن يكوِّن رابطةً لأبناء عشيرته، بالتعاون مع أهل الخير والفضل فيهم، والغرض من هذه الرابطة: إغاثة الملهوف، ومساعدة الفقير، وتقديم كل دعم ومساعدة سواءً كانت ماديةً أو معنويةً، ومن المساعدات المعنوية النصح ونشر الدعوة والأخذ على أيدي السفهاء.

وعلى الداعية أن لا يخلط بين نشاطه العام، ونشاطه داخل دائرة أولي القربى، ولا يبالي بعد ذلك بمن يظلمه فيتهمه بالتعصب للقبيلة.

سيقف بوجه الرابطة السفهاء من أولي القربى، وسيتهمون الداعية بشتى الاتهامات، فالسفهاء لا يرضيهم شيء.

إذا رضِيَتْ عليَّ كرام عشيرتي فلا زال غضبانًا عليَّ لئامها

ولكن لا ترد عليهم لأنهم يريدون استدراجك فتنزل بردِّك عليهم إلى مستواهم المتدني، سيجدون من أهل الخير من يكشف أباطيلهم، وتذكَّر دائمًا موقف أبي لهب وأمثاله من رسول الله ﷺ، فالهداية بيد الله وحده، وتمثَّل قول الشاعر:

وإن الذي بيني وبين بني أبـي ... وبين بني عمـي لمختلـف جـدّا

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإن هدمـوا مجـدي بنيتُ لهم مجـدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهـم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جـلُّ مالي إن تتابـع بي غـنىً ... وإن قـلَّ مـالي لم أكلِّفهـم رِفْـدا

الوضع العام في مجتمعنا الجديد

قلتُ فيما مضى:

"للقارئ الكريم أن يتصور مئات الطلبة حلُّوا فجأةً في بلد، وكل ثلاثة أو أربعة منهم تقاسموا غرفةً، وأعمار هؤلاء الطلبة بين [١٣ – ١٥ عامًا] وليس عليهم حسيب أو رقيب".

ومن أجل أن تكتمل الصورة من كافة وجوهها لابد لنا من بيان الوضع العام في مجتمعنا الجديد:

أولاً- لم تكن هناك محاضن تربوية إسلامية، فلم يكن في ذرعا بمحطتها وكركها وقريتها إلا مسجدان: مسجد صغير في المحطة ويبدو أن التجار الدمشقيين هم الذين بنوْه، وإمامه وخطيبه شيخ دمشقي اسمه صالح الحلبي، وليس له تأثير يُذكر، ومما أذكره أن رزقًا، وهو في سن والدي، سمعتُه ذات مرة يقول: يطيب لي النوم أثناء خطبة الجمعة التي يلقيها الشيخ صالح. رأيت فيما بعد مقالات للشيخ صالح في مجلة التمدن الإسلامي. والمسجد العمري في القرية وخطيب الجمعة فيه أستاذنا الشيخ عبد العزيز أبا زيد، وكان مُجِدًّا نشيطًا في دعوته، ولكن الاستجابة محدودة. ومن جهة ثانية فالطلبة يسكن معظمهم المحطة والمسجد العمري بعيد عنهم، وعدد الذين يُصلُّون الجمعة فيه منهم قليل جدًّا.

هذا من حيث المساجد التي تؤدي اليوم دورًا كبيرًا جدًّا في التربية والتعليم، أما من حيث الدعاة فلم يكن بين مدرسينا مدرس واحد من أهل حوران يحمل شهادةً

جامعيةً في العلوم الشرعية، ولم تكن كلية الشريعة في جامعة دمشق قد فتحت أبوابها. لقد جاءنا في السنة الثانية الأستاذ أحمد الجنادي، وكان يدرِّسنا مادة اللغة العربية وليس العلوم الإسلامية.

ومما يجدر ذكره أن عدد الذين يحملون شهادةً جامعيةً من الكليات الشرعية اليوم يبلغ المئات، وعدد الذين يحملون شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية يبلغ العشرات، ولهؤلاء- جزاهم الله خيرًا- دور كبير في نهضة حوران الإسلامية اليوم.

وثالثة الأثافي، جهل الناس بأحكام دينهم، وانصرافهم إلى سائر أمور دنياهم، فمعظمهم لا يُصلُّون إلا إذا بلغوا الأربعين، ومن الذي يضمن أن يعيش حتى يبلغ الأربعين، والصلاة عمود الدين، والبعض قد يصوم في شهر رمضان الفضيل دون أن يصلي. وهذا- في العموم- حال الريف في الشام وليس في حوران وحدها.

ثانياً - المثقفون السابقون: لا تذهب بعيدًا وتظن أن بين هؤلاء من هو في مرتبة مثل: غوته وفولتير ورينان وأرسطو وأفلاطون وابن سينا، أو على الأقل مثل الكواكبي أو الرافعي أو العقاد. فالمثقفون هم الذين درسوا في المدارس فنالوا الشهادة الثانوية ثم انتسبوا للكلية العسكرية أو تابعوا دراستهم الجامعية وتخرَّجوا من جامعة دمشق، وهم أيضًا الذين استبدلوا اللباس الإفرنجي باللباس الريفي. هذا هو المثقف في عرف أهل حوران، ومجموعهم لا يتعدَّى العشرين.

ومن أشهر هؤلاء: قاسم الخليل، عبد الحميد الخليل، أحمد عبد الكريم، طعمة

العودة الله، موفق الشرع، هاني سالم، هاجم فلوح، هاجم الزعبي، سعيد الزعبي، عدنان قطيفان، فوَّاز محارب، أحمد سويدان، مصطفى الحاج علي، موسى الزعبي، عبده الخليل، إبراهيم المقداد.

وأول ما يصدم القارئ الكريم أنه ليس بين هؤلاء من يحمل اتجاهًا إسلاميًّا. وثاني ما يجب أن يعلمه القارئ أن معظم هؤلاء انتهازيون، والانتهازي قد يكون اشتراكيًّا، وقد يكون قوميًّا أو طائفيًّا. كما كانوا أداةً لعبد الناصر والناصرية، ومما يجدر ذكره أن الذين ساروا في ركابهم استخدموهم أبشع استخدام ثم لفظوهم فخسروا دينهم ودنياهم. ومن العدل القول: إن بعض هؤلاء لم يأت منه ضرر ولا نفع، وعاش لدنياه.

ثالثاً – مناقشات الطلبة: اجتمعت حوران والزوية في مكان ضيق واحد، من خلال مئات الطلبة الذين وفدوا من جميع قراها، وكنا حديثي عهد بالاستقلال الذي انتزعناه من فرنسا بعد مقاومة استمرت ربع قرن. والاستقلال يبعث روح العزة والحرية والكرامة في نفوس أبناء الوطن، ويشعرهم أنهم قادرون على تحقيق جميع الأهداف والأمنيات.

ومن أهم هذه الأهداف والأمنيات الوحدة العربية، التي لا خلاف عليها بين الصغار والكبار، وعليها تتربَّى الأجيال الناشئة في مدارسها ومنازلها ومساجدها. ومن لا يؤمن بها من أبناء الأقليات يضطر إلى مسايرة الأكثرية من أبناء السنة، وقد تكون أصواتهم هي الأعلى، وقد يلجأون إلى التحايل والمراوغة فينادون بسورية

الكبرى حسب طريقة الحزب القومي السوري، ومما لازلت أذكره وأحفظه أن أستاذنا إبراهيم شحادة في مادة الموسيقى كان يصطحب معه العود ويغني الأغنية الآتية ونحن نردُّ عليه:

يا عين عيني يا عـــين والعرب كليتهم زين

وحدتهم ما بين قوسين يا عين عيني يا عــين

وادي النيل الله يحميك والعراق أملنا فيــك

فاروقنا بالروح نفديك فيصل حفيد الحسنين

يا عين يا عيني يا عين

هـذا في مـادة الموسـيقى فـما بالـك بمـواد العربيـة والاجتماعيـات والعلـوم الإسلامية... وكنا طلابًا بالسنة الأولى الإعدادية، وهكذا صار يرفع شعار الوحدة العربية من يتآمر عليها ويشتدُّ في كيده لها مما سيأتي الحديث عنه في جزء آخر من أجزاء مذكراتي.

كان الطلبة يتناقشون في كل شيء خلال لقاءاتهم الكثيرة وهم الذين لا يعلمون شيئًا يستحق الذكر، ولا يفهمون أن هذه المسائل أكبر منهم:

- يتناقشون في القضاء والقدر. هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟

- يناقشون الطلاب النصارى في ذات المسيح، وفي ثالوثهم: الأب، الابن، والروح القدس، إله واحد. أذكر ذات مرة أن النقاش حمي أواره بيننا فذكر

النصارى الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢]، وكانوا على شيء من العلم في إثارة الشبهات الباطلة التي نعجز عن تفنيدها، فقال أحدهم: هذا هو روح القدس كما ورد في قرآنكم، وكسبوا الجولة. وعندما انفضَّ المجلس واختلينا بعض الوقت لنقوِّم أداءنا قال أحدنا من شدة غضبه: "يا عمي الله ما وجد كلمةً غير فنفخنا فيه من روحنا". فقلنا له: استغفر الله، فهذا لا يجوز أبدًا.

وكنا في مثل هذه الحالة المحرجة نتذكر الشيخ عبد العزيز فنسأله ويجيبنا الجواب الشافي، والشيخ عبد العزيز عندنا في ذرعا مثل خليف عند أهل تسيل الذين لا يجدون غيره ليقرأ رسائلهم.

- عرفتُ حزب البعث من خلال موفق الشرع وآخرين من الطلبة، رأيتُه لأول مرة يزور الطلبة في سكنهم، وكان البنطال الذي يلبسه "شورت"، أي يغطي نصف الساق، وكان هذا المنظر في عرفنا من أنكر المنكرات، وما رأيت من قبل رجلاً من أهل حوران يلبس مثل لباس موفق الشرع، أما الآخرون من البعثيين الذين عرفتهم فكانوا من أحطِّ الطلبة أخلاقًا، فكرهتهم وكرهت موفق الشرع وحزبهم منذ الوهلة الأولى.

ورغم هذه الكراهية فلقد شهدت جلسات نقاش بينهم وبين آخرين، فكانوا يتحدَّثون عن العرب والمزايا التي تفضِّلهم على غيرهم، ثم يشيدون بالعصريْن

الجاهلي والأموي ويتجاهلون عهد البعثة النبوية وبعضهم لا يدّخر وسعاً في النيل منها ولكن بالهمز واللمز، ثم يصبّون جام غضبهم على الدول التي تدين شعوبها بالإسلام كتركيا وباكستان وإيران وغيرها، ويفضِّلون المسيحي العربي على المسلم غير العربي، بل لا يأبهون للدين في تفضيل هذا عن ذاك.

– شاركت في كثير من هذه الحوارات – هذا إن جاز تسميتها حواراً –، وكنت في معظمها مستمعاً، فهي قضايا جديدة عليّ ولا علم لي بها من قبل.

كنت قد سمعت عن حزب البعث العربي من قبل. كان الدكتور مدحت البيطار طبيبًا في نوى، وكان يتردد على تسيل ويدعو إلى الحزب، وكان الذين يتردد على بيوتهم يردِّدون في المضافات ما يسمعون منه ومن أهمها: إنه حزب العمال والفلاحين، وفي هذا القول لمز بالعشائر التي لها نفوذ واسع في حوران.

وسمعت بالحزب العربي الاشتراكي حيث رأيت بطاقة انتساب يحملها ضيف من ضيوفنا، وعندما سأله أحدهم: ما الفائدة من هذه البطاقة؟ أجاب بكل صلف: هذه إذا اعترضك دركي أبرزها له فيخشاك ويتركك تمضي في سبيلك. ومثل هذه الأوهام كانت أحلامًا، فالدركي هو الذي اعتقل أكرم الحوراني بالذات عندما جاءته أوامر الحاكم العسكري أديب الشيشكلي.

والحزب القومي السوري جاء المعلم جروان سابق يبشِّر به– وهو نصراني– وكان يعلِّم طلاب السنة الثانية في المرحلة الابتدائية الذين يدرِّسهم تحية الحزب، فإذا مرَّ المعلم في الشارع يرفع التلميذ يده ويقول له: تحيا سورية. فيرد: عاشت

سورية.

جروان رأيته فيما بعد في بيروت وقد أصبح صاحب دار نشر، وألَّف قاموسًا، ولم نتحدَّث في لقائنا في أمور سياسية بل عن النشر وآماله، وأظن أن الحزب كان في مرحلة من مراحل حياته ثم تجاوزها.

هذا هو مبلغ علمي عن هذه الأحزاب، أما موقفي منها فهو مرتبط بتربيتي البيتية، وهذه التربية رسَّخت عندي أمورًا يصعب التنازل عن واحدة منها:

فمنها: أن والدي- رحمه الله- كان يحب العلماء، ويتردد على مجالسهم عندما يسافر إلى دمشق، فنشأتُ أحب العلماء، وكانت شخصية الشيخ عبد العزيز أبا زيد- رحمه الله- تأسرني، كنت أبحث عن أي سؤال لأتحدَّث معه، وكان ليِّنَ الجانب يقف مع الصغير والكبير لا يدعه إلا وقد أجابه، ثم صرنا نصلي الجمعة معه في المسجد الغربي، ونشهد درسه الذي يسبق خطبة الجمعة.

ومنها: أن والدي كان لا يسمح لنا بمخالطة السفهاء من أقراننا، وكان يراقبنا أشدَّ المراقبة، وبلغ به الأمر أنه إذا أرسلنا في حاجة له يقول لنا: اذهبوا من هذا الطريق، وليس من ذاك، لأن الطريق الأخير اعتاد أن يلعب على بعض جنباته من يرى أنهم سفهاء ويخشى أن نختلط بهم.

ومنها: كما قلت في الجزء الأول من مذكراتي: كان عمي حمزة وابنه ناجي ووالدي يحرصون على حضوري في مجالسهم، ويقدِّمونني لإلقاء كلمة ترحيب بالذين يزورون القرية من الوجهاء وكبار المسؤولين.

هذه التربية كوَّنت عندي ثقةً بالنفس، وتجنُّب التسرع في اتخاذ المواقف، وقدرةً على التأثير بمن حولي.

وقصارى القول: فقد كرهتُ حزب البعث لأنني رأيت بأن المنتسبين إليه من أسفه السفهاء، وكرهت الحزب القومي السوري لأن أكثر الذين كانوا يدعون إليه من النصارى ومؤسسه نصراني- أنطون سعادة- وكذلك مؤسس حزب البعث- ميشيل عفلق- وليس في تربيتي ما يحببني بأنطون وميشيل.

وكنت بالفطرة منحازًا إلى كل ما هو ديني، وهذا الذي قرَّبني من جماعة الإخوان المسلمين، وكان أول من عرفته منهم الشيخ عبد العزيز، ولكن العلاقة معه لم تكن تتجاوز السؤال والجواب والاستماع إلى درسه، وبعد حين تعرَّفت على أستاذنا في مادة الفيزياء محمد علي الخصواني رحمه الله، ولا أذكر بالتفصيل كيف تمَّ هذا التعارف، وكل الذي أذكره أنه زارنا في غرفة سكننا المتواضعة وجلس بيننا على الحصير. كان متواضعًا غاية التواضع، هادئ الصوت، ثم حدَّثنا حديثًا طيِّبًا، ونصحنا، وحذَّرنا من السوء وحملته. تركت زيارته أثرًا طيِّبًا في نفوسنا، ثم تكررت زياراته لنا، وزاد اهتمامه بنا.

الأستاذ محمد علي الخصواني لم يكن عالمًا أو مؤلفًا أو خطيبًا، ولم يكن من الأسماء البارزة، وهو من جهته ما كان يحدِّثنا عن نفسه، ولم نشعر في يوم من الأيام أنه كان يبحث عن شهرة أو وجاهة، لكنه بصدقه ولين جانبه وإنكاره للذات ترك أثرًا سحريًّا في نفوسنا، وكان له الأثر الفعَّال في انتسابنا إلى جماعة الإخوان

المسلمين.

ونحن- الدعاة- الذين كنا قبل أكثر من ستين عامًا طلابًا في إعدادية ذرعا، نذكر إذا التقينا المشاهير ممن لهم فضل علينا، ولا نذكر أمثال الخصواني بالرغم من فضله علينا، ومثل هذا النسيان أو الإهمال يجب أن يستدركه الأحياء منا.

كنت فيما بعد ألقى أبا هشام فيقابلني بابتسامته المعهودة وبتواضعه الجم، وكأنني أنا الأستاذ وهو التلميذ، وليس الأمر كذلك، اللهم ارحم أبا هشام وأسكنه الفردوس الأعلى.

من أهم مشكلاتنا وهمومنا في حوران

أرى من المناسب في مطلع هذا البحث أن أُذكِّر القارئ الكريم بأمريْن كثر الحديث عنهما في الجزء الأول من مذكراتي:

الأول: الصراع المفتعل بين المدن والأرياف، قد يبدو لأول وهلة طبيعيًّا وليس وراء ذلك أية غرابة، ولكن اليساريين والقوميين العلمانيين الذين أصابتهم لوثة الاشتراكية جعلوه صراع طبقات، فأهل الريف عمال وفلاحون، وأهل المدن رأسماليون وإقطاعيون، وعملوا على توسيع الهوة بين الطرفين، زاعمين أنهم محامون عن العمال والفلاحين، وراحوا يخوضون المعارك لانتزاع حقوق هؤلاء الفقراء من الظالمين المستبدِّين.

أما الآخرون فقد اعتبروه صراعًا بين أهل السنة الذين يشكِّلون أغلبية أهل المدن، والأقليات الدينية والعرقية التي يستوطن معظمها في الأرياف، ولهذا فقد تكتَّلت هذه الأقليات مع الانتهازيين من ذراري أهل السنة الذين لا يستطيعون قيادة شؤون البلاد والعباد أو المشاركة على الأقل في هذه القيادة إلا إذا تحالفوا مع هذه الأقليات تحت أي مسمَّى، ظانين أن الأقليات لن تكون أكثر من مطيَّة لهم، ولكن السحر انقلب على الساحر فخسر دينه ودنياه، وهلك غير مأسوف عليه.

الثاني: كانت الأقليات الدينية والباطنية تهيمن على قيادة الجيش، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهذا الجيش من ألفه إلى يائه صنعته فرنسا وكان اليد التي تبطش به دون أية شفقة أو رحمة.

واستمرَّت هذه الأقليات في هيمنتها بعد رحيل المستعمر الفرنسي، وعندما طُرِح أمر هؤلاء الضباط ليقل قادة البلاد كلمة الفصل بشأنهم أنهى الرئيس النقاش بقوله: "عفا الله عما سلف"، ثم أصبح كلام شكري القوتلي هو القرار المتَّخذ، ثم استمرَّ هؤلاء في هيمنتهم، يتدخلون في الشأن السياسي، وإذا عارض السياسيون هذا التدخل وقابلوه بالرفض على شؤون الجيش، ولا يتوقفون عند هذا الحدِّ، وإنما يدُسُّون أنوفهم في الشؤون التي هي من اختصاص القيادة السياسية، وإذا شاءت هذه أن توقفهم عند حدِّهم- وهذا من حقهم- فوجئت بانقلاب عسكري يتبعه فرض الأحكام العرفية، ومصادرة الحريات، والزج بقادة البلاد في سجونهم التي يمارسون فيها أبشع أنواع التنكيل والاضطهاد.

ومما يجدر ذكره أن الأوضاع العامة في حوران أرضية خصبة لهؤلاء الذين يصطادون في الماء العكر، وفيما يأتي بعض الأمثلة على ذلك:

١- كانت الطرقات بين القرى غير معبَّدة، والطريق المعبَّد الذي يكاد يكون وحيدًا هو بين دمشق وذرعا، والوصول إليه فيه مشقة كبيرة، وإذا نزلت الأمطار تصبح القرى معزولةً، فالمريض قد يفارق الحياة دون وصوله إلى الطبيب.

يستطيع الطالب أو الموظف اليوم أن يذهب من تسيل إلى ذرعا ويعود إلى بيته بعد انتهاء الدوام، أما أثناء دراستنا في المرحلة الإعدادية، فعندما يتفقد أبٌ لأحد زملائنا ابنه نلتفُّ حوله ونسأله عن البعيد والقريب من أهل القرية، ثم نتناقل هذه الأخبار التي تصبح مادةً في أحاديثنا وطرائف في أسمارنا، وكأن القرية تبعد عن

ذرعا مئات الأميال.

ونفرح عندما تقترب بداية عطلة الربيع التي ننتظرها بفارغ الصبر، ونبدأ بشدِّ الرحال، وليس من السهل الحصول على سيارة تسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة في طريق شبه معبَّد إلى مدينة نوى، وهناك نبدأ رحلة السير على الأقدام من نوى إلى تسيل، ولابد لنا من خلع الأحذية، ورفع ملابسنا حتى منتصف الساق ونغوص في الوحل، والهواء الغربي البارد يصفع وجوهنا، وأيدينا مثقلة بالحاجات التي نحملها، وعندما نصل إلى محاذاة "تل الجموع" نبصر القرية أمامنا فنستبشر خيرًا وندرك أننا قطعنا أكثر من منتصف الطريق، والمسافة كلها ستة أميال. إنني اليوم وأنا أخطُّ هذه السطور ينتابني شوق إلى القرية، لكنني لا أحب هذا الطريق حتى وإن كان معبَّدًا.

من ذكرياتي عن هذا الطريق أن أصهار أحد أقربائنا زاروا ابنتهم، وفي طريق عودتهم مات أحد أولادهم من شدة البرد والصقيع، وكان لا يتجاوز العاشرة من سني عمره، ولم يكن الضحية الأولى ولا الأخيرة التي تقضي نحبها في هذا الطريق.

ومن ذكرياتي أيضًا أنني سافرت إلى مدينة جاسم لقضاء حاجة لي، وكانت فرسنا مطيتي، وعندما وصلت شمالي غربي مدينة نوى اضطربت الدابة في مشيتها، فانتابني شعور أنها ستهلك فقفزت للفور عن ظهرها، وعندما استويت واقفًا سقطت الدابة، ولم تنهض بعد ذلك، فأودعت ما يصعب حمله عند أقرب منزل، واستأنفت طريقي إلى جاسم ماشيًا، لكنني لم أخلع حذائي لأن السفر كان في

الصيف ولم تكن هناك أمطار ولا أوحال.

٢- كان أهل حوران يعتمدون في زراعة أرضهم على مياه الأمطار، فإذا حُبست تحوَّلت الأرض إلى صحراء ، ثم تأخذ السيول طريقها إلى جفاف، ومعها البِركة التي يشرب منها أهل القرية، وأخرى للدواب كنا نسميها "المطخ"، ثم يتحول الناس ومعهم دوابهم إلى عين "بَرَق" التي تبعد عن تسيل مسافةً لا تتجاوز ميلَيْن، ومن يراقب هذا الطريق خلال مرحلة الجفاف يجدْه مزروعًا بالناس ودوابهم.

ويصدق في ناسنا قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

وإذا كان الماء فوق ظهور العيس، فماء ناسنا في تسيل وما حولها في باطن الأرض، وفي عمق لا يتجاوز ثلاثة أمتار أحيانًا، وهذا غير السهول والوديان وفروع نهر اليرموك التي يذهب ماؤها هدرًا دون بناء سدود، وهذا أيضًا غير بحيرة طبريا التي اغتصبتها إسرائيل وعرفت كيف تستفيد منها ومن مياه نهر الأردن الذي حولته لأراضيها، واكتفت بعض الإذاعات العربية بترديد أغنية "نهر الأردن ما بتحول"، وتحول نهر الأردن ولم تتوقف الأغنية!!

كنا إذا اشتدَّ الجفاف نخرج في مظاهرات صاخبة، ونردد هتافًا واحدًا:

"يا حكومة أنصفينا وبالمياه زوِّدينا... ثم نهددها بالنغمة نفسها... بعد ساعة

ثائرينا" .

وبعد طواف في السوق وإغلاق المحلات نجتمع في ساحة المحافظة ويخرج المحافظ إلى الشرفة فيستمع إلى خطبة أحدنا التي يعرب فيها عن مطالب الطلبة ثم يرد علينا بكلمات موجزة: استمعت إلى مطالبكم وسنرفعها إلى رئاسة الحكومة، ثم يأمرنا بالعودة إلى مدارسنا، ونعود في اليوم الثاني إلى مدارسنا دون أن نثور بعد ساعة أو بعد سنة، ولا الحكومة تعتقل أحدًا منا بسبب هذا التهديد، ولا هي أيضًا تزوّدنا بالماء ولا أهالينا يساعدون أنفسهم فيستخرجون الماء من باطن الأرض فيشربون ويسقون أرضهم، كما فعلوا فيما بعد وحوَّلوا حوران إلى غوطة أخرى، مع أن الماء فيها أقل بكثير مما كان عليه قبل ستين عامًا.

٣- سوء الخدمات الصحية: مما أذكره أنه كان هناك مستشفى في ذرعا، وليس هناك مستشفى غيره في حوران كلها، ومما أذكره أيضًا أن المرضى كانوا يقصدون دمشق للعلاج، ولا يثقون بمستشفى ذرعا ولست أدري هل كانوا محقِّين أم لا؟ وإذا كان المرض بسيطًا يقصدون عيادات ياسين الحريري وأحمد الأسود وهؤلاء يعلمون أن المرضى لا يقنعهم شيء إلا الإبرة، فيعطونهم إبرة مهدِّئة، ومن يسمع تعليقاتهم عن هذه الإبر لا يسعه إلا أن يضحك، فهذا يقول: ذهب المرض والحمد لله بعد إبرة الدكتور ياسين، والثاني يقول: ما رأيت خيرًا بعد كمية الدم التي سحبوها مني، لقد كانت كبيرةً. والثالث يقول: إبرة الدكتور أحمد ما لا نفع فيه.

وهـؤلاء الأطبـاء [أحمـد وياسـين الحريـري] لهـم عيـادات خاصـة بـالمراجعين ويتقاضون أجرةً على كل مريض يراجعهم.

وكثير من المرضى يقضون نحبهم دون أن يـروْا طبيبًـا، ومـن هـؤلاء أخـي عبـد الغني رحمه الله الذي لم يمهله المرض أكثر من أسبوع ومثله الآلاف.

ففـي عـام ١٩٤٩م تفشَّـى مـرض الحصـبة في أطفـال تسـيل، فحصـد أكثـر مـن [١٥٠] طفلاً، وبينهم عدد لا بأس به من أبناء اللاجئين الفلسطينيين.

قد يقول قائل: هؤلاء وأولئك انتهت آجالهم، فأقول: هذا صحيح. لكن الأخذ بالأسباب واجب، والناس كانوا مقصِّرين في هذا الجانب.

صفحات من تاريخ سورية

السياسي

تمهيـــــد

إذا أردنا أن نفهم أبعاد الأحداث والتقلبات والمفاجآت السياسية في شامنا وما حولها، فعلينا أن نستعرض مثيلاتها بالأمس. فالحكام هم الحكام مراوغةً واستبدادًا، وهم هم الذين يقول لسان حالهم: كرسي الحكم أو الطوفان، والأقليات هي نفسها الأقليات التي لا يُؤْمن جانبها، ولا يتردد الكثير من أبنائها في الوقوف إلى جانب الغزاة المحتلين، ولا ننكر أن البعض منهم يقف في صف مقاومة المحتلين، ويرفض الغدر والخيانة، والسفهاء هم السفهاء سواء سمّوا أنفسهم علمانيين أو تقدميِّين أو غير ذلك، والغزاة المحتلون تتغير أشكالهم وتتوحَّد أهدافهم.

ولهذا فقد رأيت استعراض صفحات من تاريخنا الحديث الذي كنتُ شاهدًا على كثير من أحداثه أو التي قرأتها في مذكرات من شاركوا في صنع الأحداث أو سمعتها من بعضهم، وأرجو أن تتناسب مع منهجي في هذه المذكرات.

معركة دين الدولة الإسلام

خاض الإسلاميون انتخابات ١٩٤٩م، ونجح عن دمشق: الشيخ مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك، والدكتور عارف الطرقجي، وعبد الحميد الطباع، وسعيد حيدر، وصبحي العمري، وانضم إليهم عبد الوهاب سكر، وآخر اسمه عبد السلام حيدر لا أدري يمثل أي منطقة. وألَّف السباعي من هذه المجموعة كتلةً سمَّاها "الكتلة الإسلامية الاشتراكية".

وقبل المضي في الحديث عن هذا المجلس المنتخب أقف وِقفة إجلال وتقدير أمام اختيار دمشق، فسورية كلها عجزت عن تقديم ربع ما قدَّمته دمشق، وهذه واحدة، أما الثانية: فمصطفى السباعي من مدينة حمص، ومحمد بن عبد القادر بن محمد المبارك جاء جدَّه محمد من الجزائر بعد ثورة الأمير عبد القادر واستوطن دمشق كغيره من الجزائريين، لم يقل الدمشقيون: كيف نزهد برجال كبار الأسر العريقة في دمشق ونختار أبناء حمص وحلب والجزائر؟! بل قالوا: هؤلاء الذين نريدهم ليرفعوا لواء الإسلام عاليًا.

هذه هي دمشق في جميع الانتخابات الحُرَّة النزيهة، وفي المقابل فقد لفظت دمشق فيلسوف ومؤسس حزب البعث ميشيل عفلق وهو ابن دمشق.

إنني أفهم جيدًا لماذا يكره العلمانيون واليساريون والباطنيون وفئات من الأقليات أهل دمشق ويحقدون عليهم، ولكن لا أفهم حساسيات الذين يرفعون الشعار الإسلامي ويعملون ليكون الدين كله لله أو يظنون ذلك، نعم لا أعرف لماذا

يتحسسون من أهل دمشق ويحاولون تغييبهم... ثم يشعرون بعد عبث طويل بوقتهم الضائع أنه لابد في أنشطتهم من دمشقيين فيأتون بأقزام أو آخرين من أبناء جلدتهم يسكنون دمشق.

يا قوم اتقوا الله، فالعمل لنصرة دين الله يتسع للجميع، كما كان من قبل يتسع لهدهد سليمان عليه السلام.

وفي ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩م عقد المجلس التأسيسي الجديد جلسته الأولى التي ترأسها النائب حسن الحكيم بصفته رئيس السن، وبعد ذلك تم انتخاب رشدي الكيخيا رئيسًا للمجلس، فألقى كلمةً عن الدستور الجديد، وبعد ذلك تكلم الرئيس هاشم الأتاسي باسم الحكومة، وانصرف المجلس إلى جدول أعماله بعد مغادرة رئيس الجمهورية.

وفي جلسة أخرى انتخب المجلس لجنةَ وضع الدستور، وكان من أبرز أعضائها: ناظم القدسي، ومصطفى السباعي، وسهيل فارس الخوري، وعبد الوهاب حومد.

توالت جلسات لجنة الدستور، واشتدَّ الحوار بين أعضائها حول مادة دين الدولة، ثم صارت أخبار هذه المناقشات تنتشر بين الخاصة والعامة خارج المجلس، وانقسم السوريون إلى قسمين: فرابطة العلماء وجمعياتها والإخوان المسلمون وأئمة المساجد وجميع المسلمين وقفوا في جانب، والنصارى والعلمانيون والأحزاب كالبعث والشيوعية والحزب الوطني وحزب الشعب والقوميون السوريون

وغيرهم وقفوا في جانب آخر.

وهذا أحد بيانات رابطة العلماء:

"هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وبعد فإن رابطة العلماء منذ أخذت على عاتقها توجيه الأمة إلى ما فيه صلاحها، ونظامها، بدون تطرف ولا حزبية، تنشر دعوتها بين العامة والخاصة، وتدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد أخذت العهود والمواثيق على كثيرين ممن رشَّحوا أنفسهم نوَّابًا عن الأمة من مختلف البلدان، أن يسنُّوا لها دستورًا يتمشَّى على أساس العدل والإنصاف. مرتبطاً بأنظمة السماء، معتبرًا فيه شعور الأكثرية، على النظام الديمقراطي الذي يعتز به رجال الغرب، فيحدُّ من استبداد الفئات الحاكمة، واستهتار الأفراد والجماعات من الشعب، وأن ينصُّوا في صلب الدستور على أن [دين الدولة الإسلام] وأن [قوانينها وأنظمتها من التشريع الإسلامي] الغني الشامل الكافل لحقوق الشعب والطوائف والأقليات:

"فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا".

ولقد دعت رابطة العلماء إلى عقد اجتماع عام من علماء المدن السورية ورجال الإصلاح فيها. فتقاطرت الوفود من البلدان وانعقدت عدة اجتماعات وكان في أواخر شعبان من هذا العام ١٣٦٩هـ اجتماع علمي كبير كمؤتمر إسلامي حضره بعض الوزراء وأعضاء المجلس التأسيسي الموقَّر وشهده كثير من الوجهاء وأهل

المكانة في العاصمة. فدارت المذاكرات حول المادة الثالثة من مشروع الدستور [دين الدولة الإسلام] التي فازت بتأييد الأكثرية في عدة لجان وجاءت وفقًا لدساتير الدول المجاورة، ومماثلةً لدساتير الدول الأجنبية الكثيرة، في النص على ارتباط الدولة بدين الأكثرية، فصدر القرار الإجماعي من المؤتمر بتأييد ألوف العرائض التي قدَّمتها هذه الأمة، بوفودها الكثيرة إلى المجلس التأسيسي الموقَّر والمحافظة على المادة الثالثة بنصها المُحْكَم [دين الدولة الإسلام] والنص الذي ربط الأنظمة والقوانين بروح التشريع أسوةً بالحكومات العربية والإسلامية المستقلة من قبل والتي استقلت حديثًا كالباكستان وأندونيسيا- فلا يحل بعد هذا لفرد ولا لجماعة في المجلس التأسيسي ولا في غيره أن يُغيِّر أو يبدِّل ما تم الاتفاق عليه- فليتق الله نوابنا الأكارم وليأدُّوا الأمانة وليحافظوا على موجب وكالة موكِّليهم وليثبت الشعب الكريم عند حقه. وليحذر من المحاولات المغرضة والله ولي القصد وهو يهدي السبيل".

الختم

رابطة العلماء بدمشق

أسست سنة ١٣٦٥ هـ

الرئيس: محمد أبو الخير الميداني

٢٩/ ٨/ ١٣٦٩ هـ

١٤/ ٧/ ١٩٥٠م

وتصدر بيانات العلماء أحيانًا موقعةً على الشكل التالي:

رئيس جمعية الهداية الإسلامية: محمد سعيد الحمزاوي

رئيس جمعية تضامن العلماء: كامل القصاب

رئيس رابطة العلماء: أبو الخير الميداني

رئيس جمعية التوجيه الإسلامي: حسن الميداني

رئيس جماعة الأنصار: أحمد كفتارو

رئيس أرباب الشعائر الدينية: محمد الهاشمي

رئيس جمعية التمدن الإسلامي: محمد حسن الشطي

رئيس جمعية التهذيب والتعليم: هاشم الخطيب

نائب رئيس الجمعية الغراء: أحمد الدقر

المراقب العام للإخوان المسلمين: مصطفى السباعي

بيان السباعي التاريخي

كان الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله يؤثر أن يظل النقاش حول دين الدولة محصورًا بين أعضاء لجنة الدستور والمجلس التأسيسي، لكنه وجد نفسه مضطرًّا إلى أن يكتب في ذلك بيانًا تاريخيًّا يتوجه به إلى أبناء الأمة حين وجد المعارضين قد أغرقوا الشارع العام ببياناتهم المسمومة، فأصبح من الواجب عليه رحمه الله أن يُبيِّن حججه وأدلته، وفيما يلي أكتفي بنقل فقرات من هذا البيان:

"في عرف الدنيا جميعًا أن رأي الأكثرية هو المتَّبع والمعمول فيه، فإذا قلنا: إن دين الدولة الإسلام وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب، أنكون في هذا قد تجاوزنا الحق؟ وأهدرنا المنطق؟ وخالفنا الديمقراطية؟".

"قالوا: إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر إليهم نظرًا يختلف عن أتباع الدين الرسمي. وهذا خطأ أيضاً، فليس الإسلام دينًا معاديًا للنصرانية حتى يكون النص عليه عداءً لها، بل هو معترف بها، ومقدِّس لسيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية، ويُنزِّه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعًا، ومنهم عيسى عليه السلام، فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟ أو ليس النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمي، يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفًا بها ومحترمًا لها؟

وأما توهُّم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟ أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعًا، والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعًا؟ أم في الأحوال الشخصية والإسلام يحترمها والدستور يضمنها؟ أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يُفرِّق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقًّا أكثر من المسيحي، والدستور سينصُّ على تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات؟".

وفي رده على اعتراض القوميين يقول:

"والواقع أنه ليس في سورية إلا مسلمون ومسيحيون، وقليل جدًّا من اليهود، أما الطوائف فهي كلها ترجع إلى هذيْن الدينيْن، وفي النص الذي ذكرناه سابقًا ضمان لحقوق المواطنين جميعًا وتساويهم، وضمان عقائدهم وأحوالهم الشخصية، فأي تفرقة في هذا النص؟".

"وإذا أضفنا إلى ذلك، أن الإسلام يحترم المسيحية، ويؤمن بها دينًا سماويًّا لم يبق عندنا في القومية العربية دينان يصطرعان حتى نطرحهما لتسلم لنا قوميتنا، وإنما هناك دينان يتعاونان على بناء القومية العربية بناءً سليمًا عالميًّا خالدًا".

وفي رده على العلمانيين وخوفهم من رجال الدين يقول: "ونحن نجيبهم بأن النص على دين الدولة ليس معناه أن يُسيِّر رجال الدين أمور الدولة، ولو كان كذلك لما وضعت هذه الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة في دساتيرها النص على دين الدولة. وفيما يلي بيان لبعض الدول الحديثة التي تنص في دساتيرها على دين

معيَّن: أسوج، نرويج، دانمرك، إنجلترا، بلغاريا، بيرو، كوستاريكا، باناما، إسبانيا، بوليفيا، الأرجنتين، إيرلندة، إيطاليا، بولونيا [قبل النفوذ الشيوعي]، جميع دول شرق أوروبا [قبل النفوذ الشيوعي]، مصر، العراق، الأردن، ليبيا، إيران، الأفغان، باكستان، إندونيسيا، إسرائيل المزعومة!

فما قول العلمانيين في صنيع هذه الدول الحديثة؟ ألا يدلُّ على أن النص على دين الدولة لا يتنافى مع تطور الحضارة وتقدم المدنية؟ أم يعتبرونها دولاً رجعيةً لا تزال متأخرةً؟".

"وأعود فأقول لهؤلاء: إن (البعبع) الذي يخوِّفون به بعض المثقفين من أن النص على الإسلام دينًا للدولة يجعل لرجال الدين الكلمة الأولى في البلاد، هو (بعبع) لا يخيف إلا من خيَّم الوهم والباطل على عقولهم، فليس في الإسلام رجال دين تكون لهم الكلمة العليا، ونحن لا نريد بهذا النص أن نلغي البرلمان، ونطرد ممثلي الأمة، ونمحو القوانين، كلا كونوا مطمئنين! فسيظل كل شيء على حاله. سيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانيننا وأنظمتنا ولكن... مع سموٍّ الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم!".

"ويعترض بعض الحقوقيين بأن جَعْلَ دين الدولة الإسلام يلغي القوانين الحالية، ويضطرنا إلى تنفيذ الحدود الإسلامية من قطع يد السارق وجلد الزاني، وهذا قول خاطئ فنحن لا نفكِّر قطعًا بالدعوة إلى تنفيذ الحدود، لأن الإسلام نظام كامل لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع كامل، ومن كمال المجتمع أن يُشبع كل بطن،

ويكتسي كل جسم، ويتعلم كل إنسان، ويكتفي كل مواطن، فإذا وقعت السرقة مثلاً بعد ذلك وقعت شرًّا محضًا لا يقدم عليه إلا العريقون في الإجرام، والإسلام يريد أن يُرهب هؤلاء الذين لم يردعهم العلم ولا الشبع ولا العيش الكريم عن الوقوع في الجريمة".

"على أن الإسلام قد حفَّ تلك الحدود بشروط شديدة جدًّا تكاد تكون من المتعذر تنفيذ الحكم في حادثة واحدة من بين ألف حادثة، مما يدلُّ على أن قصد الإسلام من ذلك الإرهاب والتخويف، وحسبكم القاعدة المشهورة (ادرأوا الحدود بالشبهات)".

"وخلاصة القول: إننا لا نريد انقلابًا في قوانيننا الحالية، وإنما نريد التقريب بينها في التشريعات المدنية وبين نظريات الإسلام الموافقة لروح هذا العصر، ولأصدق النظريات الحقوقية السائدة فيه، فإذا اتفق التشريع الإسلامي مع النظريات الحديثة فهل تجدون في الأخذ به حرجًا في الأخذ به تراثًا قوميًّا عربيًّا تعتزُّون به وتفاخرون".

"هذا مع العلم بأن مسألة التشريع غير مسألة دين الدولة، فليس لوضع دين الدولة من غرض إلا صبغ الدولة بصبغة روحية خُلُقية تجعل النظم والقوانين مُنفَّذةً من الشعب بوازع نفسي خلقي، ومن أغراض هذه المادة تقوية الصلات بيننا وبين إخواننا العرب، والتعاون بيننا وبين الشرق الإسلامي.

أما الحدود الإسلامية، فلا تستلزمها هذه المادة، بدليل أن مصر والعراق

وضعتا هذه المادة في دستوريْهما منذ ربع قرن، ولم تفكِّرا بإقامة الحدود الإسلامية، وهذا ما نصرِّح به علنًا لا مجاملين ولا مواربين".

"ونعتقد أن الأحبار الأجلاء رؤساء الطوائف المسيحية يشعرون معنا بخطر الإلحاد على الأديان جميعًا، ونحن نعلن أننا نفضِّل أن يكون دين الدولة المسيحية على دولة علمانية ملحدة، فهل هم يفضِّلون الإلحاد على الإسلام؟ ونريد أن نذكِّرهم أن العلمانية لا تضمن حقوق الطوائف، ولا تزيل أي تعصب طائفي، وإنما الذي يضمن ذلك: الدين الذي جعل من تعاليمه أن يترك الناس وما يعتقدون، وأن الناس جميعًا عباد الله، أكرمهم عنده أتقاهم وأنفعهم... نريد أن نتعاون مسلمين ومسيحيين، مستمعين إلى صوت السماء وتعاليم الإنجيل والقرآن فلا تملأوا [يخاطب العلمانيين] عقولنا بالباطل، ولا تصكُّوا أسماعنا بأغنية الشيطان!

[قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين]".

مصطفى السباعي

دمشق في ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩ هـ

الموافق ٨ شباط ١٩٥٠م.

وقبل المضي في عرض أحداث معركة [دين الدولة الإسلام] أرغبُ أن يعرف قارئ هذه السطور موقفي من الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله.

لقد أحببته وتأثَّرتُ به كما لم أتأثر برجل من قبل في تلك المرحلة. عرفته أول مرة عندما زارنا في ذرعا عام ١٩٥٤م، وألقى محاضرةً في جامع المحطة لأن مركز الإخوان المسلمين كان صغيرًا، ولا يتسع للجمهور الغفير من المدن والقرى الذي حضر ليستمع إلى هذه المحاضرة، ولم أكن قد استمعت إلى خطيب مثله من قبل.

وكنت أحد أفراد المجموعة المحدودة الذين دخلوا بيته عندما وصلنا خبر وفاته عام ١٩٦٤م، كان الجو داخل المنزل هادئًا، فلم نسمع بكاءً ولا ضجيجًا واقتربنا من الغرفة التي كان مسجًّى فيها، ونكاد لا نصدق أن الله قد توفاه إلى أن أخبرنا أهل بيته، فقد كان الرجل في اليوم الذي سبق الوفاة يستعدُّ للسفر إلى المدينة المنورة حيث كان قد أبرم عقدًا مع الجامعة الإسلامية، ثم سرنا في جنازته من بيته في أبي رمانة إلى الجامع الأموي، حيث صلينا على جثمانه بعد صلاة الظهر، ثم سرنا بالجنازة إلى مقبرة الباب الصغير التي دُفن فيها.

وبين رؤيتي الأولى له ووفاته كنت متابعًا لدروسه ومحاضراته وكتبه. شهدت محاضرته عن اشتراكية الإسلام، ومحاضرته عن المرأة بين الفقه والقانون، والندوة في كلية التجارة التي ردَّ فيها على الشبهات التي أُثيرت حول كتابه اشتراكية الإسلام، وكان يقول: هذا اجتهاد شخصي لي، وليس موقف جماعة.

وكنت لا أنقطع عن قاعة البحث الدورية التي لا يغيب عنها إلا إذا اشتدَّ عليه

المرض أو كان في سفر، وفضلاً عن ذلك كله فقد كان أستاذنا في كلية الحقوق.

وكنت متابعًا لمجلة حضارة الإسلام منذ بداية صدورها وإلى أن غادرتُ سورية سنة ١٩٦٥م، ولا أدع كتابًا أو مقالةً لأستاذنا السباعي إلا وأقرأها، وكم أعجبني كتابة النفيس "السنة ومكانتها في التشريع".

وعندما اختلفتُ مع الإخوان- كل الإخوان سواء في سورية أو في البلاد العربية... مع دمشق أو مع حلب- لم أغيِّر موقفي من الأستاذ السباعي وأمثاله. فقد كانوا رجال أمة وليسوا رجال حزب أو جماعة.

كنت أتمنى أن يكتب أحد رفاق الأستاذ السباعي كتابًا جامعًا شاملاً عن حياة هذا الرجل المصلح الذي يُعدُّ من كبار رجالات هذا العصر، ثم صدر عدد من الكتب: وهي إما من محبٍّ يراه معصومًا- وإن لم يقلها بصراحة- أو نحو ذلك، وإذا كان هناك خطأ لا يستطيع التهرب منه برَّأ الأستاذ وحمَّله للإخوان. وإما من مراوغ لبس لبوس الاستقامة وهو ليس من أهلها، وراح يحشر السباعي في نزاع بين فريقيْن من الإخوان، وهو الذي لم يشهد هذا الصراع بله أن يكون طرفًا فيه، وهذا ظلم له واستغلال لسيرته. ولقد كنت ممن سمع حديث الإفك في أوائل الستينات من القرن الماضي، وعندما عدتُ لمصادر الخبر وجدته اصطيادًا في الماء العكر.

إن شهرة الأستاذ السباعي التي أطبقت الآفاق [وهو أهل لها] برزت في دمشق الشام وليس في دير الزور أو حوران أو اللاذقية، فأين حديث هؤلاء في كتبهم عن السباعي عن إخوان دمشق الذين وقفوا إلى جانبه في السراء والضراء وشدُّوا

أزره، وكانوا خيرَ عون له؟!

أين الحديث فيما كتبه هؤلاء عن عصام العطار، ومحمد خير الجلاد، ومحمد أديب الصالح، وزهير الشاويش، ومحمد الصباغ، وكامل حتاحت، وعبد الرحمن الباني، وغيرهم، وغيرهم، الذين وقفوا بوجه انشقاق رجل المخابرات المصرية نجيب جويفل، وأنور حمادة، وعبد الحميد الطرابلسي، وكان أخطر انشقاق في تاريخ إخوان سورية؟!

وقصارى القول: فإن بياننا لشيء من أخطاء الأستاذ السباعي لا يتعارض أبدًا مع حبنا له وتقديرنا لسيرته العطرة، وكل ابن آدم خطَّاء، وأسأل الله له الرحمة.

نعود إلى السياق:

هل صحيح أن الإسلام لا يُفرِّق بين مسلم ومسيحي، ولا يُعطي للمسلم حقًّا أكثر من المسيحي؟!

وهل صحيح أن الإسلام والمسيحية لا يصطرعان بل يتعاونان على بناء القومية العربية؟!

وهل صحيح أن النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمي يتضمن أن المسيحية دين الدولة؟!

ولماذا القول: إننا نفضِّل أن يكون دين الدولة المسيحية على دولة علمانية؟!

وهل صحيح أن الإسلام يحترم العقائد جميعًا، ألا يبعث هذا التعميم (جميعًا)

الشك في نفوسنا؟!

ومما هو معلوم بالضرورة عند المبتدئين من طلاب العلم أن النصارى لا يعترفون بأن محمدًا بن عبد الله ﷺ نبي أرسله الله، كما أنهم لا يعترفون بأن القرآن كتاب الله.

ومما هو معلوم بالضرورة عند المبتدئين من طلاب العلم أن اليهود والنصارى كفَّار، ولكنهم أهل كتاب وإن كانوا غيَّروا وبدَّلوا فيه.

وأما قول الأستاذ: "إن مسألة التشريع غير مسألة دين الدولة"، وقوله: "إن مصر والعراق وضعتا هذه المادة في دستوريهما منذ ربع قرن، ولم تفكِّرا بإقامة الحدود الإسلامية. هذا ما نصرِّح به علنًا لا مجاملين ولا مواربين".

والذي أعرفه أن الحكم بما أنزل الله من الدين، ومصر والعراق مخطئتان في عدم تفعيل هذه المادة. وأما قول الأستاذ: "ونحن لا نريد بهذا النص أن نلغي البرلمان، ونطرد ممثلي الأمة، ونمحو القوانين. كلا كونوا مطمئنين! فسيظل كل شيء على حاله، سيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانيننا وأنظمتنا ولكن... مع سموٍّ الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم".

إذًا: لماذا هذه المعركة؟! ولماذا ينقسم المواطنون إلى قسمين ويحتدم الصراع بينهما؟ أمن أجل مادة معطَّلة غير مفعَّلة؟

لستم أنتم الدولة ولستم وحدكم المسلمين:

تحت هذا العنوان كتب صاحب جريدة القبس ورئيس تحريرها منير الريس مقالاً بعد نقله فقرات من بيان الأستاذ السباعي وهذا نصه:

"هذا ما قاله الشيخ مصطفى في بيانه أمس. ويتضح منه صراحةً بأنه هو ومن يقول بقوله لا يريدون سوى مجرد النص على دين الدولة فقط من غير تطبيق ما يوجبه الإسلام من أحكام وشرائع وإقامة حدود. ونحن بصفتنا من المتدينين المسلمين، ولسنا من العلمانيين الملحدين، نسأل الشيخ مصطفى ما دمتم لا تنوون تطبيق أحكام الدين الإسلامي، فلماذا تصرُّون إذن على وضع مادة في صلب الدستور تظل معطَّلةً؟! ولماذا تثيرون البلاد وتوجهونها بالوفود المضابط؟! ألمجرد وضع النص فقط لا غير؟!

على أنكم يا شيخ مصطفى لستم أنتم الدولة حتى تُطمئِنوا الناس على أنكم لن تلغوا البرلمان وتطردوا ممثلي الأمة... ولستم وحدكم المسلمين حتى تَعِدوا منذ الآن بأنكم ستُبقون كل شيء من القوانين والأنظمة الحالية مرعيًّا في البلاد، ثم تتعهدون عن الإسلام بأنكم لن تفكِّروا بالدعوة إلى تنفيذ الحدود الإسلامية، ومن قطع يد السارق ورجم الزاني.

لستم يا سيدي أنتم بقادرين على الوفاء بما تتعهدون به للناس وللطوائف المسيحية لأن دين الدولة إذا كان هو الإسلام، فيجب على الدولة أن تنفِّذ أحكام الدستور ولو كنا نحن نقول بجعل الإسلام دينًا للدولة، ولكننا نعني ما نقول ولما

خجلنا البتة من الدعوة إلى النص وإلى التطبيق معًا... لأن الإسلام أرفع من أن يكون لتزيين الدستور بدينه فقط من غير تطبيق أحكامه، ولكننا لا نقول بما تقولون به لا لمجرد النص، ولا للنص مع التطبيق لأن الدولة وخصوصًا إذا كانت جمهوريةً لا يجوز أن تتصف بدين ما دامت لا تعمل بأحكامه.

وبعد، أفلا يحق لنا بعد أن أعلن الشيخ مصطفى السباعي بأصرح بيان وأجلِّ تعبير بأن قصدهم من النص على دين الدولة إنما هو لسموِّ الروح ونظافة اليد واستقامة الأخلاق فقط- لا لتطبيق أحكام الإسلام ولا لإقامة الحدود حتى ولا لتغيير القوانين والأنظمة الحاضرة- ألا يحق لنا بعد هذا البيان أن نرجو من أصحاب هذا الرأي أن يتنازلوا عنه ما داموا لا يعنون من الدين إلا مجرد النص؟! لأن النص وحده لا يستحق هذه الضجة ولا هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم من جهة، وبين المسلمين وغيرهم من جهة أخرى؟!

إن الأخلاق الإسلامية والمبادئ الدينية الكريمة، يجب أن تسمو على كل خلق ومبدأ، ولكن هذا السمو لن يكون موضعَ مادة في الدستور لن تُنفَّذ، بل يكون بالتوجيه الصحيح في البيوت والمدارس والمساجد والدعوة إلى اعتناقها والتبشير بها بأساليب يحببها إلى الصغار والكبار والرجال والنساء والحاكمين والمحكومين.

ونحسب أن مهمة الشيخ مصطفى وإخوانه هي التبشير بهذه المبادئ الكريمة السمحة والدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة". ١٠/ ٢/ ١٩٥٠م، منير الريِّس، جريدة القبس.

تعقيب:

قد يقول قائل:

منير الريِّس من الحزب الوطني الذي قاطع انتخابات ١٩٤٩م لأنه كان يرى أن يعود المجلس كما كان قبل انقلاب حسني الزعيم، ومن ثم فهم يعتقدون أن الكتلة الإسلامية حصدت مقاعد هي في الأصل لهم، وقد كانت المنافس العنيد لهم في انتخابات ١٩٤٧م، ولهذا فهو خصم تقليدي. فأجيب: قول هذا المعترض صحيح، وقول منير الريِّس صحيح أيضًا، وليس مهمًّا بعد ذلك أن يكون هذا القائل صديقًا أو خصمًا.

الخلاف بين رابطة العلماء والكتلة الإسلامية الاشتراكية

تراجعت الكتلة الإسلامية الاشتراكية عن مطالبتها بأن يكون دين الدولة الإسلام دون تنسيق مع رابطة العلماء، واتفقت اللجنة الدستورية بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٥٠م أن تنصَّ المادة الثالثة على ما يلي:

١- دين رئيس الجمهورية الإسلام.

٢- الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع.

٣- حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام.

٤- الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

ويُضاف إلى مقدمة الدستور: "ولما كانت غالبية الشعب تدين بالإسلام فإن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا، ويعلن الشعب عزمه على توطيد أواصر التعاون بينه وبين شعوب العالم العربي والإسلامي، وبناء دولته الحديثة على أسس من الأخلاق القويمة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى، وعلى مكافحة الإلحاد والتحلل الأخلاقي".

وافق رجال الدين النصارى على النص البديل لدين الدولة الإسلام، كما وافق العلمانيون وغيرهم، أما رابطة العلماء فرفضت البديل الجديد، وأصرَّت على المطالبة بأن يكون دين الدولة الإسلام.

بيان رابطة العلماء رقم [٢]:

إن الاجتماع الذي دعت إليه رابطة العلماء في دار الأستاذ الشيخ أبي الخير الميداني وتوافدت إليه وفود أهل العلم من المدن السورية أسفر بعد البحث الدقيق فيما يتعلق بالمادة الثالثة من مشروع الدستور عما يلي:

أولاً- عن وجوب بقاء المادة الثالثة [دين الدولة الإسلام]، مع النص على ربط القوانين بالتشريع الإسلامي.

ثانياً – إرسال برقيات إلى المراجع العليا هذا نصها: "إن رابطة العلماء، يؤيدها الشعب السوري الكريم رأت أن المادة الثالثة من مشروع الدستور [دين الدولة الإسلام] التي فازت بتأييد الأكثرية وجاءت وفقًا لدساتير الدول الأجنبية الكثيرة في النص على ارتباط الدولة بدين الأكثرية، وكانت مؤيدةً بألوف العرائض التي قدَّمتها الأمة بوفودها الكثيرة من جميع هيئاتها وطبقاتها أصبحت حقًّا لازمًا لا يصح انتزاعه ولا تعديله، فرابطة العلماء ترجو أن لا يُفجَع الشعب بأعز شيء عليه، وكل ما نشرته الصحف أو تنشره مخالفًا لهذه الحقيقة عن رابطة العلماء فهو غير صحيح، وإن رابطة العلماء لترجو من أصحاب الصحف الكرام أن لا ينشروها عن رابطة العلماء إلا ما كان موقَّعاً من رئيسها".

٢٨/ ٧/ ١٩٥٠م

رئيس رابطة العلماء: أبو الخير الميداني

الأستاذ السباعي من جهته نشر بياناً جاء بمثابة ردٍّ على بيان رابطة العلماء هذا نصه:

"حينما أعرب جمهور الشعب بمختلف طبقاته عن رغبته في النص على أن يكون دين الدولة الإسلام إنما كان يقصد الاستفادة من التشريع الإسلامي وتوجيه الشعب توجيهًا أخلاقيًّا والاحتفاظ بعلائق الأخوة مع شعوب العالم العربي والإسلامي، وإن النصوص الجديدة التي أقرَّتها لجنة الأحزاب المشتركة للمادة الثالثة تضمَّنت هذه المبادىء". ثم أضاف رحمه الله: "وإن هذه النصوص حققت وحدة الصف، ودفعت عن الوطن كارثة انقسام طائفي لا يرضى به كل متدين عاقل وكل وطني مخلص".

أكرم الحوراني أعرب في مذكراته عن تأييده لمصطفى السباعي ومعروف الدواليبي ومحمد المبارك لأنهم- كما يرى- من المتضلعين بالفقه الإسلامي ومن حاملي أرقى الشهادات، لكن هذا التأييد لهم والثناء عليهم ليس لوجه الله فهم خصومه التقليديون، وإنما هي فرصة التقطها لتوسيع هوة الخلاف بين الإخوان المسلمين والكتلة الإسلامية الاشتراكية من جهة، وبين رابطة العلماء من جهة أخرى، انظر إلى قوله:

"إن المشايخ الذين كانوا يطالبون بإقرار المادة الثالثة من مشروع الدستور والتي تنصُّ على أن دين الدولة الإسلام كانوا لا يفهمون الإسلام بمستوى ما بلغه العقل الإنساني من تقدم وما بلغته المجتمعات من تطور، وكان إقرار هذه المادة

بالصيغة التي تطالب المشايخ بوضعها في مشروع الدستور تتناقض مع الديمقراطية وما تعنيه من احترام للحريات العامة والخاصة.

لقد اتخذ أعداء الإسلام- وما يزالون- من الفهم القاصر للدين الإسلامي ذريعةً للحماقة عليه واتهامه بأنه دين إرهابي عدواني متخلِّف منغلق استبدادي يتنكر لحقوق الإنسان...".

ليس هذا موقف المشايخ وحدهم- كما زعم الحوراني- بل هو عقيدة الأمة، التي يدين بها المسلمون بشيوخها وعلمائها ومثقفيها الذين يحملون أرقى الشهادات والخبرات. والذي قاله الحوراني تعبير عن موقفه من الإسلام.

هذا ويحدِّثنا الدكتور عدنان زرزور عن الخلاف بين السباعي والاتجاه الذي يمثله وبين رابطة العلماء فيقول:

"حدثني والدي رحمه الله أن رأي [العلماء]، ورأي الشيخ حسن تحديدًا- ويعني فضيلة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله- كان أن يقدِّم السباعي وإخوانه استقالاتهم من المجلس أو من الجمعية التأسيسية إذا رُفضت المادةالمذكورة! كتمهيد لتحرك شعبي واسع يجبر المجلس على تبني هذه المادة... وأنهم أو أن الشيخ حسن كفيل بهذا التحرك وتحقيق هذه النتيجة... ولكن النواب لم يُقدِّموا استقالاتهم... بل قبلوا بالنصوص الدستورية الأخرى! وكان لسان الحال ولسان المقال أيضًا- كما سمعته من بعض الأطراف- يلوم الأستاذ السباعي.. بل يُعرِّض به وينال منه رحمه الله!".

وأضاف الدكتور زرزور:

"كان مدخلي لاستيضاح صورة الموقف حول هذه القضية من وجهة نظر الأستاذ السباعي أن سألته ذات يوم عن مدى التعاون بينهم- أعضاء البرلمان- وبين العلماء أو المشايخ، فقال: كان قائمًا وكنا نطلعهم على ما كان يدور في المجلس! قلت: والأستاذ الشيخ حسن حبنكة؟ قال: كان من أبرز العلماء المهتمِّين بهذه القضية... ولقد ذهبنا لزيارته مرة أنا والأستاذ المبارك... ففوجئنا بأن الاجتماع- وكان مُعَدًّا فيما يبدو- كان أقربَ إلى المسائلة والمحاكمة... ولم يقل أكثر من ذلك في الوقت الذي ظهر الامتعاض في وجهه... لقد أثَّر فيه فيما يبدو: خروج الموضوع من ساحة الشورى، وتبادل الرأي إلى دائرة الاتهام والتقصير على أقل تقدير! رحم الله الجميع".

وقفـــات

الوقفة الأولى:

لقد كانت هجمة الكفَّار والعلمانيين والمنافقين على الإسلام وأهله خلال العقود التي سبقت هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧م شديدة الوطأة، وكان جُلّ همِّ كثير من الدعاة الدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه، وكتبوا في هذا الشأن عشرات الكتب وآلاف المقالات، في بيان صلاح الإسلام لكل زمان ومكان، ومن هذه الكتب على سبيل المثال: اشتراكية الإسلام، الديمقراطية في الإسلام، الحرية في الإسلام، الاكتشافات الحديثة في ميزان الإسلام، حضارة الإسلام، التقدمية والإسلام، شبهات حول الإسلام، تحرير العبيد، الجهاد دفاعي وإنكار جهاد الطلب، وحتى الجهاد الدفاعي أصبح له حكم آخر بعد ظهور هيئة الأمم، ومجلس الأمن الدولي.

ومن هنا نستطيع أن نفهم البيان التاريخي الذي كتبه الشيخ مصطفى السباعي سنة ١٩٥٠م بمناسبة مطالبة المسلمين بأن يكون دين الدولة الإسلام.

الوقفة الثانية:

وكما قلت سابقًا: النص على أن دين الدولة الإسلام خطوة جادَّة في الطريق الصحيح، وغير ذلك هو إصرار من الأقلية على علمانية الدولة وهذا ما يتعارض أشدَّ التعارض مع الديمقراطية التي يحتكمون إليها.

هذا وقول السباعي في بيانه: "ونحن لا نريد أن نلغي البرلمان، ونطرد ممثلي

الأمة، ونمحو القوانين. كلا كونوا مطمئنين! فسيظل كل شيء على حاله. سيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانيننا وأنظمتنا ولكن... مع سموّ الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم".

كلا، ليس الأمر كذلك، فإن إقرار دين الدولة الإسلام خطوة يجب أن تليها خطوات من أجل أن يكون الدين كله لله. قال تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي... وأنا أول المسلمين).

ونريد على الأقل أن نعود كما كنا قبل ثلاثين عامًا من كتابة السباعي لبيانه، ولكن حسب الاستطاعة، أما أن يبقى كل شيء على حاله، فغير مقبول جملةً وتفصيلاً، ولن يكون هذا القول مقنعًا لخصومنا، فهم أول من يعرف بأن دين الدولة الإسلام يعني تفعيل هذه المادة.

ومما يُؤسَف له اليوم أن البعض ممن ضعفت عزائمهم وسهل الهوان عليهم، ورضوا من الغنيمة بالإياب يستدلُّون بأقوال السباعي في هذا الشأن وكأنه دليل شرعي لا يجوز القول بخلافه.

الوقفة الثالثة:

قال الأستاذ السباعي: "وإن هذه النصوص حقَّقت وحدة الصف، ودفعت عن الوطن كارثة انقسام طائفي لا يرضى به كل متدين عاقل، وكل وطني مخلص".

ويعني الأستاذ بما قاله: النصوص الجديدة التي أقرَّتها لجنة الأحزاب المشتركة للمادة الثالثة بدلاً من دين الدولة الإسلام.

لقد قال السباعي في دفاعه عن موقفه: "إن دين الدولة الإسلام وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب"، وهذه واحدة.

أما الثانية فإن المسلمين انقسموا على أنفسهم، فالكتلة الإسلامية الاشتراكية ومعظم الإخوان المسلمين قبلوا المادة البديلة، ورابطة علماء المسلمين رفضتها، وطلبت من نواب الكتلة الانسحاب من الجمعية التأسيسية، ثم اشتدَّ الخلاف بين الطرفيْن، واستمرَّت ذيوله حتى وقت قريب!

غفر الله لشيخنا السباعي فأية وحدة صف هذه التي تحدَّث عنها إذا كنا استجبنا لاستبداد ١٠٪ من غير المسلمين، وضحينا بما لا يقل عن ٥٠٪ من علماء الأمة ودعاتها؟!

الوقفة الرابعة:

قال الأستاذ السباعي في بيانه:

"... فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟! أو ليس النص على دين الدولة الرسمي، يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام مُعترِفًا بها ومحترِماً لها؟"، وقال أيضاً: "... والإسلام لا يُفرِّق بين مسلم ومسيحي فيها- أي في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات- ولا يعطي للمسلم في الدولة

حقًّا أكثر من المسيحي". وقال: "وإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام يحترم المسيحية، ويُؤمن بها دينًا سماويًّا، لم يبق عندنا في القومية العربية دينان يصطرعان حتى نطرحهما لتسلم لنا قوميتنا، وإنما هناك دينان يتعاونان على بناء القومية العربية بناءً سليمًا عالميًّا خالدًا " .

وحدَّثني أحد الدعاة الكبار [وهو من محبي السباعي]، قال: سمعتُ الأستاذ يقول في أحد خطبه: الإسلام هو مسيحية زائد شريعة!!

فهل اقتنع النصارى بهذه الأقوال، وهل قبلوا أن يكون الإسلام دينًا للدولة؟!

لا، لم يقتنعوا أبدًا، وكيف يكون ذلك كذلك، وهم الذين لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ، ولا بالقرآن الكريم؟! وفضلاً عن ذلك فخاصتهم وعامتهم يعلمون أن إقرار مادة دين الدولة الإسلام يعني استئناف حياة إسلامية وأنهم سيكونون أهل ذمة، وهم الذين كانوا بالأمس مادةً من أهم المواد التي استخدمها الغرب من أجل هدم الخلافة الإسلامية؟!

يقول باتريك سيل في كتابه الصراع على سورية:

"واهتمَّت الطوائف المسيحية كثيرًا بالأمر، وعالجت معظم عظات عيد الفصح هذا الموضوع، وقال بطريرك اليونان الكاثوليك لجموع المصلين: عليكم أن تناضلوا لتبرهنوا على أن الحق إلى جانبكم، وأنكم لستم لاجئين في وطنكم".

وأشار السباعي في بيانه إلى بيان صادر عن بطريرك الروم الكاثوليك بدمشق

وردَّ عليه.

ولم تُقنع هذه الأقوال المسلمين، لأن عامتهم فضلاً عن خاصتهم يعتقدون أن النصارى كفروا عندما قالوا: إن المسيح ابن الله، وكفروا عندما غيَّروا وبدَّلوا في دينهم فكيف يكون الإسلام والمسيحية دينين يتعاونان.

وقصارى القول:

- الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وقد لا نقول كل ما عندنا حينًا من الزمن، ولكن في جميع الحالات يجب أن نقول الحق، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة.

- أرى أن الحق مع رابطة العلماء التي كانت ترى أنه لا ينبغي التنازل عن مادة دين الدولة الإسلام، وإذا أصرَّت أكثرية النواب على رفضها، يجب على نواب الكتلة الإسلامية الانسحاب من المجلس، ثم تعبئة الأمة، وعندما يرى النائب أن الأمة لن تختاره مرة ثانية سوف يسارع في الاستجابة لهذا المطلب.

- لا نستطيع تحقيق أهدافنا العظيمة إلا إذا كان صفنا الإسلامي موحَّدًا، وله مرجعية واحدة وقيادة واحدة، ولكل دوره كما أن هدهد سليمان عليه السلام كان له دوره في جيش ما عرفت البشرية مثيلاً له، فلا يجوز لبعضنا أن يتجاهل بعضنا الآخر، كما أنه لا يجوز- وأشدِّد على قولي: لا يجوز- الحديث عن وحدة الصف الوطني، والاستقواء بحفنة قليلة من غير المسلمين إذا كان الصف الإسلامي منقسمًا على نفسه.

- استدلال بعضنا بجواز التنازل لأن من سبقنا من العلماء كان قد تنازل في مثل هذه الواقعة خاطئ، لأن هذا الذي تنازلنا عنه هو حق لله على عبيده، وهو غير قابل للتنازل، وإذا كان من سبقنا من بعض العلماء فرَّط في حق لله وليس له ذلك فلا يجوز لنا أن نفرِّط مثله. نعم، إن كنا لا نستطيع فعل هذا الشيء فهذا يدخل في باب "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها"، فلا نتنازل ولكن نسعى، وعندما يعلم القاصي والداني بجديتنا فيما نعمل له يحترم موقفنا ويستجيب لنا كل مسلم، أما إذا علم منا غير ذلك فسيساومنا ويساومنا، ويعلم في النهاية أننا سنتنازل.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

- إذا كان أستاذنا الشيخ مصطفى السباعي قد أخطأ في هذا الجانب، فله صفحات مشرقة في جوانب أخرى، فهو عالم جهبذ ومن كتبه "السنة ومكانتها في التشريع"، وهو البطل الذي عرفته ميادين الجهاد، رحمه الله وأحسن مثواه.

أديب الشيشكلي وانقلاباته
وشهادات أصدقائه فيه

أديب الشيشكلي وانقلاباته

وشهادات أصدقائه فيه

العقيد أديب بن حسن الشيشكلي (١٩٠٩) وُلد في مدينة حماة من عائلة حموية. وكلمة شيشكلي أو جيجكلي تعني صاحب الورود والزهور باللغة التركية. نشأ في حماة وتخرَّج من المدرسة الزراعية في سلمية، ثم من المدرسة الحربية في دمشق. تطوَّع في جيش المشرق الفرنسي، ثم انتقل مع غيره من الضباط إلى الجيش السوري. شارك في معركة تحرير سورية من الفرنسيين سنة ١٩٤٥م، ثم كان على رأس لواء اليرموك الثاني في جيش الإنقاذ في فلسطين.

شهادة الضابط أحمد عبد الكريم:

سننقل فيما يلي بعض ما قاله أحمد عبد الكريم عن أديب الشيشكلي، لاسيما وأن هذا الضابط من بطانة الشيشكلي، ومن أعضاء المجلس العسكري الذي كان يساعد قائد الانقلاب في إدارة شؤون الجيش.

قال أحمد عبد الكريم:

"استغلَّ الشيشكلي صداقته مع السيد أكرم الحوراني ولكونهما من أبناء مدينة حماة فساعده ذلك على تخطِّي الصراع مع القوى السياسية والسلطة التشريعية وحزب الشعب بشكل خاص".

"وقد اتصف الشيشكلي بالطموح والذكاء والبراعة بالمناورة... والمهارة

باستمالة الضباط الشباب، فقد كان يقضي معظم لياليه من الانقلاب الأول في نادي الضباط يحتسي العَرَق ويتناول طعامه مع العشرات منهم ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية ويتناقشون بالأمور السياسية ويستعرضون أسماء السياسيين وميولهم ويتحدَّثون عن دور سورية العربي وتاريخها المجيد، وضرورة تحسين أحوال الفلَّاحين وسكان الريف بشكل خاص، الأمر الذي سهَّل عليه استقطاب ضباط الريف وأبناء المدن الصغرى، على الرغم من أنه لم يكن يعرض لهم برنامجًا معيَّنًا أو منهجًا اجتماعيًا واضحًا".

"والحقيقة أنه لم يكن لدى هؤلاء الضباط فكرة واضحة عن أساليب الحكم أو أي نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي معيَّن، كان يضرب على أوتار الوطنية والمحافظة على استقلال سورية ونظامها الجمهوري من المطامع الأجنبية والهاشمية وتخليص البلاد من الطبقة التقليدية التي ورثت السلطة عن الانتداب وأصبحت تتصرف وكأنها الممثل الوحيد للشرعية".

"لقد أدرك حسني الزعيم في وقت مبكر خطورة الشيشكلي وطموحه فأصدر قرارًا بتسريحه، وعندما وقع انقلاب سامي الحناوي أُعيد إلى الجيش بعد أن اكتسب شعبيةً نسبيةً لمساهمته في جيش الإنقاذ كما استقطب عطف الكثير من الضباط باعتباره ضد الطاغية المجنون حسني الزعيم. وعندما أصبح نائبًا لرئيس الأركان بعد انقلابه الأول وتصفيته للواء الحناوي اعتمد أساسًا على الضباط الشباب وبدأ بتسليمهم مسؤوليات كبيرة تتعدَّى رتبهم مما أغاظ معظم الضباط القادة، وخاصة

مما كان يُطلق عليه (كتلة العقداء)".

"وقد أكسبته الفترة الأولى من انقلابه بين ١٩ كانون الأول ١٩٥٠ و ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ الخبرة التي كان يحتاجها للتعرف على شؤون الدولة والاعتياد على مناورات السياسيين، كما مكَّنته من تنظيم القوات المسلَّحة بشكل يضمن له الولاء اللازم والكافي للسيطرة على السلطة".

" وفي المرحلة الثانية عيَّن بعض الضباط الشباب المعروفين بنزاهتهم [1] وشجاعتهم ووطنيتهم في إدارات الأركان وقيادات الوحدات المُدرَّعة والشرطة العسكرية، فاكتسب بذلك سمعةً تقدُّميةً إصلاحيةً ولكنها غامضة".

"والواقع أن الشيشكلي كان متحالفًا بانقلابه مع زعيم الحزب الاشتراكي السيد أكرم الحوراني، المعروف بطموحه وحنكته، وكان الحوراني يرمي من وراء تحالفه هذا إلى استلام السلطة السياسية وحصر صلاحيات الشيشكلي بالقوات المسلَّحة أو الاستفادة منه لمرحلة معيَّنة ريثما يتمكَّن حزبه من الاستيلاء على السلطة".

"وأعتقد أن أديب الشيشكلي لم يكن يجهل أهداف الحوراني فأخذ يراوغ لكسب الوقت لتدعيم سلطته ويستغل شعبية حليفه في أوساط الفلَّاحين والعمال

(١) نزاهتهم وشجاعتهم ووطنيتهم وما إلى ذلك من ثناء، هذا كلام أحمد عبد الكريم عن نفسه وعن زملائه وكأن الوطن لهم وحدهم، وهم دون غيرهم الأمناء عليه.

والمثقفين، وبشكل خاص في منطقة حماة بالذات... وخُيِّل للبعض أن الحزب الاشتراكي العربي، إنما هو في الحقيقة حزب الجيش، وأذكر أن بعض الشباب كانوا ينتسبون لهذا الحزب لاعتقادهم بأنه القاعدة الشعبية للشيشكلي".

"ومرَّت فترة أخذ أديب الشيشكلي يركِّز فيها مفاتيح السلطة بيد العناصر الشابة، بل لقد حاول في البداية إنشاء تنظيم سري بين ضباط الجيش يرتبط به شخصيًّا كما حاول في المرحلة التالية أن يقيم تنظيمًا مدنيًّا موازيًا ينافس به الأحزاب السياسية أُطلق عليها اسم (حركة التحرير)، وضمَّت نواة التنظيم العسكرية عددًا من الضباط ومن بينهم: حسين حدة، وعبد الحق شحادة، وأمين النفوري، حسن حدة، عبد الحميد السراج، وأحمد عبد الكريم، جاسم علوان، أحمد حنيدي، أحمد حمدون، طعمة العودة الله، إبراهيم فرهود، بكري الزيري، أسعد عمير، أحمد المصري، عبد الله جسومة، حسن القاضي، عبد الغني قنوت، مصطفى حمدون، راشد قطيني، أحمد حمدان، عبد الغني عياش، عبد الملك عثمان، ياسين الفرجاني، توفيق الأسود، وعددًا لا أذكرهم... ونظرًا لوجود عدد من الضباط المعروفين بصِلاتهم مع السيد أكرم الحوراني، فقد كان الانطباع آنذاك أن هناك تحالفًا استراتيجيًّا بين الحوراني والشيشكلي، ووضع هؤلاء مشروعًا غامضًا بمثابة دستور لهذه الجمعية العسكرية السرية يتلخَّص بما يلي:

١- يجب أن تبقى سورية جمهوريةً عربيةً اشتراكيةً.

٢- تطهير إدارات الدولة من العناصر الفاسدة ويُعاد تنظيم أجهزة الدولة

واقتصادها على أسس حديثة تتلاءم مع العصر وتتضمن تجاوبها لحاجات التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

٣- إعادة تنظيم وتسليح القوات المسلَّحة لتصبح قادرةً على مواجهة التحدي الإسرائيلي وتطهير هذه القوات من العناصر الرجعية والشعوبية واصطفاء الضباط وضباط الصف والجنود المتطوِّعين على أساس إيمانهم بالعروبة والاشتراكية.

٤- هدف سورية الأول تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية وتحرير الوطن العربي من النفوذ الأجنبي".

"... وبعد فترة وجيزة انقسمت الحركة إلى قسميْن: قسم موالٍ للحزب الاشتراكي العربي، ومن بينهم: مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، وعبد الغني عياش وآخرين، وقسم آخر يرفض الحزبية داخل القوات المسلَّحة، وكان من بين عناصر هذه الكتلة: أمين النفوري، أحمد عبد الكريم، طعمة العودة الله، جادو عز الدين، أحمد حنيدي، حسين حدة، إبراهيم فرهود، بكري الزيري، عبد الله جسومة، راشد قطيني، غالب شقفة. وكان عبد الحميد السراج أميل لهذه الكتلة ويسعى بنفس الوقت لاكتساب ودِّ الطرفين دون الالتزام بموقف صريح".

"وظهر بعد ذلك أن الضباط الحزبيين يسيرون على مخطط يرسم لهم من خارج الجيش، ويكتمون ذلك عن بقية رفاقهم".

"وازداد الصراع بين الحوراني (أكرم) والشيشكلي وخاصة عندما أعلن الأخير عزمه على تأسيس (حركة التحرير) وتقييد حرية الأحزاب أو حلِّها وتعديل

الدستور لجعله رئاسيًّا وإجراء انتخابات تشريعية على أساس الدستور الجديد والتمهيد لاستلامه رئاسة الجمهورية "[١].

شهادة مايلز كوبلاند [٢]:

يقول مايلز كوبلاند:

"كنا على اقتناع مقبول بأن حسني الزعيم لم يفصح أمام أحد من قادة الألوية مع العلم بأن خطته شملتهم دون علمهم. ولكن أسرَّ لي مرة صديقي أديب الشيشكلي بأن حسني ألمح من بعيد إلى احتمال كهذا. ومن أجل مصلحة ومعلومات المؤرخين في المستقبل أرى من واجبي القول بأن القادة الأربعة كانوا: أديب الشيشكلي (جركس) ومحمد ناصر (علوي)، وبهيج كلاس (مسيحي) أزرق العينين وأشقر الشعر، وشوكت شقير (درزي) وأحد أقرباء زوجة (آرتشي) السفيرة سلوى شقير روزفلت، ولم يكن أي منهم عربيًّا تمامًا، حسب تعبير آرتشي، والأهم من ذلك أن أحدًا منهم لم يكن متحمسًا لقتال الجيش الإسرائيلي المُرعب رغم حداثة تكوينه".

"لابد لنا هنا من كلمة عن أديب الشيشكلي. كان حسني الزعيم صديق ستيف. أما صديقي أنا فكان أديب الشيشكلي وهو محتال محبوب في سجله نقطة واحدة

---

(١) انظر كتاب: حصاد، لأحمد عبد الكريم.

(٢) رجل المخابرات الأمريكية، الشهير، وقد سبق التعريف به.

لصالحه حسب علمي اليقيني أنه لم يطأطأ الرأس أمام صنم منحوت. أما من الموبقات فقد ارتكب التجديف والكفر والاغتيال والزنا والسرقة ولم يتوان في توجيه الاتهامات الكاذبة [دائماً في خدمة قضية إنسانية]. أما القول بأنه لم [يشته] مقتنيات جيرانه المختلفة [فشح في استعمال الحقيقة] حسب قول شاهد في إحدى محاكم استراليا. وإضافةً إلى خطاياه العادية هذه تعاطيه الحشيشة بين آن وآخر وتناول المسكرات مقادير فاقت ما يتناسب وصفات الأطباء. وخلال زياراته المتقاربة للسجون [استطاع مراودة بعض رفاقه عن أنفسهم]كما جاء في أحد تقاريري إلى القيادة العامة، ولما كان نيك مايكلسون هناك يتتبع باهتمام كبير صداقتي مع تلك الشخصية الفذّة في [الثورة السورية المقبلة] شدّد على تلك النقطة في التقرير، وأشار في برقية لي بأنه [إذا ما كان عندي البرهان الأكيد عنها] لابد من تسجيلها من أجل استعمالها للابتزاز عندما تدعو الحاجة.

" وأما من حيث إيجابياته فيتحتّم عليّ القول بأنني عرفت به رجلاً كريمًا حتى الجنون ووفياً في صداقته [معي ومع ستيف مثلما مع الآخرين] كما أنه لم يكن دنيئًا أمام مغريات المال. في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد في ٢٧ شباط ١٩٤٩م، وقبل أن يبصر ابني الثاني نور ذلك النهار سقطت زوجتي من فراشها. ولما تأخر وصول سيارة الإسعاف لنقلها إلى المستشفى اتصلت بأديب هاتفياً وما هي إلا دقائق حتى رأيتُه أمامي وقد تعتعه السُكر في ليلة شبه بيضاء. فنقلنا زوجتي إلى المقعد الخلفي في سيارته الكبيرة وتوجهنا إلى المستشفى. جلس معي أديب

وأخذت الصحوة تدبّ فيه محل السُكر حتى جاء ابني إلى هذا العالم وزال الخطر عن زوجتي. وجاء في سجل الولادات في دمشق اسم أديب اسماً ثانياً لابني إيان كوبلاند المدير المسرحي الشهير في نيويورك حالياً والأوحد بين أولادي الذي لايزال يتكلم العربية والمعروف باسم أديب بين أصدقائه الكثيرين في بيروت.

" دأب أديب، قبل بضعة أشهر من مولد إيان وحتى قيام انقلاب الزعيم، ينبئني بشكوكه من أن لدى حسني الزعيم [صديق ستيف] شيئاً أكبر من مجرد عصيان في الجيش. أما ستيف الذي سبق له أن أجرى عدة مقابلات مع أديب بحثا فيها الأوضاع في العمق [أحاديثي مع أديب كانت في معظمها استرخائيةً واجتماعيةَ الطابع] فسرعان ما أدرك أن أديباً، وإن كان ينقصه حضور وإطلالة حسني وعلى الرغم من أنه ليس الرجل الذي سيقبل به الشعب بديلاً عن شكري القوتلي، فهو أذكى من حسني بعشر مرات وسيتحكم بكل حركاته وسكناته فور إعلان الحكومة الجديدة. كان ستيف على حق فما أن استلم حسني الزعيم زمام الحكم حتى تحوّلت مقاليده تدريجياً لمصلحة أديب إلى أن ترأس هو، وإن ببعض التردد انقلاباً قام به في تشرين الثاني [نوفمبر] عام ١٩٥١م.

" استمرّ أديب الشيشكلي في الحكم ثلاث سنوات وعندما انهار حكمه فرّ إلى بيروت ومنها إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى باريس في طريقه إلى البرازيل، يعود إصراري على أنه لم يكن [دنيئاً أمام مغريات المال] إلى ما بات ثابتاً الآن أنه لم يحصل من السعودية على أكثر من بضعة ألوف من الدولارات بعد لجوئه إليها. وإلى

أنه حين زرته في باريس كان يقيم في غرفة في فندق يقع على الضفة اليسرى يقدّم لنزلائه وجبة الفطور فقط، ورفض قبول أي مساعدة مالية مني، ولكنني دون علمه حاسبت الفندق لمدة شهر فجاءت الفاتورة أكثر من ٥٠٠ دولاراً بقليل ". [١]

تعقيب:

بعض أقوال مايلز كوبلاند صحيحة حيث وردت على لسان كثير من الشهود الذين يعرفونه جيداً، وبعضه الآخر لا أدري ما مدى صحته؟!. فإن قيل: كيف تنقل ما تدري صحته؟!، قلت: أنقل ما قاله عنه صديقه كوبلاند، وأذكّر بحديث رسول الله ﷺ : " المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل ". [٢]

فأديب الشيشكلي لم يكن من أصدقائه: علي الطنطاوي، وحسن حبنكة الميداني، ومصطفى الزرقا لننقل عنهم، ولكنه رضي لنفسه أن يكون من خواص أصدقائه: كوبلاند، وستيف، وأكرم الحوراني، وقدري القلعجي، وشوكت شقير، وأمين أبو عساف.

---

(١) انظر كتاب: [اللاعب واللعبة] مايلز كوبلاند مؤلف كتاب لعبة الأمم، دار الحمراء للطباعة والنشر.

(٢) رواه الترمذي وهو حسن كما جاء في مقدمة ابن حجر العسقلاني، وقال البغوي في شرح السنة حسن غريب.

شهادة وفاء ابنة أديب الشيشكلي:

أجرت صحيفة زمان الوصل مقابلةً مع وفاء ابنة أديب الشيشكلي بتاريخ (٢٩/ ٤/ ٢٠١٤) وفيما يأتي بعض ما جاء فيها:

س: من كان يؤثِّر على والدك... أو يستمع إلى نصائحه؟

ج: كان يستمع إلى حديث جدتي [والدته] [(١)] من عائلة البرازي، وهي عائلة كبيرة من أصول كردية، وكان غالبًا يقضي ساعةً كاملةً معها مساءً في القصر، كان يحبها جدًّا لأنها فائقة الذكاء وخفيفة الظل، وكان يأخذ برأيها ويحاورها ويناقشها في مشاكله السياسية ويسعد بجلسته معها، وكانت تقول له: [يا بني تحاور مع خصومك وشوف شو بدهن منك اسمع منهم]، فيردُّ بألم وحسرة: يا أمي إنهم لا يعطونني فرصةً.

س: كيف قام بالانقلاب على الأحزاب؟

ج: لقد كان حزب الشعب يريد أن يدخل في وحدة مع العراق، الذي كان يرزح تحت الانتداب البريطاني آنذاك وكان هذا الأمر بالنسبة لوالدي خطًّا أحمر، لأن استقلال سورية أمر غير قابل للمساومة أو النقاش، وقد كان التوجه حينها لتشكيل حكومة غالبيتها من حزب الشعب، وقد حذَّر الشيشكلي حزب الشعب

(١) ويذكر أحمد عبد الكريم أنه كان يحذّر الشيشكلي من عبث أخيه صلاح فيجيبه: إن أمي تضغط عليّ كلما أردت اتخاذ إجراء ضده فأتراجع إرضاءً لها.

أكثر من مرة ولم يستجيبوا له، وبالفعل تم تعيين معروف الدواليبي رئيسًا للحكومة وللدفاع، حينها اضطر والدي أن يقوم بالانقلاب وأزاح معروف الدواليبي، ودخل الجيش إلى الحياة السياسية ودخل والدي إلى معترك السياسة.

س: كُتِب الكثير عن خلافات الشيشكلي مع رفيقه أكرم الحوراني... ما أصل وحقيقة هذه الخلافات؟

ج: طموحات أكرم الحوراني بالرئاسة هي التي فجَّرت الخلافات... ففي البداية كان الرجلان متفقيْن... وبعد أن ظهرت طموحات الرئاسة تبدو على سلوك الحوراني بدأت الخلافات... وحين أيقن الحوراني أن الطريق إلى الرئاسة بات معبَّدًا أمام الشيشكلي أطلق عليه الإشاعات بأنه يسعى لكبت حرية الرأي وبأنه يتعاون مع الغرب، ومن هذه الإشاعات... وظهر الخلاف علنًا حين اتَّحد الحوراني وحزبه العربي الاشتراكي مع حزب البعث العربي ليشكِّلا حزب البعث العربي الاشتراكي، كما وظَّف الشيوعيين في الحزب الاشتراكي الذي أسَّسه الحوراني. وهنا ظهر الانزعاج على والدي عندما رأى الحوراني يحشد كل الأحزاب ضده.

س: وكيف كان يرى والدك الخلاف مع الحوراني؟

ج: كان أبي يقول: إن حماة مقسَّمة بين اشتراكيين وإقطاعيين، وكان هناك دائمًا بينهم عداوة وقتل... وفي تلك الفترة وقع قتال متبادل بين عائلة الحوراني

والشيشكلي في حماة... فقُتل واصل الحوراني [١] **على يد غالب الشيشكلي**، وردَّت عائلة الحوراني بقتله بالرغم من القرابة التي كانت تربط بينهما... حينها قال والدي: إن الحساسيات والعداوة بين الحمويين أدخلها الحوراني في السياسة وأصبح يحاربني مع أتباعه بهذه الحجة... حتى بلغ به الأمر بمحاولة اغتيال الشيشكلي ولكن الخطة فشلت... **أكرم الحوراني شخص نرجسي ويعتبر سورية مركز الكون وحماة هي مركز سورية، وهو مركز حماة، وبالتالي هو مركز الكون.**

س: هناك مقولات شهيرة للرئيس الراحل يُشك في أنها وردت على لسانه وهي: [إن أعدائي يشبهون الأفعى رأسها جبل الدروز ومعدتها حمص وذنبها حلب، فإذا سحقت الرأس ماتت الأفعى... وأيضًا احذروا الجبليْن [الدروز-العلويين]؟

ج: لم نسمع بهذه العبارات في بيتنا على الإطلاق... ولكن سمعناها من الناس... حتى والدتي وجدتي لم تذكرا قط هذه العبارات، على العكس فكل الضباط الذين يحيطون بوالدي هم من الدروز والعلويين، والدليل شوكت شقير كان رئيسَ الأركان من أكثر المقرَّبين من والدي، وكذلك العقيد أمين أبو عساف والنقيب فضل الله أبو منصور هم من الطائفة الدرزية، ولا أعتقد أن والدي يقول مثل هذه الكلمات ومحيطه العسكري درزي.

س: ألم يكن طائفياً؟

---

(١) واصل الحوراني شقيق أكرم الحوراني، وغالب الشيشكلي ابن أخت أكرم الحوراني.

ج: في ذلك الوقت لم تكن هناك نزعات طائفية عمومًا، وخصوصًا والدي كان له الكثير من الأصدقاء العلويين.

س: نوَّاف أبو غزالة هو الشخص الذي قتل والدك... فمن هي الجهة وراءه؟

ج: أنا متأكدة أن نظام البعث هو من قتل والدي، لأن البعث تسلَّم السلطة في العام ١٩٦٣م واغتيال والدي كان في أيلول [سبتمبر] ١٩٦٤م، فالحزب كان حريصًا على التخلص من أديب الشيشكلي، خصوصًا بين الفترة والأخرى كانت تظهر شائعات بأن الشيشكلي سيعود... وكان هاجسهم ألا يحكم مجدَّدًا... وبالفعل بدأت التصفيات وكانت البداية مع أديب الشيشكلي، وبعده بدأت سلسلة تصفيات".

سقوط الشيشكلي:

في النصف الثاني من عام ١٩٥٣م نفد صبر السوريين من استبداد الشيشكلي، مع أن استبداده لا يُقارن بالاستبداد الذي ذقنا مرارته فيما بعد:

فالجيش كان منقسمًا على نفسه: فهؤلاء جماعة الشيشكلي، وهؤلاء جماعة أكرم الحوراني وحزب البعث، وأولئك تكتلات طائفية. والخطورة أن ذلك كله يجري في السر، أما في العلن فيبدو موحَّدًا.

والسياسيون اجتمعوا في دار الرئيس الأتاسي في حمص، ووقَّعوا ميثاقًا وطنيًا شجبوا فيه سياسة الشيشكلي الفردية، ودعوْا إلى حكم ديمقراطي، وكان من

الموقِّعين: هاشم الأتاسي، وسلطان الأطرش، ورشدي الكيخيا، وصبري العسلي، وسامي كبارة، وأكرم الحوراني، وميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وبلغ الموقِّعون على الميثاق ١٤٠ شخصيةً سياسيةً من سائر الأحزاب ما عدا الحزب القومي السوري.

وعمِّت المظاهرات سورية، ومما لازلت أذكره أننا- الطلاب- خرجنا في مظاهرة صاخبة في ذرعا، وقُتل منا أربعة طلاب كان اسم أحدهم طه عزيزة رحمهم الله، ثم استمرَّت مظاهراتنا حتى سقط حكم الشيشكلي، فاحتفل الطلاب في التجهيز وخطب فينا ضابط عرفتُ فيما بعد أنه أمين الحافظ الذي أصبح رئيسًا للدولة في فترة من فترات حكم حزب البعث لسورية.

ومما يجدر ذكره أن الجهات الأمنية ألقت القبض على مجموعة من كبار الطلبة واقتادتهم إلى دمشق، ولا أدري هل أودعتهم في سجن المزَّة أو القلعة؟! وكل الذي فعلتْه بهم هو حلق شعر رؤوسهم وهدَّدتهم ثم أعادتهم إلى مدرستهم، وأصبح لهم شهرة بيننا وكأنهم فتحوا القسطنطينية، وكنا نستمع بشغف لما دار بينهم وبين المحقِّقين ونتناقله، ثم نتندَّر على البعض فنقول: فلان لحق بسيارة الشرطة كي يُعتقل ويشتهر، ولكن الشرطة طردته وحرمته من أن يصبح عَلَمًا من أعلام الطلبة.

انظر- يا رعاك الله- إلى استبداد أديب الشيشكلي الذي باع واشترى به الطائفيون الذين كانوا يتدثَّرون بلباس مزيَّف اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي، ولم يكن هذا الحزب عندهم أكثر من سُلَّم يرتقون عليه من أجل تحقيق

مآربهم التي لم تكن بعثًا أو عربيةً أو اشتراكية. ثم انظر اليوم ماذا يفعلون في سجون سورية، ولا تنسَ أن سورية أصبحت كلها سجنًا. لقد فقدوا أدنى معاني الرحمة والنخوة والمروءة، فهل أقول: إنهم كذئاب ترعى الغنم! ولكن في هذا القول على إطلاقه ظلم للذئاب من وجهين:

الوجه الأول: فالذئب لا يأكل ذئبًا، وهؤلاء أكلوا الذئاب التي علَّمتهم الرماية والذئاب التي استخدموها في عدوانهم على الآمنين.

الوجه الثاني: فالذئب لا يرضى أن يشاركه كلب أو ضبع في أكل فريسته، وهؤلاء استخدمهم اليهود والأمريكان والروس والفرس في ارتكاب أبشع الجرائم، وما أحداث المخيمات الفلسطينية عنا ببعيد، وكذلك عمليات الإبادة التي يتعرَّض لها أهل السنة في سورية، ويستخدمون جميع أنواع الأسلحة في هذه العمليات، ولا تسل هل هذه الأسلحة محرَّمة أو غير محرَّمة، فليس عندهم شيء محرَّم، وهذا العالم يشهد ويرى.

وإنني إذ أتحدَّث عن بشاعة الجرائم التي يرتكبها الطائفيون النصيريون اليوم لا أُسوِّغ استبداد أديب الشيشكلي، فالاستبداد كل استبداد واجبنا استنكاره ومواجهته.

عودة إلى السياق: لقد قابل الشيشكلي تحرُّك المعارضة باعتقال كل من: صبري العسلي، وميخائيل إليان، ورشدي الكيخيا، وأكرم الحوراني، وميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وغيرهم. ووضع هاشم الأتاسي، وسلطان الأطرش، وحسن

الأطرش قيد الإقامة الجبرية في بيوتهم.

ثم انفجر وضع الدروز في الجبل فتحرَّك الجيش بقيادة الزعيم رسمي القدسي الذي قصف الجبل بالمدفعية والطيران، وشارك الرئيس صلاح الشيشكلي شقيق أديب بهذه الحملة وكان يقود قوات الهجَّانة، واستمرَّت المعارك أسبوعين ثم التجأ سلطان الأطرش إلى الأردن وأمر بوقف القتال. وتبيَّن الشيشكلي أن السلاح كان يأتي للدروز من العراق، فأبعد الملحق العسكري العراقي في دمشق عبد المطلب الأمين.

وفي صباح ٢٥/ ٢/ ١٩٥٤م أذاع راديو حلب بيانًا بصوت الرئيس مصطفى حمدون طلب فيه من الشيشكلي التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد، وكان البيان باسم كل من الزعيم أمين أبو عساف والعقيد فيصل الأتاسي والرئيس مصطفى حمدون، وفي ٢٦/ ٢/ ١٩٥٤م غادر أديب الشيشكلي دمشق إلى بيروت، ثم منها إلى الرياض ففرنسا، وأُسدل الستار على نظام حكم استبدادي استمرَّ حوالي خمس سنين.

وجملة القول: فهذا هو أديب الشيشكلي كما كتب عنه أقرب الناس إليه من الأهل والأصدقاء. لقد كان خلال فترة من سني عمره من الحزب السوري القومي، وبقي الحزب مؤيِّدًا له حتى اليوم الأخير من حكمه، ثم أنشأ حركة التحرير واتخذها واجهةً سياسيةً له، وكان ذلك بعد خلافه مع صديق عمره أكرم الحوراني الذي كان شريكه في الانقلاب، واختاره وزيرًا للدفاع، وكان لايزال نائبًا

لرئيس الأركان، ولم يقع الخلاف بينهما إلا بعد أن أيقن الحوراني بأن الشيشكلي يمهِّد الطريق ليكون رئيسًا للدولة وكان يرى أن الجيش ورئاسة الدولة للحوراني، فمثلهما في ذلك [كسحَّار وقع على مكَّار]، فالشيشكلي أشدُّ مكرًا في استخدامه الحوراني لفترة معينة سهَّل له صعوده السياسي.

ولم يكن الشيشكلي عدوًّا للدروز أو النصيرية، فالضباط الدروز كانوا ساعده الأيمن في انقلابه العسكري: كأمين أبو عساف، وفضل الله أبو منصور، ورئيس أركانه شوكت شقير، وهم الذين انقلبوا عليه عندما ضرب دروزهم في الجبل فالمواقف شخصية من جهته وليست عقائديةً ولا يهمنا مثل هذا الخلاف، وكذلك كان شأنه مع النصيريين عندما وُجِّهت إليه أصابع الاتهام في اغتيال خصمه قائد سلاح الطيران العقيد محمد ناصر، ولكنه كان له أوثق الصلات مع ضباط آخرين من أبناء الطائفة.

والشيشكلي انتهازي ولا ينطلق في سياسته وسائر مواقفه من ثوابت يلتزمها ولا يتجاوزها، بل لا يبالي في فعل أي شيء يقدر عليه، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك انقلابه الأخير الذي أطاح بحكومة معروف الدواليبي.

لقد زعم أن حزب الشعب الذي ينتمي إليه الدواليبي يتآمر على النظام الجمهوري في سورية، ويعمل على تحقيق وحدة مع النظام الملكي في العراق، وعندما نجح انقلابه توتَّرت العلاقات العراقية- السورية، وأصبحت بغداد مركزًا للمعارضة السورية، وقابل الشيشكلي هذا التآمر بانحيازه إلى المحور السعودي

المصري.

سقط حكم الشيشكلي، ومضت الأيام... وأصبح الشيشكلي معارضًا لنظام الحكم في سورية بعد عام ١٩٥٤م، ثم لم يجد حرجًا في التعاون مع النظام الملكي العراقي الذي كان يقاومه أشدَّ المقاومة، وكانت مؤامرة ١٩٥٦م التي سيأتي الحديث عنها في صفحات قادمة إن شاء الله.

الفهرس

المقدمة ٥

المسألة الفلسطينية نظرات في تاريخنا المعاصر ٩

تمهيـــد ١٣

الرجل المريض..... ٢٢

الهدّامون من الداخل ٣١

السلطان عبد الحميد والمسألة الفلسطينية ٣٩

وقفة جديرة بالتأمل..... ..... ٥١

عود على بدء ٥٤

كيف واجه السلطان عبد الحميد المؤامرة ٧٤

خلع السلطان عبد الحميد..... ..... ٨٥

عود على بدء..... ٩٠

رسالة السلطان لشيخه ٩٨

وقفات ١٠٤

الانحدار ١٠٩

إثارة النعرات القومية وذراري أهل السنة ١١٣

المكاتبات السرية بين الشريف حسين والسير هنري ماكمهون ١٢٣

مشانق جمال باشا..... ١٢٧
ثورة الحسين..... ١٣٥
وقفـــات..... ..... ١٣٨
معاهدة سايكس بيكو ١٤٣
وعد بلفــور ١٤٥
اتفاقية وايزمن – فيصل ١٤٧
الأطراف التي شاركت في إنجاز المشروع الصهيوني ١٥٥
الاتحاد والترقي ١٥٥
دور إنجلترا..... ..... ١٥٩
دور عبد الله بن الحسين..... ..... ١٦٠
دور الولايات المتحدة الأمريكية ١٦٤
ليس علينا في الأميين سبيل ١٦٨
وتذكروا الخليفة والخلافة ١٨٥
صحوة ضمائـــر..... ..... ١٩٧
خالد العظم ١٩٧
فارس الخوري ٢٠٥
أحمد الشقيري ٢٠٨

النكبـــــة ٢٢٣

ويل لسايس وأخرى لبيكو ٢٢٥

الخاتمة ٢٣٥

المرحلة الإعدادية ٢٥٥

رأي في رابطة العشيرة ٢٦٦

الوضع العام في مجتمعنا الجديد ٢٧٣

من أهم مشكلاتنا وهمومنا في حوران ٢٨٣

صفحات من تاريخ سوريا السياسي ٢٨٩

تمهيـــــد ٢٩١

معركة دين الدولة الإسلام ٢٩٣

بيان السباعي التاريخي ٢٩٨

الخلاف بين رابطة العلماء والكتلة الإسلامية الاشتراكية ٣١٠

وقفـــات ٣١٦

أديب الشيشكلي وانقلاباته وشهادات أصدقائه فيه ٣٢٥

شهادة الضابط أحمد عبد الكريم ٣٢٥

شهادة مايلز كوبلاند ٣٣٠

شهادة وفاء ابنة أديب الشيشكلي ٣٣٤

سقوط الشيشكلي ٣٣٧
الفهرس..... ..... ٣٤٣